

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

كان طبيعياً أن يعنى عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في الأندلس بديوان الرسائل، كما عُنِيَ به خلفاء أسرته الأمويون في دمشق، وخاصة جده هشام بن عبد الملك، وقد أسند الكتابة في ديوانه بقرطبة إلى أمية بن يزيد بن أبي حوثة، وأسندها ابنه الأمير هشام إلى محمد^(١) بن أمية المذكور، وتولى مقاليد الحكم بعده ابنه الحكم الربضي، وأسندها إلى حجاج^(٢) المغيلي، وفطيس بن سليمان وفي كتاب الحلة السيرة أن راتبه كان خمسمائة^(٣) دينار. وخلفه ابنه عبد الرحمن الأوسط مؤسس الحضارة الأندلسية ونظمها الإدارية التي استقرت منذ عهده، كما ذكرنا فيما أسلفنا، إذ اتخذ مجلس وزراء وقسم شئون الدولة في القضاء والمال والحرب وغير ذلك إلى خطط، واقتضى ذلك تعدد الكتاب مع الوزراء وأصحاب الخطط مما كان له أثره في نهضة الكتابة الديوانية. ويذكر ابن حيان كتابه، ويسميه أصحاب الكتابة العليا، وهم - على التوالي - عبد^(٤) الكريم بن عبد الواحد بن مغيت مع ما كان له من الحجابة، وتوفي سنة ٢٠٩، فخلفه فيها محمد بن^(٥) سعيد الزجاجي، حتى إذا توفي سنة ٢٢٨ خلفه فيها عبد الله^(٦) بن محمد بن أمية، وتوفي عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ فظل يليها - مع مرض كان ينتابه - في عهد

-
- (١) انظر في محمد بن أمية وأبيه وتوليها الكتابة
المقتبس لابن حيان (تحقيق د. محمود مكي - طبع
لبنان) ص ٣١ والمغرب ٧١/١.
(٢) راجع في تولى المغيلي وفطيس الكتابة للحكم
الربضي، المغرب ٤٤/١
(٣) انظر الحلة السيرة لابن الأبار (تحقيق
د. مؤنس) ٣٧٣/٢.
(٤) المقتبس ص ٣٢ وانظر الحلة السيرة
١٣٥/١.
(٥) المقتبس ص ٣٢ والمغرب ٣٣٠/١.
(٦) المقتبس ص ٣١ والحلة السيرة ٣٧٣/٢.

محمد بن عبد الرحمن الأوسط حتى وفاته سنة ٢٤٦ وكان يخلفه في الكتابة أثناء مرضه فومس^(١) بن أنتيان النصراني وكان بليغا بصيرا بصناعة الكتابة فأسلم وحسن إسلامه، وولاه الأمير محمد الكتابة العليا، وكان قد استن في أثناء اعتناقه للنصرانية - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - الإجازة يوم الأحد، فتبعه في ذلك جميع الكتاب في ديوان الأمير محمد، وأصبحت تلك الإجازة - كما يقول ابن حيان - سنة عامة في الأندلس. وعجلت المنية بقومس، فتقلد الكتابة العليا بعده حامد^(٢) بن محمد بن سعيد الزجالى مع ما تقلد من الوزارة إلى وفاته سنة ٢٦٨. وحين أصبح صولجان الحكم بيد ابنه الأمير عبد الله اتخذ على الكتابة العليا عبيد^(٣) الله بن محمد بن أبي عبدة، ومنذ سنة ٢٨٧ يقلدها عبد^(٤) الله بن محمد بن عبد الله الزجالى، ويظل يتقلدها سنتين زمن عبد الرحمن الناصر حتى وفاته سنة ٣٠٢ فيعهد بها الناصر إلى عبد^(٥) الملك بن جمهور فعبد الحميد بن بسيل فعبد الرحمن بن بدر فعيسى بن فطيس بن أصبع بن فطيس، ونراه مجبراً عن عبد الرحمن الناصر رسالة سنة ٣٢٧ فيخليها من السجع^(٦)، مما يدل على تأخر استخدامه في الكتابة الديوانية بالأندلس، ويؤكد ذلك أننا نرى عبد الرحمن الناصر يعهد بالكتابة العليا بعد ابن فطيس إلى عبد^(٧) الرحمن بن عبد الله الزجالى سنة ٣٢٩ حتى إذا كلفه في سنة ٣٤٥ بكتابة منشور^(٨) - على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع - يُقرأ في المساجد الجامعة بقرطبة وغيرها من مدن الأندلس ضد ابن مسرة وأتباعه أخلاه من السجع. وظلت الكتابة الديوانية تخلو من السجع في عهد ابنه الحكم المستنصر، حتى إذا كان عهد هشام ابنه وحاجبه المنصور بن أبي عامر وابنيه الحاجبين بعده المظفر والناصر رأينا السجع يشيع على السنة كتابهم، على نحو ما يلقانا عند ابن^(٩) برد الأكبر صاحب ديوان الإنشاء لعهد المنصور بن أبي عامر وابنيه وفي زمن الفتنة للمستعين (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ثم لبني حمود بعده، وتوفي سنة ٤١٨ وقد نيف على الثمانين، وله من

الرحمن الناصر فهرس المقتبس الجزء الخامس الخاص بالناصر طبع مدريد.
(٦) المقتبس ٤٣٨/٥.
(٧) المقتبس ٤٧١/٥.
(٨) المقتبس ٢٥/٥.
(٩) انظر في ابن برد الأكبر الذخيرة ١٠٣/١ والمغرب ٨٦/١ والحميدى ١١١ والصلة لابن بشكوال ص ٤٠.

(١) المقتبس ص ١٣٨ والقضاة للخشني ص ١١٠.
(٢) المقتبس ص ٣٢، ٣٧ والمغرب ٣٣١/١.
(٣) راجع في ابن أبي عبدة الحلة السيرة ١٤٦/١.
(٤) المقتبس ص ٣٢ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ص ١٧٢.
(٥) راجع في ابن جمهور وغيره من كتاب عبد

رسالة^(١) ديوانيه عن الحاجب المظفر بن المنصور بن أبي عامر، يبرر فيها قتله لصره ابن القطاع:

«إنا أخذناه من الحَضيض الأَوَّهْدِ، وانتشلناه من شظف العيش الأُنْكَدِ، ورفعنا حَسْبِيستَه، وأتمنا نقيصَتَه.. فلا أقرُّ لنا بحق، ولا قابل إحساننا بصدق، ولا عامل رعيتنا برفق، ولا تناول خدمتنا بحذق، بل أعلن بالمعاصي ونَبذ عهدنا، وخالف سُبُلنا، وكَدَّر على الناس صَفونا»

وينتهى عصر الدولة الأموية، وتدخل في عصر أمراء الطوائف: عصر التنافس السياسي الحاد بينهم والتنافس الأدبي الحاد بين الأدباء من كتاب وشعراء، ويصبح السجع أشبه بقانون عام في جميع الرسائل الديوانية الصادرة عن هؤلاء الأمراء إذ التمسه جميع كتابهم في كل ما يكتبونه عنهم، التمسه أحمد^(٢) بن عباس كاتب زهير أمير المرية على البحر المتوسط المقتول معه سنة ٤٢٩ هـ والتمسه محمد بن أحمد البزلياني كاتب حبوس صاحب غرناطة وسنترجم له عما قليل كما التمسه أبو عامر^(٣) التاكرفي كاتب أمراء بلنسية: المظفر ومبارك حتى سنة ٤١٧ هـ ثم المنصور بن أبي عامر الأصغر أميرها بعدها، وكان يعاصره ابن برد الأصغر كاتب معن أمير المرية وسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية، وعاصرها أبو محمد بن عبد البر كاتب مجاهد وابنه على أميرى دانية وسنترجم له بعد قليل. ومن الكتاب الناهيين في هذا العصر أبو المطرف^(٤) بن مثنى كاتب المأمون بن ذى النون أمير طليطلة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) وأبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وكان يشاركه في الكتابة للمقتدر أبو عمر الباجي، ومنهم أيضا ابن المعلم^(٥) كاتب المعتضد بن عباد أمير إشبيلية، وأبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ومحمد^(٦) ابن أين كاتب المتوكل بن الأفضس أمير بطليوس، وله رسالة عنه إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين براكش

(١) الذخيرة ١٢١/١.

٢٠١. وتاكرنا كانت قصة رتدة.

(٤) راجع في ابن مثنى الذخيرة ٤٠٩/٣.

(٢) راجع في أحمد بن عباس الذخيرة ٦٤٣/١

(٥) راجع في ابن المعلم الذخيرة ١١٢/٢، ١١٨.

والمغرب ٢٠٥/٢ والإحاطة (طبعة عنان) ٢٦٧/١

(٦) انظر في ابن أين الذخيرة ٦٥٢/٢ والمغرب

(٣) انظر في التاكرفي الذخيرة ٢٢٦/٣ والمغرب

٣٦٦/١

٣٣٢/١ والحמידى ٥٦ وإعتاب الكتاب

يستصرخه لنجدة الأندلس ضد ألفونس ملك قشتالة ونصارى الشمال، وفيها يقول: ^(١) «لما كان نور الهدى دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزوك الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعي لما أعزل من الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المظيفة بها - أهلكهم الله - عند إفراط تسلطها واعتدائها، وشدة كلبها ^(٢) واستشرائها، تُلَاطَف بالاحتيال، وتُستنزَل بالأموال.. ولم يزل دأبها التشطط والعيادة، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى استصفي الطريف والتلاد، واضطرت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ^(٣)، فيالله! ويا للمسلمين! أيسطو هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفر، ولا يكتنف هذه الملة النصر، ألا ناصر لهذا الدين المهتمم؟! ألا حامى لما استبيح من حمى الحرم؟ وإنا لله على ما لحق عرش الدين من ثل ^(٤)، وعزّه من ذل!»

وتمضى الرسالة بهذا الاستصراخ المتقدحمة للدين الحنيف وأهله. وتوالى على ابن تاشفين مثلها من المعتمد. وأرسل هو والمتوكل له قاضيها مستغيثين به، كما استغاث به كثير من فقهاء الأندلس، فخف بجنوده وعبر بهم المجاز خفافا وثقالا رجالا وركبانا، وأنزل بهم وبعن اجتمع له من أهل الأندلس بألفونس السادس ونصارى الشمال موقعة الزلاقة التي سحق فيها أعداء الدين الحنيف سحقا، على نحو ما مر بنا في الفصل الأول. ويرى ابن تاشفين ببصيرته النافذة أن يرفع عن الأندلس عبء أمراء الطوائف الذين أحالوها مِرْقًا بينهم، فجَمَعَ بلدانها تحت لوائه، وكان قد تعرف على أبي بكر بن القصيرة كاتب المعتمد بن عباد، فاستدعاه إلى مراكش بعد ثلاث سنوات وعهد إليه بديوان الإنشاء، وظل يتولاه في عهد ابنه على إلى وفاته، وسنترجم له عما قليل. وطالت مدة حكم على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧) ومن كتب له أبو القاسم بن الجد وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وأبو عبد الله محمد بن أبي الخصال وسنترجم له عما قليل وعبد العزيز بن القبطورنة كاتب المتوكل بن الألفونس مع ابن آيين المار. وكثر ولاية المرابطين في الأندلس وكان كل منهم يتخذ كاتبًا بليغا ومن كتب لتميم بن يوسف بن تاشفين والى غرناطة أبو الحسن

(١) الذخيرة ٦٥٣/٢.

(٢) الكلب: شدة الحرص والمعاناة، والاستشراء: (٤) ثل: هدم.

تفاقم الاعتداء.

على^(١) بن الإمام تلميذ ابن باجة الفيلسوف، وكتب لسير بن أبي بكر والى إشبيلية عبد المجيد بن عبدون، وهو من كتاب المتوكل بن الأفطس ومرة ترجمته مع مرثيته المشهورة لدولة بني الأفطس، وقد كتب بعدهم للمرابطين، أولاً لسير بن أبي بكر - كما ذكرنا - ثم لعلي بن يوسف بن تاشفين إلى وفاته على نحو م مر في ترجمته.

وتخلف دولة الموحدين في الأندلس دولة المرابطين، ويذكر صاحب المعجب كتاب حكامها ويبدأ بكتاب مؤسسها عبد المؤمن، وهم أبو جعفر أحمد^(٢) بن عطية وهو مراكشي وأبو القاسم القالبي من بجاية وعياش بن عبد الملك بن عياش القرطبي، وفي مجموع رسائل موحدية المطبوع بالرباط غير رسالة ديوانية للأولين، وهما جميعاً مغربيان. وكتب ليوسف بن عبد المؤمن عياش^(٣) والقالبي إلى أن توفي فخلفه ابن محشرة وهو من بجاية مثله. وكتب ليعقوب بن يوسف ابن محشرة كاتب أبيه وأبو عبد^(٤) الله محمد بن عبد العزيز بن عياش التجيبي المريني المولود سنة ٥٥٠ استكتبه يعقوب سنة ٥٨٦ فنال دنيا عريضة، وظل يلي ديوان الإنشاء لابنه الناصر ثم لابن ابنه المستنصر حتى وفاته سنة ٦١٨ وفي مجموع رسائل موحدية ثلاث رسائل، له اثنتان منها عن الناصر والثالثة عن يعقوب، وهي في وصف غزوته الثانية للنصارى سنة ٥٩٢ بعد سحقهم في موقعة الأرك سنة ٥٩١، وكانت وجهته طليطلة، فاستولى على كثير من الحصون حولها، وفيها يقول^(٥):

« فلما صارت البلاد كأن لم تغن، والمعقل كأن لم تُبن، وعُلم أن من حيل بينهم وبين المواطن والأموال والأقوات أحياء ولكن في عداد الأموات، صوينا على طليطلة قاعدة الصفر، وأم بلاد الكفر.. وأخذهم العذاب من حيث لا يشعرون. وعرفوا التخاذل من حيث كانوا يبصرون، واستقبلتهم العبر أفواجا أفواجا، وجاءتهم النذر تأويبا وإدلاجا.»

وكان أبو عبد الله محمد^(٦) بن يخلفتن الفازازي القرطبي يعمل في ديوان قرطبة وعين

وراجع في أبي عبدالله بن عياش التكملة رقم ٩٥٢

وزاد المسافر ٩٤ والمعجب ص ٣٩١، ٤٠٥.

(٥) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٦) راجع في محمد بن يخلفتن المعجب ص ٣٩١.

٤٠٦ والتكملة رقم ٢١٣٥.

(١) المطرب ٨٩ والمغرب ١١٦/٢

(٢) المعجب ص ٢٦٧.

(٣) لعله أبو الحسن بن عياش المذكور في

مجموع رسائل موحدية وله فيه عن يوسف رسالتان.

(٤) انظر في كتاب يعقوب المعجب ص ٣٢٨

قاضيا في مدينة مرسية، واستدعى للنهوض بالكتابة في ديوان المستنصر حين توفي ابن عياش، وظل قائما عليه في عهد العادل (٦٢١ - ٦٢٤) وتوفيا معا في سنة واحدة. وخلف العادل إدريس بن يعقوب وتلقب بالمأمون (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) وكان يحكم إشبيلية قبل ذلك وثار عليه البياسي بجيآن وقضى على ثورته وكان يكتب له حينذاك أبو زيد^(١) عبد الرحمن بن يَخْلُفْتَن المترجم له في الفصل الماضي أخو محمد المذكور آنفا، وقد استقدمه إلى مراكش ولم يكده يمضى بها عدة أشهر - كما مر بنا في ترجمته - حتى توفي سنة ٦٢٧.

وكان يكتب لولاة الموحدين في الأندلس كتاب بارعون ويكفى أن نذكر أنه كتب لعثمان بن عبد المؤمن والى غرناطة عبد^(١) الرحمن بن مسعدة وأخوه يحيى وابن جبير الرحالة المشهور وابن هَرَوْدَس الوشاح المبدع على نحو ما ذكرنا في حديثنا عن الموشحات. وأخذت الأندلس جميعها تثور على المأمون والموحدين لضعفهم في مقاومة الأرجونيين في الشرق والقشتاليين في الشمال والبرتغاليين في الغرب. وكان أهل شرق الأندلس أول من ثاروا على الموحدين بزعامة أبي عبد الله محمد بن هود سنة ٦٢٥ تحت شعار الخلافة العباسية إرضاء للعامة، واتخذ مرسية قاعدة له ومد سلطانة على مالقة والمرية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة، وثار عليه بإشبيلية الباجي وابن صاحب الرد وابن الجبد وتوفي ابن هود سنة ٦٣٥ وثار بمرسية عزيز بن خطاب سنة ٦٣٦ وقتل بعد تسعة أشهر. ومن أكبر الثوار حينئذ ابن الأحمر محمد بن يوسف، وقد واقع ابن هود وانتصر عليه مرارا واستخلص منه غرناطة وأسس فيها دولتهم التي ظلت أكثر من قرنين ونصف. ومن كبار هؤلاء الثوار أبو جميل زيان بن مردنيش التائر ببلنسية سنة ٦٢٦ وقد حكم أولا تحت شعار العباسيين مثل ابن هود، ثم حول الدعوة منهم إلى الحفصيين في تونس رجاء أن يدوا له يد العون ضد ملك أرجون. وقد أخذت تسقط جواهر الأندلس ومدنها الكبرى في حجور الأرجونيين والقشتاليين والبرتغاليين، وإنما ذكرنا ذلك لأن كل نائر ممن سميناهم اتخذ كاتباً بليغا، فالبياسي كتب له أبو يحيى^(٢) بن هشام القرطبي وأحبطت ثورته سريعا، واعتنق النصرانية مذموما مدحورا، وكتب لابن هود أبو جعفر^(٣) أحمد بن

٣١/٧ حيث احتفظ برسالة مهمة له عن ابن هود.

(٣) راجع في أبي جعفر المغرب ١٦٤/٢ والقدر

١١٤.

(١) راجع في عبد الرحمن وأخيه يحيى المغرب

١١٢/٢ - ١١٣.

(٢) انظر في أبي يحيى بن هشام المغرب ٧٤/١

واختصار القدر المعلق ص ٨٩ وصحح الأعشى

طلحة وابن الجنان^(١) وأبو المطرف بن عميرة، وسترجم له، وكتب عن الباجي ابن^(٢) البناء الإشبيلي، وكتب لابن الأحمر ابن خطاب^(٣) الجياني وأبو عبد الله^(٤) ابن الخيال، وكتب لزيان أبو المطرف بن عميرة، وابن الأبار الذي ترجمنا له في الفصل الماضي.

ومن الكتاب في دواوين بني الأحمر ابن الحكيم^(٥) كاتب الحاكم الثاني في الأسرة محمد بن محمد بن نصر المعروف بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) وكتب ابن الحكيم أيضا لابنه محمد (٧٠١ - ٧٠٨ هـ) ومن كتاب بني الأحمر الناهيين في القرن الثامن الهجري ابن الجيَّاب^(٦) ولسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وسترجم له، وخلفه على ديوان الإنشاء ابن زَمْرَك، ومَرَّت ترجمته بين شعراء المديح، وربما كان أُنبه كتابهم في القرن التاسع الهجري أبو عبد الله^(٧) الشَّرَّان محمد بن إبراهيم. وحرى بنا أن نتوقف قليلا لتتحدث بكلمات مجملة عن ستة من كتاب الرسائل الديوانية الناهيين هم: البزلياني وأبو محمد بن عبد البر وابن القصيرة وابن أبي الخصال وابن عميرة ولسان الدين بن الخطيب.

البزلياني^(٨)

هو أبو عبد الله محمد بن عامر البزلياني المالقي، وبزليانة من قرى مالقة، وكانت مالقة تتبع غرناطة وكانت إمارة الإقليم في عصر أمراء الطوائف لبني زيري المغاربة، وأول من تولاها منهم زاوي حتى سنة ٤١٠ وتولاها بعده ابن أخيه حَبُوس بن ماكسن بن زيري، وطمحت نفس البزلياني للعمل في الدواوين بغرناطة وسبقت شهرته بإحسان الكتابة إليها فاستكتبه أميرها حبوس وأصبح رئيسا لديوانه وكتابه. وعمل بعده مع ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكانت فيه قسوة وجفوة، فرأى التحول عنه وعن دواوينه، ويقول صاحب الذخيرة إنه «ممن أدار الملوك ودبرها، وطوى الممالك ونشرها» وإنه تقلب في البلاد، وانتهى به المطاف إلى المعتضد بن عباد سنة ٤٤٣ فألحقه بدواوينه، ووصله بابنه

(٥) أزهار الرياض ٢/٢٤٠ والإحاطة ٢/٤٤٤.

(٦) الكتيبة الكامنة ص ١٨٣.

(٧) انظر في الشران أزهار الرياض ١/١٣٣.

(٨) راجع في ترجمة البزلياني ورسائله الذخيرة

١/٦٢٤ والمغرب ١/٤٤١.

(١) راجع في ابن الجنان ورسالة له عن ابن هود

صبح الأعشى ٧/٣٤.

(٢) انظر في ابن البناء القندح ص ١١٨.

(٣) راجع في ابن خطاب الجياني القندح ص ٢٢.

(٤) انظر في أبي عبد الله بن الخيال القندح ص

إسماعيل، وما تدخل سنة ٤٤٥ حتى يأمر المعتضد ابنه إسماعيل بغزو قرطبة، ولم يكن البزلياني - كما سنرى - يرتضى سياسة المعتضد في غزو جيرانه، بينما يرضخ خاضعا لنصارى الشمال، وأغوى إسماعيل بمخالفة رأى أبيه، وخوفه من إسراع باديس أمير غرناطة بنجدة بنى جهور في قرطبة، فيقع بين فكّي أسدين يمضغانه. وكان المعتضد أبوه يعامله بقسوة وفظاظة فرأى أن ينصرف من طريقه بجيشه إذ تعاطمه الهجوم على قرطبة مع قرب حلي أمرائها باديس أمير غرناطة منهم كما ذكرنا. ويقال إن البزلياني مضى في استغوائه له وإنه أشار عليه بهربه من أبيه ودبره، وتطورت الظروف، فقتل المعتضد البزلياني لما قر في نفسه من أنه هو الذى أغواه، وقتل بعده ابنه. هكذا يقول الرواة ونظن ظنا أن المعتضد استدراج البزلياني للعمل في دواوينه، وهو يبيّن له هذا المصير المحتوم، لما عرف عنه من إنحائه على أمراء الطوائف باللوم- في رسائله- منذ كان عند حبوس - على سياستهم وحرهم بعضهم لبعض واستعانتهم في ذلك بنصارى الشمال، ليغرسوا جرابهم في صدور إخوانهم المسلمين. وليس ذلك غريبا على المعتضد فقد كتب إليه أصدق أصدقائه أبو حفص عمر الهوزنى يحضه على جهاد النصارى فاستدرجه، ووضعه بأعلى محل، وعوّل عليه في العقد والحل، حتى إذا مضى عليه عامان باشر قتله بيده^(١)، فكان طبيعيا أن يفتك بالبزلياني، حتى لو لم يتصل بابنه إسماعيل، لحملته العنيفة على سياسته وسياسة أئداده من أمراء الطوائف، على نحو ما يتضح من رسالة أرسل بها - كما يقول ابن بسام - عن حبوس إلى يحيى بن منذر التجيبى أمير سرقسطة: وفيها يقول:

«اتصل بى ما وقع بينك وبين المؤتمن (المنصور)^(٢) الأصغر عبد العزيز) أمير بلنسية (٤١٧ - ٤٢٥ هـ) والموفق مجاهد (أمير دانية) (٤١٣ - ٤٣٦ هـ). وعضد الدولة (أمير إشبيلية)، وأنكم اضطرتتم إلى إخراج كل فريق منكم النصارى إلى بلاد المسلمين، فعظم قلقتى، وكثرت على المسلمين شفتى، فى أن يظأ أعداؤهم بلادهم، ويوتومأ أولادهم.. ولو لم تكن الفتنة - يا سيدى - إلا بين المسلمين والتشاجر إلا بين المؤمنين لكانت القارعة العظمى، والداهية الكبرى، فإذا تأيدنا بالمشركين، واعتضدنا بالكافرين، وأبحناهم حرمتنا، ومنحناهم قوتنا، وقتلنا أنفسنا بأيدينا، وأدنتنا إلى الندم مساعينا، كانت الدائرة

الذخيرة ١٩٣/١، ٢٠٣، ٢٠٥.

(١) المغرب ٢٣٩/١ وما بعدها.

(٢) انظر فى تلقب المنصور الأصغر بهذا اللقب

أَمْضٌ^(١)، والحيرة أَرْمَضَ^(٢)، والفتنة أَشَدُّ، والمحنة أَهْدَى، والأعمال أَحْبَطُ، والأحوال أَسْقَطُ، والأوزار أَثْقَلُ، والمضارَّ أَشْمَلُ، والله يُعِيدُنَا مِنَ الْبَوَائِقِ^(٣)، وَسَلُّكَ بِنَا أَجْمَلَ الطرائق.. وأنت يا سيدي للمسلمين الحِصْنُ الحِصِين، والسَّبَبُ المتين، والنصيح المأمون، فأجرٍ في جَمْعِ كلمتهم والمرامة دون حَوَزَتِهِمْ^(٤)».

والبزلياني يصرخ في يحيى بن المنذر التجيبي أمير سرقسطة في أقصى الشمال، فإن أمراء الطوائف من أمثال أمير بلنسية وأمير دانية وأمير إشبيلية يوطئون النصارى بلادهم مستعينين بهم في حرب أهل دينهم وقتل الآباء وتييم الأطفال والأبرياء. ويقول لو كانت المحنة محاربة المسلمين بعضهم بعضا فحسب لكنت تلك قارعة عظمى وداهية كبرى، ولكن المحنة أدهى وأمر فإننا نستعين بالنصارى ونبيحهم ديارنا فيا لله ويا للمسلمين. ويستغيث بيحيى بن المنذر أن يجمع كلمة هؤلاء الأمراء، حتى يدافعوا عن حَوَزَتِهِمْ وحدود أرضهم ويرموا العدو يدا واحدة حتى لا تقوم له قائمة. ومن غريب أن هذه الصرخة دوت في العشرينيات من القرن الخامس، وكأنها صرخة في فلاة ولا حياة لمن تنادى. ويصرخ البزلياني في رسالة ثانية وجه بها إلى المنصور الأصغر أمير بلنسية الذي ذكره في الرسالة السابقة)، وله يقول - فيما أظن - على لسان باديس:

«اتصل بي ما جزعتُ له من لزومك مع الموفق مجاهد ومَنْ تبعكما من مُعَاقِدِكَمَا لمقاتلة المظفر أبي بكر محمد أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) ومنازلته ومقارعته واستجاشة^(٥) كل حزب منكم النصارى وطمعكم أن تمنعوا بهم ذمارًا، وتَقْضُوا بإخراجهم (معكم) أوطارا^(٦)، وتُدْرِكُوا بأيديهم أوتارا^(٧). ولم يَخْفَ عليك ما يتسبب بالفتن، من البلوى والمِحن.. باخترام^(٨) الرِّجال، وإيتام الأطفال، وإرْمال^(٩) النساء، وإحلال الدماء، وانتهاب الأموال، واعتِساء^(١٠) الأهوال، وإخلاء الأوطان، وإجلاء السكان. هذا إذا كانت الدعوة واحدة، والشرعة معاضدة، فأما إذا انساق العدو إلينا، وتطرَّق علينا،

-
- | | |
|--------------------------------|------------------------------|
| (١) أمض: أكثر أُلّا. | (٦) أوطارا جمع وطر: مأرب. |
| (٢) أرمض: أوجع. | (٧) أوتار جمع وتر: نأر. |
| (٣) بوائق: جمع بائقة: الداهية. | (٨) اخترام هنا: قتل أو موت. |
| (٤) الحوزة: الحمى. | (٩) أرملت المرأة: مات زوجها. |
| (٥) استجاشة هنا: استعانة. | (١٠) اعتساء: ركوب. |

وَصَرَى^(١) على أموال المسلمين ودمائهم، وَجَرَّوْهُ عَلَى قَتْلِ رِجَالِهِمْ وَسَبَى نِسَائِهِمْ، وَبَانَتْ لَهُ الْعَوْرَاتُ، وَتَحَقَّقَتْ عِنْدَهُمُ الْاِخْتِلَافَاتُ، أَحَدُوا رِحَاهُمْ^(٢)، وَاسْتَمَدُّوا مِنْ وِرَاهِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِمْ بَعْدَ يَدٍ^(٣)، وَلَا عَنِ إِخْلَاءِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بَدًّا، وَاللَّهُ يَحْمِيهَا مِنَ الْغَيْرِ^(٤)، وَيَكْفِيهَا سُوءَ الْقَدْرِ»

ولا تقل هذه الصرخة عن سابقتها قوة، والبزلياني يهيب فيها بالمنصور الأصغر أن لا يمضى مع مجاهد في حشد الجيوش ضد أخيها المظفر بن الأفطس أمير بطليوس مستعنين في قتال أهلها المسلمين بالنصارى طامعين أن يحموا لها حماتها وأن يحققوا لها آمالها ويدركوا لها أثارها غير مراعين في أهل دينها حقاً، إذ تُقْتَلُ الرِّجَالُ وَتَبْتِمْ الْأَطْفَالُ وَتَرْمَلُ النِّسَاءُ وَتَهَبُّ الْأَمْوَالُ وَتَخْلُو الْأَوْطَانَ وَبَجَلُو السَّكَّانَ. وَالطَّامَةُ الْكَبْرَى أَنَّ الْعَدُوَّ إِذَا جَاسَ خِلَالَ دِيَارِنَا وَتَجَرَّأَ عَلَى نَهْبِ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى سَفْكِ دِمَائِهِمْ وَقَتْلِ رِجَالِهِمْ وَسَبَى نِسَائِهِمْ وَانْكَشَفَتْ لَهُ فِي الْبِلَادِ الْعَوْرَاتِ، وَتَحَقَّقَ مِمَّا بَيْنَ أَمْرَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْاِخْتِلَافَاتِ وَالْمَنَازَعَاتِ شَحَذَ أَسْلِحَتَهُ وَأَدَارَ رِحَى حَرْبٍ طَاحِنَةً مُسْتَمِدًّا فِيهَا النَّصَارَى مِنْ وِرَائِهِ فِي أَوْرِبَا، فَجَاءَ وَهُوَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ، وَأَصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ وَلَا طَاقَةَ لَهُمْ فِي نَزَاهِمِ وَلَا قُدْرَةَ، وَاضْطَرُّوا اضْطِرَارًا إِلَى مَبَارِحَةِ الْجَزِيرَةِ لَا يَلُودُونَ. وَذَهَبَتْ الصَّرِخَتَانِ جَمِيعًا هَبَاءً، وَبَدَلَا مِنْ أَنْ يَعْبِيَهَا هَوْلَاءُ الْأَمْرَاءِ الَّذِينَ عَاشُوا لِلتَّرَفِ وَأَعْدُوا لِضِيَاعِ الْبِلَادِ جَزَاهِ الْمَعْتَضِ الْبَاغِي مِنْهُمْ شَرَّ الْجَزَاءِ، فَسَفَكَ دَمَهُ.

أبو محمد^(٥) بن عبد البر

هو أبو محمد عبد الله ابن الفقيه المشهور أبي عمر بن عبد البر النمري القرطبي، وقد عُني به أبوه، فخرجه على يده في أجمل صورة علمية للشباب الأندلسي في عصره، وتفتحت فيه مبكراً نزعة أدبية جعلته يؤثر على حلقات العلم والدراسة دواوين أمراء الطوائف، ويقول ابن بسام إنه «حلُّ من كتاب الإقليم محل القمر من النجوم.. وتهادته الآفاق، وامتدت إليه الأعناق.. ففاض به المعتضد (أمير إشبيلية) بعد طول خصام، والتفاف

(٥) انظر في ترجمة أبي محمد ورسائله الذخيرة ١٢٥/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠٢/٢ والقلائد ١٨١ والصلة رقم ٦٠٦ وبغية الملتبس رقم ٩٦٥ وإعتاب الكتاب ٢٢٠ والمخريدة ١٦٦/٢، ٤٥٩/٣.

(١) ضرى: اجترأ.
(٢) الرحى هنا: رحى الحرب.
(٣) يد هنا: طاقة، قوة.
(٤) غير الدهر: أمدانه وتقلباته.

زحام، فأصاخ أبو محمد لمقاله، وتورط بين حباله وحباله» وأصبح من كتاب ديوانه، ولا نعرف الأسباب التي جعلت ابن زيدون يَغصُّ - كما يقول ابن بسام - بمقامه معه في حضرة المعتضد، إذ أخذ يوغر صدره عليه، ومضت الأيام. وشعر أبو محمد بتغير المعتضد عليه، وكان سفاكا للدماء، فأخذ في اقتناء الضياع والديار حتى يوهمه بأنه لن يفارق عمله عنده، ويبدو أنه أرسل إلى أبيه يطلعه على موقف ابن زيدون وزير المعتضد - وموقف المعتضد نفسه منه - وأنه يخشى مغبة مكنه عنده، فربما فتك به كما فتك بكثيرين. وكان أبوه قد استوطن دانية وطاب له المقام عند أميرها مجاهد، فخف إلى المعتضد، وخلصه من يديه، وانصرف به محفوقا بالتجلة والإكرام، يقول ابن بسام: «وجعل أبو محمد بن عبد البر بعد نجاته من المعتضد يتنقل في الدول كالبدري يترك منزلا إلى منزل.. وكتب عندنا عن أكثر ملوك الطوائف» وأكبر الظن أن ابن بسام بالغ في قوله إنه تنقل بين ملوك الطوائف وكتب عند أكثرهم، فإنه هو نفسه لم يرو له رسائل ديوانيه إلا عن المعتضد وعلى بن مجاهد أمير دانية بعد أبيه مجاهد (٤٣٦ - ٤٦٧ هـ) وكأنه صحب أباه إلى دانية، فوظفه على بن مجاهد رئيسا لديوانه وكتابه، وظل يعمل فيه، حتى توفي سنة ٤٥٨ هـ وحزن أبوه لفقده، ولعل ذلك ما جعله يتحول عن دانية إلى شاطبة، شرقيها، وبها توفي. وقد أورد ابن بسام لأبي محمد رسائل ديوانية كثيرة عن المعتضد وعلى بن مجاهد، ومن أطرفها رسالة عن ابن مجاهد وقد زف ابنته إلى المعتصم بن صهاح أمير المرية، وفيها يقول:

«أُنْفَذتُ الهديةَ (العروس).. وأنا أسأل الله في متوجَّهها ومُنْقَلَبها الرعاية الموصولة بك، والكفاية المعهودة منك، حتى يَفِيءَ^(١) عليها ظُلك، وبيوتها^(٢) مَثْوَى الحقاوة محلك، ورحميتها حَوْزُك ومكانك، ويؤويها عِزُّك وسُلْطَانُك، ثم حَسْبِي عليها كرمك وكَنَفُك^(٣)، وخليفتي عليها بَرُّك ولُطْفُك.. وإنك - واللَّهُ بِيَقِيكَ وَيُعَلِّيك، ويشدُّ^(٤) قبضتك على رقاب أمانيك وأراجيك - دُخْرُ الأبد، وعتادُ الأهل والإخوان والولد، وعندك ثمرة النفس وقلدة الكبد، فارقتها عن شدة ضنانه، وأسلمتها بعد طول صيانة، ومازفت إلا إلى كريم يحملها محملاً الأمانة، ويقضى فيها حقَّ الديانة، ويرعى لها انقطاعها عن أهلها، واغترابها عن مَلَيْهَا وَمَنْشَيْهَا، وهو حُكْمُ الله الواجب، وقدره الغالب، وسُنَّتُه المشروعة، ومَشِيئته المتبوعة»

(٣) الكنف: الحفظ والجناح.

(٤) يشد: يقوى ويحكم.

(١) يَفِيء: ينسط.

(٢) بيوتها: ينزلها.

وحدثت في سنة ٤٥٦ نكبة عظيمة، فإن النورماندين في الشمال الغربي لفرنسا تجمعوا وتجمعت معهم شراذم من فرنسا وأوربا لحرب المسلمين في الأندلس، مكونين حملة صليبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذ باركها البابا إسكندر الثاني، واختارت الحملة جبال البرينيه الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا وحاصرت مدينة وشقة في أقصى الشمال الشرقي لإسبانيا، ولم تستطع اقتحامها، فاتجهت إلى مدينة برَبَشْتَر إلى الشمال الشرقي من سرقسطة، وحاصروها أربعين يوما، واضطر أهلها إلى التسليم لنقص القوات والمثونة، ففتكوا بهم فتكا ذريعا وانتهكوا نساءهم وسبوا عشرات الألوف من غلمانهم وفتياتهم، وحملوا من الكسوة والفرش والأمتعة خمسمائة حمل، كل ذلك والمقتدر أمير سرقسطة قد وكلهم إلى أنفسهم وقعد عن النفير لهم. وِرْز لا يماثله وزر، وقد شرکه فيه أمراء الطوائف جميعا، إذ لم ينهض أحد منهم للدفاع عن برَبَشْتَر. ويعلل ابن حيان تلك الكارثة بعلمتين: علة صمت الفقهاء لأكلهم على موائد هؤلاء الأمراء وتقية وخوفا منهم، والعلة الثانية، وهي الأفدح، أن الأمراء استناموا إلى التنابد والتنافر، ويسميهـم «أمراء الفرقة الهمل» ويعجب أن لا تنبّههم هذه اللطمة الضخمة إلى جمع الكلمة ووقوفهم صفا واحدا ضد العدو الكاشر عن أنيابه، وأن يكون كل ما دفعتهم إليه حفر الخنادق حول مدنهم وتعلية الأسوار وتوثيق البنيان. وأطارت النكبة أفئدة المسلمين في الأندلس وتزلزلت بهم الأرض، وتجمعوا في السنة التالية بقيادة المقتدر بن هود أمير سرقسطة وكأنما أراد أن يغسل عنه عار نكوله عن إغاثة أهل برَبَشْتَر، وسرعان ما أجيل السيف في النصارى المعتدين واستوصلوا أجمعين وُرِدَّتْ برَبَشْتَر إلى المسلمين فغسلوها من رجس الشرك - كما يقول ابن حيان - وجلوها من صدا الإفك^(١). وإنما قدمنا كل ذلك لتتضح لنا صرخة ضخمة وجهها أبو محمد بن عبد البر في شكل منشور وُرِّع في كل مدن الأندلس، مما دفع أهل الجهاد في كل مكان منها إلى حمل سلاحهم واستردادها سريعا هذا الاسترداد المشرف، وقد جعل المنشور على لسان أهل برَبَشْتَر وعنوانه - كما يقول ابن بسام -:

«من الثغور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بَعْرُوة الدين، المستهلّكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام، المتألفين على الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين على سُنَّة

(١) انظر في تصوير ابن حيان لموقعة برَبَشْتَر

الرسول، محمد نبي الرحمة، وشفيع الأمة، إلى مَنْ بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس من ولاة المؤمنين، وحُماة المسلمين، ورُعاة الدين، من الرؤساء والمرءوسين»

والمنشور كان طويلاً مما جعل ابن بسام يقتطف منه فصولاً، وقد مضى أبو محمد يصور ما نزل بأهل بربرشتر من الأهوال التي تقشعر لها الأبدان وتشيب لها الولدان، ومن قوله في بعض فصوله مستثيراً مستنفراً بما يوجع القلوب سماعه من انتهاك النساء والدين:

«إنا لله وإنا إليه راجعون - علي ما رأيت منا العيون - من انتهاك النعم المدخرات، وهتك ستر الحرم المحجبات، والبنات المخدرات، ولو رأيتم - معشر المسلمين - إخوانكم في الدين، وقد غلبوا على الأموال والأهلين، واستحكمت فيهم السيوف، واستولت عليهم الحتوف، وأتختهم الجراح، وعبثت بهم زرق الرماح، وقد كثر الضجيج والوعويل والنواح... ومصاحف تمزق، ومساجد تحرق، ولا الأخ يلبي أخاه، ولا الابن يدعو أباه، ولا الأب يدني بنيه، (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) ولا المرضعة تلوي (تعطف) على رضيعها، ولا الضجيعة ترثي لضجيعها.. وقد سبقت النساء والولدان، ما بين عارية وعريان، ومشيخة الرجال مقرنين في الجبال، مصفدين في السلاسل والأغلال.. والجوامع، والصوامع، بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الأذان، مطبقة^(١) بالشرك والبهتان، مشحونة بالنواقيس والصلبان، عوضاً من شيعه الرحمن، والكفر يضحك وينكي^(٢)، والدين ينوح ويكي، فيا ويلاه! ويادللاه! ويأكرباه! ويأقرآناه! ويأ محمداه! ولو شهدتم - معشر المسلمين - ذلك لطارت أكبادكم جزعاً، وتقطعت قلوبكم قطعاً، واستعذبتكم طعم المنايا، لموضع تلك الرزايا، ولهجرت أسيافكم أعمادها، وجفت أجفانكم رقادها، امتعاضاً لعبدة الرحمن، وحفظة القرآن، وضعفة النساء والولدان، وانتقاماً من عبدة الطغيان، وحملة الصلبان»

والرسالة - بهذا النمط - تشعل الحماسة في النفوس الخاملة حمية للدين الحنيف وما حرق من مساجده وصوامعه وما مرق من قرآنه ومصاحفه، ولنساء المسلمين وما انتهك من حرمااتهم وما ساموهم به من أسر وسباء، بل من عري وعذاب أليم، ومن بقي من الرجال أوثقوا في السلاسل والأغلال. ويقول أبو محمد: إن

(٢) ينكي: يهقر.

(١) مطبقة: معطاة.

مادّهي بربشتر إنما هو رمز لما أصاب الأندلسيين في عهد أمراء الطوائف من تقاطع وتنايد ويدعو إلى التواصل والألفة، حتى يتدارك الأندلسيون ما يوشك أن يصيبهم من هلاك مدمر، يقول متحسراً:

«ولو كان شملنا منتظماً، وشعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً، لما طاش لنا سَهْم، ولا سَقَط لنا نَجْم^(١)، ولا ذلُّ لنا حِزْب، ولا فُلُّ لنا غَرْب، ولا رُوعٌ لنا سِرْب، ولا كُدْرٌ لنا شِرْب^(٢)، ولكننا عليهم ظاهرين، إلى يوم الدين، فالحذرَ الحذرَ فإنه رأس النظر، من بركانٍ تطاير منه شررٌ مُلْتَهَب، وطوفانٍ تساقط منه قَطْرٌ مُرْهَب، قلما يُؤْمَنُ من هذا إحراق، ومن ذلك إغراق، فتنبهوا قبل أن تُنبهوا، وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم قبل أن يجاهدوكم في دوركم»

ولم تذهب صرخة أبي محمد أدراج الرياح، فسرعان ما حمل الأندلسيون أسلحتهم كما ذكرنا، وهاجوا العدو في بربشتر وردوا كيده في نحره مستأصلين له إلا ما باعوه ببيع الرقيق من الأبناء والعيال. وكان حرياً بأمرأ الطوائف بعد تلك الكارثة المروعة أن يأتلفوا ويتحدوا ضد نصارى الشمال، ولكنهم عادوا إلى فرقهم كما عادوا إلى استخذائهم من دفع الإتاوات السنوية لأولئك النصارى مع تسديدهم الرماح والسيوف إلى صدور إخوانهم من المسلمين إلى أن ضاعت طليطلة، ولولا أن تدارك يوسف بن تاشفين الأندلس لسقطت مدنها في حجور النصارى واحدة إثر أخرى.

أبو بكر^(٣) بن القصيرة

هو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الولبى الإشبيلي المعروف بابن القصيرة، نشأ في إشبيلية، وتفتحت موهبته الأدبية في عهد المعتضد أمير إشبيلية، وفطن له - كما يقول ابن بسام - ابن زيدون وزيره، فنبه عليه المعتضد آخر دولته، فألحقه بديوانه، وتعرّف

٥١٦/٢ وإعتاب الكتاب ٢٢٢ والواقى ١٢٨/٣ والخريدة ٣٨٣/٢ والذيل والتكملة ٢٢٧/٦ ووثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين في المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد وما بها من رسائل ابن القصيرة مع تحليل د. محمود مكى ها.

(١) يقال لم يسقط لهم نجم كناية عن غلبتهم وظفرهم الدائم.

(٢) الشرب: مورد الماء.

(٣) انظر في ترجمة ابن القصيرة ورسائله الذخيرة ٢٣٩/٢ والمغرب ٣٥٠/١ والقلائد ١٠٤ والصلة رقم ١١٣٧ والمطرب ٨١ والمعجب ٢٢٧ والإحاطة

حينئذ بالمعتمد وأعجب كل منها بصاحبه، حتى إذا استولى على صولجان إشبيلية بعد أبيه رفعه إلى مرتبة الوزارة، مع إسناد الكتابة إليه، وله عنه في الذخيرة غير رسالة، وعهد إليه غير مرة بالسفارة بينه وبين جيرانه من أمراء الطوائف، حتى إذا استولى ألفونس ملك القشتاليين على طليطلة، وشدد عليه فيما كان يأخذ من المعتمد من إتاوات سنوية استصرخ - وبالمثل المتوكل أمير بطليوس - يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لكي يقدم بجيشه إلى الأندلس نجدة لها ضد ألفونس ومطامعه، وكان أبو بكر بن القصيرة هو الرسول أو السفير الذي حمل رسالته إلى يوسف واستغاثته. ولبياه ولبي المتوكل وفقهاء الأندلس، فعبر بجنوده المجاز، وأنزل - يعاونه الأندلسيون وأمرؤهم : المعتمد وغيره - بألفونس وقعة الزلاقة المشهورة في رجب سنة ٤٧٩ وفيها سحق جيش ألفونس سحقاً كاد لا يبقى منه ولا يذر. وتطورت الظروف فاستولى ابن تاشفين - نزولاً على إرادة الأندلسيين وفقهائهم - على إمارات الطوائف جميعاً ما عدا سرقسطة في الشمال إذ تركها لبني هود، لما رأى من إحسانهم لحمايتها ودفاعهم عنها ضد النصارى، وأخذ المعتمد معه أسيراً إلى أغمات كما مر بنا في غير هذا الموضع. وطبيعي أن يبتعد أبو بكر بن القصيرة عن حكام إشبيلية الجدد من المرابطين، ويظل على ذلك نحو ثلاث سنوات، ويفاجأ في سنة ٤٨٧ باستدعاء يوسف له كي يتولى ديوان الإنشاء عنده بمراكش وكان كاتبه عبد الرحمن بن أسباط قد توفي، ويبدو أنه كان يعجب بابن القصيرة والرسائل التي حملها إليه على لسان المعتمد، وأصبح منذ هذا التاريخ رئيس ديوان الإنشاء ليوسف بن تاشفين حتى وفاته سنة ٥٠٠ وظل قائماً على هذا الديوان زمن على ابنه حتى وافاه القدر سنة ٥٠٨ بمراكش.

وتحتفظ الذخيرة - كما ذكرنا آنفاً - بكثير من الرسائل التي كتبها على لسان المعتمد بن عباد، ولعل أهمها الرسالة التي فصل فيها القول في هزيمة ألفونس بالزلاقة، وكان جيشه قد دُمّر، وبلغ من كثرة قتلاه أن كان الناس يتخذون من رءوسهم صوامع يؤذنون عليها ويشكرون الله على حسن صنيعه، ومن قول ابن القصيرة في الرسالة المذكورة ببعض فصولها بلسان المعتمد.

«قد علم ما كنا - قبل - مع عدو الله أذ فونش قَصَمَهُ اللهُ - من تَطَاطُونَا واستعلائته، وتقامننا وانتِخائِهِ^(١)، وأنا لم نجد لدائه دواءً، ولا لبلائه انقضاءً، ولا لمدة الامتحان به

(١) تقامؤ: تصاغر وتذلل. انتخاء: تعاضم.

فَنَاءً، إِلَى أَنْ سَنَى^(١) اللهُ تَعَالَى مِنْ اسْتَصْرَاحِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرِ الدِّينِ، أَبِي يَعْقُوبَ يَوْسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ - أَيْدَهُ اللهُ - مَا سَنَى، وَأَدْنَى مِنْ نَأَى دِيَارِهِ وَشَحَطَ^(٢) مِزَارَهُ مَا أَدْنَى.. ثُمَّ أَجَازَ - عَلَى بَرَكَةِ اللهِ وَعَوْنِهِ - يَرِيشَ^(٣) وَيَبْرَى، وَسَارَ قُدَمًا^(٤) يَخْلُقُ وَيَقْرَى^(٥). وَاتَّفَقَ رَأْيُنَا بَعْدَ تَشَاوُرٍ عَلَى قَصْدِ قُورِيَّةَ (بِالْقُرْبِ مِنْ مَارِدَةَ شَرْقِيَّ بَطْلَيْوسَ) - حَرَسَهَا اللهُ - وَسَمِعَ الْعَدُوَّ - لَعْنَهُ اللهُ - بِذَلِكَ فَقَصِدَ بِمُحْتَشِدِهِ إِلَيْهَا فِي جِيُوشٍ تَمَلَأَ الْفِضَاءَ، وَتَسَدَّ الْهَوَاءَ، وَتَمَنَعَ أَنْ تَقَعَ عَلَى مَا تَحْتَ رَايَاتِهِ ذُكَاءً^(٦)، قَدْ تَحَصَّنُوا بِالْحَدِيدِ مِنْ قُرُونِهِمْ إِلَى أَقْدَامِهِمْ، وَاتَّخَذُوا مِنَ السَّلَاحِ مَا يَزِيدُ فِي جِرَاتِهِمْ وَإِقْدَامِهِمْ، وَدَعَاهُ تَعَاظِمُهُ إِلَى مَوَاجَهَةِ سَبِيلِنَا، وَحَمَلَهُ نَفْجَهُ^(٧) وَتَهَوَّرَهُ عَلَى السَّلُوكِ فِي مَدْرَجِ سَيُولِنَا، وَدَنَوْنَا إِلَيْهِ بِمَحَلَّاتِنَا، وَأَطَّلْنَا عَلَيْهِ بِرَايَاتِنَا، وَتَنَادَى الْمُسْلِمُونَ بِشِعَارِهِمْ^(٨) الْمَنْصُورِ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ وَعَلَى مِنْ مَعَهُ فِي حَالٍ مُؤَذِنَةٍ بِالظُّهُورِ وَالْوُفُورِ، وَتَوَاقَفَ قَلِيلًا الْجَمْعَانِ، وَتَجَاوَلَ مَلِيًّا^(٩) الْفَرِيقَانِ، ثُمَّ صَدَقَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ، وَنَاصِرُ الدِّينِ - أَيْدَهُ اللهُ - الْحَمَلَةَ، وَصَدَّمَ فِي جَمْعٍ لَمْ يَكْثُرْ عَدَدُ الْجَمَلَةِ، فَلَمْ يَلِيْثْ أَعْدَاءُ اللهِ أَنْ وَلَّوْا الْأَدْبَارَ، وَاتَّبَعْتَهُمْ خَيْلُ الْمُسْلِمِينَ تَقْتَلُهُمْ فِي كُلِّ غَوْرٍ وَنَجْدٍ^(١٠)، وَتَقْتَضِي أُرُوحَهُمْ عَلَى حَالِينَ مِنْ كَالِيٍّ وَنَقْدٍ^(١١)، وَلَمْ يَخْلُصْ مِنْهُمْ عَلَى أَيْدِي الْمَتَّبِعِينَ - آجِرُهُمْ اللهُ - إِلَّا مِنْ سَيْلَتِهِمُ الْبُعْدَ، وَبِأَتَى عَلَى حُشَاشَتِهِ^(١٢) الْجَهْدَ... وَلَمْ يُصَبَّ بِحَمْدِ اللهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَفَرَّهُمُ اللهُ عَلَى هَوْلِ الْمَقَامِ، وَشِدَّةِ الْإِقْتِحَامِ، كَثِيرٍ، وَوَلَامَاتٍ مِنْ أَعْلَامِهِمْ تَحْتَ تِلْكَ الْجَوْلَةِ إِلَّا عَدَدٌ يَسِيرٍ، وَإِنْ كَانَ أَذْفُونَشَ - لَعْنَهُ اللهُ - لَمْ يَمِتْ تَحْتَ السِّيُوفِ بِدَا^(١٣)، فَسَيَمُوتُ لَا مَحَالَةَ أَسْفًا وَكَمْدًا، وَنَحْمَدُ اللهُ عَلَى مَا يَسِّرُ مِنْ هَذَا الْفَتْحِ الْجَلِيلِ وَسَنَاءَهُ، وَمَنْعَهُ مِنْ هَذَا الصُّنْعِ الْجَمِيلِ وَأَوْلَاهُ».

وليت ابن بسام روى هذه الرسالة كاملة حتى تراءى وقعة الزلاقة المجيدة بكل تفاصيلها، والمعتمد يعترف في مقدمتها باستخدامه^(١٤) أمام الفونس وتصاغره وشعوره

-
- | | |
|-----------------------------------|--|
| (١) سنَى: فتح. | (٩) مليا: زمتا غير قليل. |
| (٢) شحط: بعد. | (١٠) الغور: المنخفض من الأرض. النجد: |
| (٣) يريش ويبرى: يضر وينفع. | المرتفع منها. |
| (٤) قدما: مسرعا. | (١١) الكال: المؤجل. النقد: الحال، يقصد القتل |
| (٥) يخلق ويقرى. يقرر الأمر ويضيه. | السريع والقتل المؤجل مشيرا بذلك إلى أسراهم. |
| (٦) ذكاء: الشمس. | (١٢) الحشاشة: بقية الروح. |
| (٧) نفجه: فخره بما ليس عنده. | (١٣) بددا: قطعا. |
| (٨) شعارهم: الله أكبر. | (١٤) الاستخذاء: الخضوع والذل. |

بالمذلة والهوان مع التزامه بما كان يدفعه له سنويا من إتاوات. ويقول إنه كان دأبه ودأب أمراء الطوائف من حوله الإذعان لنصارى الشمال، بينما كان دأب النصارى التسلط ونهب الحصون والقلاع، بل لقد نهب ألفونس طليطلة الجوهرة الكبرى، والمعتمد وأمثاله من أمراء الطوائف في غفلة يعمهون. وقبض الله للمسلمين هناك ابن تاشفين، فقلّم أظفار ألفونس وردّ كيده في نحره ونحر أتباعه مذمومين مدحورين على نحو ما يصور ابن القصيرة في رسالته. واحتفظت الذخيرة برسالة لابن القصيرة على لعلّ يوسف بن تاشفين وجّه بها إلى أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن حين ولاء القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ وله يقول:

«أَسْتَهْدِ اللَّهَ يَهْدِكَ، وَاسْتَعْنُ بِاللَّهِ يُعْنِكَ، وَتَوَلَّ الْقَضَاءَ الَّذِي وَلَاكَهُ اللَّهُ بَعْدَ حَزْمٍ، وَجَلَدٍ وَعَزْمٍ، وَأَمْضِ الْقَضَايَا عَلَى مَا أَمْضَاهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، وَلَا تَبَالُ بِرِغْمِ رَاغِمٍ، وَلَا تَشْفِقْ مِنْ مَلَامَةٍ لَأَنْتُمْ.. وَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى جَمَاعَةِ الْمُرَابِطِينَ أَنْ يَسْلَمُوا لَكَ فِي كُلِّ حَقٍّ تَمْضِيهِ، وَلَا يَعْتَرِضُوا عَلَيْكَ فِي قَضَاءِ تَقْضِيهِ، وَنَحْنُ أَوْلَا وَكُلُّهُمْ آخِرًا مَذْ صَرَتْ قَاضِيَا سَامِعُونَ مِنْكَ، غَيْرَ مُعْتَرِضِينَ فِي حَقِّ عَلَيْكَ، وَالْعَمَالُ وَالرَّعِيَّةُ كَافَّةً سِوَاءُ فِي الْحَقِّ».

وواضح أن ابن تاشفين يجعل القاضى فوقه وفوق الرعية جميعا، ويقول إنه ليس لجماعة المرابطين في الأندلس من أولى العقد والحل الحق في أى اعتراض يوجهونه إليه أو إلى قضائه، ويوسف بن تاشفين نفسه أولا ثم المرابطون جميعا مذ صار قاضى الجماعة في قرطبة قد أصبحوا خاضعين له ولأحكامه. وهو جانب مشرف في القضاء الإسلامى، نجده في كل مكان، ونقصد استقلاله وأن مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من السلطان. وقد نشر الدكتور محمود مكى مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطى في عهد على بن يوسف بن تاشفين في المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة في المجموعة إلى الثالثة عشرة، والسابعة في ترتيب المجموعة أشبه بمنشور وجهه إلى أهل الأندلس بلسان على بن يوسف، وكان في زيارة لقرطبة، وفيه ينصح الأندلسيين بطاعة الوالى وأن لا يعصوا له أمرا قائلا:

«إنه النائبُ عنا فى تدبيركم، وإقامة أموركم، وسياسة صغيركم وكبيركم، وقد فوّضنا

إليه ذلك وأفرَدناه بالنظر في دِقِّه وجِلِّه^(١)، وَقَلِّه وكَثْره^(٢).. وما فعل من ذلك كُلِّه فنحن فعلناه، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه، ولا نوقف ما أمضاه، ولا نُمضِي ما وقَّعه وأباه، ولا نرى في أحد منكم إلا ما يراه، ولا نتولَّاه كأننا ما كان إلا أن يتولَّاه، ولا نرضى من أحواله ما لا يرضاه، بلساننا يتكلم، وعمَّا في جَنَاننا^(٣) يترجم، وعلى ما يوافقنا يُسَدِّي ويلحم^(٤)».

وفي رأينا أن هذه قسوة في معاملة الرعية، وواجب الحاكم الأعلى مثل علي بن يوسف أمير المرابطين أن يأخذ الرعية بالحلم، وأن يوصى ولاته بمعاملتها بالعدل الذي لا تصلح حياة الناس بدونه وأن يسمعوا إلى شكواهم وأن يفتحوا أبوابهم لكل متظلم أو مظلوم في الرعية. وتخلو بعض السطور في رسائل ابن القصيرة من السجع، وهو ما جعل عبد الواحد المراكشي يقول عنه: «كان ابن القصيرة على طريقة قدماء الكتاب من إثارة جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء». وهذا الحكم إنما يصدق فقط على بعض سطور تتخلل أحيانا رسائله المسجوعة.

ابن أبي الخصال^(٥)

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود الغافقي الشَّقُورِي المعروف بابن أبي الخصال، المولود سنة ٤٦٥ بقرغليط إحدى قرى شقوره من إقليم جيان غربي مرسية. سكن قرطبة، ودرس على شيوخها، ونهل من حلقاتهم ما جعله متفنا في العلوم مستبحرا في الآداب واللغات، عالما بالأخبار ومعاني الحديث والآثار والسير والأشعار. ويضيف ابن بشكوال إلى ذلك أنه «كان مفخرة وقته وجمال جماعته، حسن العشرة، واسع المبرة، من

والإحاطة ٣٨٨/٢ وصبح الأعشى ٤١٣/٢،
٥٣/٨، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٦٣/١٤
وراجع أربع رسائل ديوانية له في وثائق تاريخية
جديدة عن عصر المرابطين في المجلدين السابع
والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في
مدريد بتحقيق وتحليل د. محمد مكي. وفي معهد
المخطوطات بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية
مخطوطة له بعنوان ترسل الفقيه الكاتب ابن أبي
الخصال.

(١) دقه: دقيقه. جلّه: كبيره.

(٢) قلّه: قليله. كثره: كثيره.

(٣) الجنان: العقل.

(٤) يسدي ويلحم: يصيب ويحكم.

(٥) انظر في ترجمة ابن أبي الخصال ورسائله
الذخيرة ٧٨٦/٣ والمغرب ٦٦/٢ والقلائد ١٧٥
والصلة رقم ١١٨٧ والبيغة رقم ٢٨٢ والمطرب
١٨٧ والمعجب ٢٣٧ وفهرست ابن خير ٣٨٦،
٤٢٠ ومعجم الصدق ١٤٤ والخريدة ٤٤٩/٢

أهل الخصال الباهرة والأذهان الثاقبة، فصيح اللسان، حسن البيان، حلو الكلام أحد رجال الكمال، وله تأليف حسان» منها كتاب «سراج الأدب» وكتاب «ظل الغمامة وطوق الحمامة» في مناقب من خصه الرسول عليه الصلاة والسلام من صحابته بالكرامة، وأحله بشهادته الصادقة دار المقامة. وكان كاتباً بليغاً وشاعراً محسناً، وله قصيدة طويلة في نسب الرسول ﷺ سماها «معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب». وله بجانب ذلك رسائله الديوانية والشخصية البديعة، ويقول صاحب المعجب: «له ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثلاً يحتذونه، ونصوه إماماً يقتفونه» ويقول صاحب المطرب إن نظمه الرائق وترسله الفائق يقع في خمس مجلدات.

ولم يلتحق بديوان أحد من أمراء الطوائف، وأول مرابطي التحق بديوانه محمد بن الحاج القائد المرابطي والى يوسف بن تاشفين على قرطبة، وكان يسند إليه أحياناً قيادة الجيوش التي تنازل نصارى الشمال، وولاه في سنة ٤٩٧ على غرناطة، وعزله عنها في السنة التالية، إذ أبقاه للجيوش المحاربة. وحين تحولت مقاليد الحكم بعد يوسف إلى ابنه على وولاه على فاس سنة ٥٠١ وعلى بلنسية سنة ٥٠٣ وظل ينازل ألفونس ملك أراجون بالقرب من سرقسطة محامياً عنها ومدافعاً حتى وفاته سنة ٥٠٨. وإنما ذكرنا ذلك كله عن محمد بن الحاج، لأننا نظن أن ابن أبي الخصال ظل كاتباً له حتى مطلع القرن الخامس الهجري، وحتى استدعاه على بن يوسف أمير المرابطين للعمل في ديوانه بمراكش، وسنرى عما قليل أنه كتب عنه رسالة سنة ٥٠٧ ولا نعرف بالضبط متى استدعاه أو متى بدأ العمل في هذا الديوان. ويقول ابن بسام: إنه كاتبه سنة ٥٠٣ ليرسل له مقتطفات من نثره وشعره يسجلها في كتاب الذخيرة، ويذكر أنه أرسل له هذه الرسالة وهو مجتاز بإشبيلية في جملة العسكر، وإذا عرفنا أن على بن يوسف قاد جيشاً في تلك السنة اتجه به إلى طليطلة وفتح عدة مدن وحصون بينها طلبيرة رجحنا أن يكون ابن أبي الخصال رافقه في جملة هذا العسكر أو هذا الجيش وكان معه ابن حمدين قاضى قرطبة، وربما التحق فعلاً بديوانه في هذه السنة أو قبلها بقليل. وظل يحظى عند على بن يوسف بمنزلة أثرية، وعين أخاه أبا مروان معه في الديوان، وما زال يكتبان عن على، وهو راض عنها كل الرضا حتى غزا ألفونس المحارب رذمير صاحب أراجون في الشمال إقليم بلنسية سنة ٥٢٣ ونهضت له منها حشود ضخمة من الأندلسيين ومن المرابطين، والتقى الجمعان عند قلعة قلييرة بمقربة من جزيرة شقر، وكانت الدائرة على المرابطين والأندلسيين، وفقدوا اثني عشر ألفاً بين قتيل وأسير يقول ابن القطان: «وبلغ ذلك على بن يوسف فغاضه، وأمر

بالكتابة إلى جنود لمتونة (المرابطين) في بلنسية بالحزى، فكتب ابن أبي الخصال عنه إليهم بكل تنكيل وخزى^(١)» وأفحش أبو مروان عليهم في رسالته بقوله في بعض فصولها: «أى بنى اللثيمة وأعيار الهزيمة، إلام يزيّفكم الناقد^(٢)، ويردكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأنًا لها حالٌ قاعد، لقد أن أن نوسِعكم عقابًا وأن لا تلوثوا^(٣) على وجه نقابا، وأن نعيدكم إلى صحرائكم، ونظهر الجزيرة من رُحضائكم^(٤)». وهى مبالغة في الإفحاش على جيش المرابطين المجاهد في الأندلس، مما أحق على بن يوسف، فأخر أبا مروان عن كتابته. ويقول صاحب المعجب: إن على بن يوسف راجع أبا عبد الله بن أبي الخصال فيما كتب أخوه وأن أبا عبد الله استغفاه فأعفاه ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش» وأخوه إنما توفي سنة ٥٣٩ مما يدل - فى رأينا - على أن على بن يوسف لم يقبل استقالتهما من ديوان الكتابة وأنها ظلا يعملان فيه حتى وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧ على الأرجح، وربما عملا فيه بعد وفاته إلى أن توفي أبو مروان، فعاد أبو عبد الله إلى قرطبة، ولازم داره بها حتى توفي سنة ٥٤٠.

ولأبى عبد الله رسائل شخصية ومواعظ ووصف نثرى للطبيعة ومقامة، وسنعرض لكل ذلك فى غير هذا الموضوع، وحسبنا الآن أن نعرض لرسالتين اخترناهما من رسائله الديوانية كتب أولاهما فى سنة ٥٠٧، وهى موجهة إلى أهل الأندلس للحض على الجهاد وإعلامهم أن أمير المسلمين على بن تاشفين عزم على خوض معارك ضارية مع النصارى الشماليين وفى فاتحتها يقول:

«كتابنا - أعزكم الله - بتقواه، وكنفكم بظل ذراه، ووفر حظوظكم من حُسنائه، من حضرة مراكش - حرسها الله - يوم الاثنين منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة بين يدى حركتنا يَمَن الله فاتحتها وعقباها، وقد قرعنا الظنائب^(٥)، وأشرعنا الأنابيب^(٦)، وضمرنا اليعاسيب^(٧)، واستنفرنا البعيد والقريب، مستشعرين إخلاص نية، وصدق حمية،

وجوهكم.
(٤) رحضاء: عرق الحمى، والكناية واضحة.
(٥) قرع الظنابيب: كناية عن الإسراع للحرب.
(٦) الأنابيب: الرماح.
(٧) اليعاسيب: الخيل.

(١) راجع قسما من نظم الجمان لابن القطان تحقيق د. محمود مكى (طبع الرباط) ص ١١٠ وما بعدها.
(٢) الناقد: الصيرفى الذى يميز النقد الحق من الزائف.
(٣) تلوثوا: تضعوا اللثام شعار لمتونة على

فى نَصْر دين الإسلام، وَمَنَعْ جانبه أن يُضام، أو يناله من عدوه اهْتِضام^(١)، ونحن وإن كنا قد بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد، واستنهضنا من الأجناد، ما يُرَبِّى على الحَصَى والتَّعَدُّد، فإننا نعتقد اعتقاد يقين، بقول رَبِّ العالمين، فى كتابه المبين ﴿قُلْ ما يَعْبُؤُ بِكُمْ رَبِّى لولا دَعَاؤُكُمْ﴾ أن استتفار الدعاء، واستفتاح أبواب السماء، بخالص الثناء، من أنفع الأشياء، وأنجح الدواء، فيما أعضل^(٢) من الأدواء^(٣).

وكانت هذه السنة حقا من السنوات التى أبلى فيها المرابطون بلاء عظيما فى قتال نصارى الشمال سواء نصارى أراجون أو برشلونة أو القشتاليين. وإنه لما يحمد لهم ولعلى بن يوسف أنهم ظلوا لا يغمدون سيوفهم أبدا وظلوا يواجهون أعداءهم منزلين بهم ضربات قاصمة، وكان النصارى أحيانا ينتصرون فى بعض الوقائع، ولكن سرعان ما كان المرابطون يأخذون ثأرهم، ويكيلون لهم الصاع صاعين. وفى أثناء ذلك كتب المعاهدون من النصارى من أهل الذمة - وخاصة فى غرناطة - إلى الملك النصرانى ألفونس بن رذمير ملك أراجون يدعونه للاستيلاء على ما بيد أهل الأندلس من البلدان، فلباهم فى أواخر شعبان سنة ٥١٩ وقاد جيشا كثيفا اخترق البلاد من سرقسطة إلى غرناطة، وهاجم كل ما فى طريقه من بلدان مثل دانية ومرسية ووادي آش وحاصر غرناطة غير أنه اضطر إلى فك الحصار عنها، وكان قد واقعه المرابطون بجوار اليُسانة بالقرب من قرطبة ولم يكتب لهم النصر، ومضى على وجهه محترقا إقليم البُشُرَات ومالقة إلى البحر المتوسط، واتجه إلى الشمال عائدا إلى موطنه^(٣). وكان قد ظل فى هذه الحملة نحو سنة يعيث فى الأندلس مما أغضب أهلها أشد الغضب، وخاصة على المعاهدين من أهل الذمة الذين يعايشونهم لا لأنهم كاتبوا ملك أراجون فحسب بل أيضا لأنهم كانوا يشدون أزره أينما توجه ويدلونه على عورات البلاد ويبدلون له كل عون. وكان يزيد فى غضبهم شىء من تقاعس تميم بن يوسف بن تاشفين والى غرناطة وقرطبة فى تلك السنة. وانتدب أبو الوليد بن رشد الفقيه الكبير جد الفيلسوف ابن رشد نفسه للوفود على أمير المرابطين على بن يوسف براكش وإطلاعه على صنيع المعاهدين من أهل الذمة واستدعائهم لملك أراجون وعونهم له فى حملته مما نقضوا به العهد الموثق بينهم وبين

(١) اهتضام: ظلم.
(٢) أعضل: أعجز. الأدواء: الأمراض.
(٣) انظر فى هذه الحملة الإحاطة (طبعة عنان) ص ١٤٦.

(١) اهتضام: ظلم.
(٢) أعضل: أعجز. الأدواء: الأمراض.
(٣) انظر فى هذه الحملة الإحاطة (طبعة عنان)

المسلمين «وأفتى بتغريبهم عن أوطانهم»^(١) ووعده على بن يوسف أن يأخذ بفتواه، وأمر ابن أبي الخصال أن يكتب إلى أهل الأندلس - وخاصة أهل قرطبة وقرطبة - يطمئنهم بأنه سيتخذ من الإجراءات ما يرضيهم، وصدع ابن أبي الخصال بأمره، وكتب إليهم رسالة ضافية جاء فيها:

«وَقَدْ إِلَيْنَا، وَوَرَدَ عَلَيْنَا، الْفَقِيهُ الْأَجَلُ الْمَشَاوِرُ أَبُو الْوَلِيدِ بْنِ رُشْدٍ، فَبَسَطَ لَدَيْنَا شَأْنَ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ - كَلَّأَهَا اللَّهُ - وَجَلَّاهُ، وَوَصَفَ مِنْ حَالِهَا مَا أَصَحَّنَا لَهُ حَتَّى اسْتَوْفَاهُ، وَجَالَ بِمِيدَانِ الْبَيَانِ أَفْصَحَ مَجَالٍ، وَعَرَضَ الْأُمُورَ فِي مَعْرَضِهَا بِأَبْلَغِ مَقَالٍ.. وَلَنْ نَالُو^(٢) جَهْدًا مَبْدُولًا، وَجِدًّا حَفِيلًا، وَعَزْمًا لَا نَائِيًا وَلَا كَلِيلًا^(٣)، فِيمَا نَدْرَأُ وَنَدْفَعُ، وَنَدُودٌ عَنِ حَوَازَةِ^(٤) الْمَلَةِ وَنَمْنَعُ، وَنَدَّأَبُ لَذِكِ الدَّأَبِ الْحَثِيثِ^(٥)، نَتَّبِعُ الْقَدِيمَ فِيهِ بِالْحَدِيثِ، وَنَنْصَبُ لَهُ النَّصَبَ الَّذِي لَيْسَ حَبْلُهُ السَّحِيلَ^(٦) وَلَا النَّكِيثَ^(٧)، وَلَا يَشْغَلُنَا عَنْهُ شَاغِلٌ وَإِنْ أَهَمَّ، بَلْ نَصْرَفُ نَحْوَ جَنَابِكُمْ الْحَزْمَ الْأَتَمَّ الْأَهَمَّ، وَجَهْدَ الْكِفَايَةِ مَا دَهَمَ حَادِثٌ وَأَلَمَّ، فَاسْتَشْعِرُوا أَنْ أُمُورَكُمْ إِزَاءَ نَاطِرٍ اهْتِبَالِنَا^(٨)، وَمَنْ أَكَّدَ مُؤَكَّدَاتٍ أَشْغَلْنَا، وَقَدْ عَايَنَ الْفَقِيهُ الْأَجَلُ الْمَتَقَدِّمُ الذِّكْرَ، حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، وَسَيَلِّغُكُمْ ذَلِكَ عَنْهُ فَلَا تَكُونُوا فِي رَيْبٍ مِنْهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُنَا عَلَى مَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ، وَيَمْنَحُنَا مِنْ تَأْيِيدِهِ مَا يُعِزُّ الْإِسْلَامَ وَيُقِيمُ مِنْ أَوْدِهِ^(٩)، بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ، وَعَدْلِهِ وَفَضْلِهِ».

وفعلًا نفذ علي بن يوسف فتوى الفقيه ابن رشد، فأمر في رمضان من سنة ٥٢٠ بإجلاء المعاهدين من النصارى الذين نقضوا العهود الموثقة إلى مكناسة وسلا وغيرهما من بلدان المغرب، وعزل أخاه تميمًا عن قرطبة وقرطبة لتقصيره إزاء حملة ابن رذمير. وإذا كان المرابطون قصروا - أو أخذ عليهم شيء من التقصير - في مواجهة ابن رذمير فإنهم طالما أبلوا في منازلة النصارى الشماليين وأبلى معهم تميم كما حدث في موقعة أقليمش التي انتصروا فيها على جيش ألفونس السادس ملك قشتالة، وفيها كان مصرع ابنه شانجه. وواضح مما اخترناه من كتابات ابن أبي الخصال الديوانية أنه كان كاتبًا مجيدًا يحسن انتخاب الكلم في نسق محكم من السجع الرصين.

- | | |
|----------------------------------|---|
| (١) الإحاطة ١١٩/١ - ١٢٠. | (٦) السحيل: المفتول على قوة واحدة فتلا خفيًا. |
| (٢) نالو: نقصر في جهد. | (٧) النكيت: المنقوض المشعث، ضد المفتول. |
| (٣) كليلًا: ضعيفًا. | (٨) اهتبالنا: اغتنامنا الفرصة. |
| (٤) حوزة الملة: حدودها وجوانبها. | (٩) أوده: اعوجاجه. |
| (٥) الحثيث: السريع. | |

ابن عميرة المخزومي^(١)

هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله المخزومي من سلالة خالد بن الوليد، وُلد سنة ٥٨٢ بجزيرة سُقر بين شاطبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع الجهات، ولذلك سميت جزيرة، وطالما تغنى أبناؤها - من أمثال ابن خفاجة - بجمال طبيعتها. وعُنى به والده منذ نعومة أظفاره، فأدخله كتابا حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الشعر، ثم دفعه إلى حلقات بعض الشيوخ، حتى إذا أيفع وشبُّ أرسل به إلى بلنسية لينهل من حلقات حافظها وفتيها وقاضيها أبي الربيع الكلاعي، وفيها أخذ يختلف إلى حلقات غيره من العلماء وخاصة حلقة ابن نوح الغافقي شيخ العربية وقواعدها النحوية. ودفعه شغفه بالاستزادة من العلم إلى الرحلة في طلبه عند بعض العلماء المشهورين لأيامه، فرحل إلى شاطبة ونهل من حلقتي شيخها أبي عمر الشاطبي وقاضيها أبي الخطاب بن واجب، ورحل إلى دانية للأخذ عن ابن حوط الله الأنصاري، ونزل مرسية وأخذ عن شيخها عزيز بن خطاب، وسمع عليه كتاب المستصفي في علم الأصول للغزالي وبعض كتب الصوفية. وطمحت نفسه مبكرا إلى أن يكون من أصحاب الجاه، وكانت فيه نزعة أدبية هيأته ليكون شاعرا، ولم يلبث أن عمل بديوان أبي عبد الله بن أبي حفص الموحدى حاكم بلنسية حوالي سنة ٦٠٧ وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره. وظل بهذا الديوان سنوات متعاقبة، ونراه في سنة ٦١٧ بإشبيلية، ولعله كان يريد العمل بدواوينها، وظل بها فترة اختلف فيها إلى حلقة الشلوبيين إمام العربية بالأندلس في عصره. وعاد إلى بلنسية، وكان قد وليها للموحدين سنة ٦٢٠ أبو زيد بن أبي عبد الله بن أبي حفص فألحقه بديوانه مع صديقه ابن الأبار، حتى إذا كانت سنة ٦٢٦ ثار على أبي زيد زيان بن أبي الحملات بن مردنيش واستولى منه على بلنسية، وظل ابن عميرة يعمل في ديوان زيان حتى أواخر سنة ٦٢٨ وأحسَّ من زيان شيئا من

٣٧/٧، ٩٤، ٩٨، ١١٠، ١١٦، ١٤٩/٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ٣٠١/٩، ٣٠٦/١٠. وراجع كتاب «أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي: حياته وآثاره» لمحمد بن شريفة (طبع الرباط) وتحفظ الخزنة العامة في الرباط بمخطوطتين من رسائله.

(١) انظر في ابن عميرة وترجمته ورسائله معجم أصحاب الصدفى ص ١٦٣ وتحفة القادم رقم ٩٢ واختصار القدرح المعلى ص ٤٢ والمغرب ٣٦٣/٢ وجذوة الاقباس لابن القاضي ص ٧٢ وعنوان الدراية للغيريني ص ١٧٨ والإحاطة ١٧٣/١ ونفع الطبيب ٢٧٢/١ وصبح الأعشى ٥٣٤/٦.

الوحشة، فترك بلنسية إلى بلدته جزيرة سُقُر، وكان سلطان ابن هود أمير مُرسية قد اتسع، فكتب له في سنة ٦٢٩ وعينه ابن هود قاضيا في شاطبة، جامعا له بين القضاء والكتابة كما تدل على ذلك بيعة طويلة كتبها باسم ابن هود عن نفسه وعن أهل شاطبة في الأندلس للمستنصر العباسي مع بيعة الناس فيها أيضا له ولابنه وليا للعهد من بعده. وابن هود فيها يعلن ولاءه وطاعته للخليفة العباسي استكمالاً لثورته على الموحدين وما يدعون من خلافتهم. وربما ظل يجمع بين عمله في الكتابة لابن هود وقضاء شاطبة. وتوفي ابن هود سنة ٦٣٥ وخلفه عمه واستولى منه على الحكم عزيز بن خطاب، واتخذ ابن عميرة كاتباً له، وقتل ابن خطاب. وكان ملك أراجون قد استولى على بلنسية، وقبله بقليل استولى ملك قشتالة على قرطبة، وشعر ابن عميرة أن مستقبل الأندلس مظلم، فرأى الهجرة منها إلى المغرب، وعبر الزقاق، ونزل سبتة عند واليها ابن خلاص فرحب به، ولم يلبث أن لقي الخليفة الموحد الرشيد في مدينة الرباط حين زارها، وصحبه معه إلى حاضرة مملكته: «مراكش» وألحقه بدواوينه، ولبث بها ابن عميرة قليلاً، إذ عينه الرشيد قاضياً في سلا والرباط. وتوفي الرشيد سنة ٦٤٠ فأقره أخوه السعيد على عمله، ثم نقله إلى مكناسة، ونراه فيها يكتب باسم أهلها بيعة لسلطان تونس أبي زكريا الحفصي، ويبدو أنه إنما أغراه بذلك أنه رأى بوضوح أن دولة الموحدين تحتضر، وتكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة. وعاد إلى سبتة يكتب لحاكمها. وفي سنة ٦٤٦ تحوّل إلى أبي زكريا سلطان تونس ودولته الحفصية، ونزل بجاية وأفضال أبي زكريا تتوالى عليه. ولم يلبث أبو زكريا أن توفي سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر، فاستقدمه إلى تونس، وولاه القضاء في قسنطينة وغيرها، ثم استخلصه لنفسه مستشاراً وأنيساً، وغمره بأفضاله إلى أن توفي سنة ٦٥٨ للهجرة.

وطبيعي أن تكون لابن عميرة رسائل ديوانية كثيرة، إذ كتب لحكام بلنسية من الموحدين وخاصة لأبي زيد الموحدى، وكتب بعده لحكامها: زيان بن مردنيش النائر عليه وابن هود أمير مرسية وعزيز بن خطاب صاحبها والرشيد الموحدى، ومن أقدم رسائله رسالة كتبها عن أبي زيد الموحدى أمير بلنسية إلى المستنصر الموحدى سنة ٦٢٠ يستأذنه في وفود أمير نصراني عليه من أراجون يسمى: «يلاسكو أرتال» كان وصيا على ملكها خايي، ولما استبد بالملك اختلف معه ونفاه فلجأ إلى بلنسية، واستقبل بالترحيب على أمل كاذب أن يكون فيها بعد عوننا لحاكم بلنسية في حروبه ضد ملك أراجون. وصور ابن عميرة هذا الأمل المخطئ وأمر هذا اللاجئ في رسالته، وقد احتفظ القلقشندي في الجزء

السادس من صبح الأعشى بشرط كبير منها، وفيها يقول عنه ابن عميرة:

« كان له في البلاد الأَرغُونِيَّة زعامة في شأوها^(١) بَرَز، ولغايتها أحرز، وكان قد كفل صاحب أراجون في الزمان المتقدم كفاً دَارَ أمرها عليه، وألّقى زمأمها إليه. ثم إنه حُطَّ من رتبته، وتأكدت المبالغة في نكبته.. والظاهر من حنقه على أهل أراجون وشدة عداوته لهم، وما تأكد من القطيعة بينه وبينهم، أنه إن صادف وقت فتنة معهم ووجد ما يؤمّله من إحسان الأمر العالی - أيده الله - فينتهي من نكايتهم والإضرار بهم إلى غاية غريبة الآثار، مفضية به إلى درك النار، وكثير من زعماء أراجون ورجالها أثاره وفرسانه وكلهم - في حبله - حاطب^(٢)، ولإنجاده - متى أمكنه - خاطب».

وكان أبا زيد ومن حوله لم يأخذوا درسا من التجاء الفونس القشتالي إلى طليطلة حين حاربه أخوه شانجه وانتصر عليه وفر منه إلى دير، ولجأ إلى المأمون أمير طليطلة فرحب به وبالغ في إكرامه تسعة شهور متعاقبة، عرف فيها مداخل حصن طليطلة العتيد ومخارجه، فلما توفي أخوه وأصبح ملكا على قشتالة لم يكن له هم إلا الاستيلاء على طليطلة، واستولى عليها، وكان ذلك بدء ضياع الأندلس منذ هذا التاريخ، وهو درس كان ينبغي أن لا ينساه أبو زيد، وخطأ أكبر الخطأ أن يفتح حكام بلدة صدورهم وبلدهم لأعدائهم ظانين أنهم يستطيعون أن يحلّوهم أصدقاء أو ما يشبه الأصدقاء، وما أبعداه وهما أن يصبح العدو صديقا فما بالك إذا كان العدو محاربا لك، ولكن هكذا قُدر لبليسية أن يحكمها غرّ ليس عنده بصر بالأمور وأن يجد في كنفه «بلاسكو» الأرجوني عدوه الأمان والضيافة لمائة عامين متعاقبين، ويرجع إلى بلده، ويعود منها بعد قليل مع ملكها بجيش يستولى به على بليسية بعد تنكيله بأهلها تنكيلا شديدا.

ونقف قليلا عند البيعة للخليفة العباسي المستنصر التي أشرنا إليها والتي كتب فيها ابن عميرة رسالة طويلة يعقد ابن هود على أهل شاطبة الولاء لهذا الخليفة والبيعة لنفسه ولابند وليا للعهد من بعده، وهو يستهلها بحمد الله والصلاة على رسوله بهذا النمط:

« الحمد لله الذي جعل الأرض قَرارا، وأرسل السماء مَدْرارا، وسَخَّر ليلاً ونهارا، وقَدَّر آجالا وأعدارا، وخلق الخلق أطْوارا، وجعل لهم إرادة واختيارا، وأوجد لهم تفكُّراً

(٢) يقال حطب في حبله إذا أعانه ونصره.

(١) شأوها هنا: سلطانها.

واعتباراً، وتعاهدهم برحمته صغاراً وكباراً، نحمده حمد من يرجو له وقاراً، ونبرأ ممن عانده استكباراً، وألحد في آياته سفاهة واغتراراً، وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نجاراً، السامى فخاراً، رفع الله من شريعته للأمة مناراً، وأطفأ برسالته للشرك ناراً، حتى علا الإسلام مقدراً، وعزَّ جاراً وداراً، وأذعن له الكفر اضطراباً، واستسلم ذلَّةً وصغاراً، فمضى وقد ملأ البسيطة أنواراً، وعمَّها بدعوته أنجاداً وأغواراً، وأوجب لولاة العهد بعده طاعة واثماراً. فجزى الله أفضل ما جزى نبياً مختاراً، ورسولاً اجتباها اختصاصاً وإيثاراً، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثاراً واختباراً، وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وأنصاراً، صلاة نوالها إعلاناً وإسراراً، ونرجو بها مغفرة ربنا إنه كان غفاراً»

وواضح أن ابن عميرة التزم في سجع هذه القطعة التي استهل بها البيعة حرف الرءاء، وهو جانب يشيع شرقاً وغرباً حتى لنجد الرسالة يُختار لها أحياناً حرف بعينه، وكان الحريرى قد ابتداءً ذلك برسالتين التزم في إحداها السين وفي الثانية الشين، فأخذ المحصفي وبعض الكتاب في الشرق يحاكيه في هذا الصنيع، وبالمثل أخذ بعض الكتاب في الأندلس يحاكونه فيه ببعض رسائلهم الشخصية دلالة منهم على مهارتهم الفنية، وسنعود إلى الحديث عن هذا الجانب في عرضنا للرسائل الشخصية عند ابن عميرة وغيره من الكتاب. وله فصول وكتابات وعظية على طريقة ابن الجوزى كما ذكر ذلك ابن عبد الملك في ترجمته له بكتابه «الذيل والتكملة»، وله مؤلفات مختلفة منها تعليقات على كتاب المعالم للفخر الرازى وتعقيب على كتاب التبيان في البلاغة لابن الزمكافى، ومنها كتاب في تاريخ ثورة المريدين على دولة المرابطين وكتاب عن كائنة ميورقة واستيلاء ملك أراجون عليها. وبالخزانة العامة بالرباط مخطوطتان من رسائله.

لسان^(١) الدين بن الخطيب

أكبر كتاب غرناطة والأندلس في أزمنتها الأخيرة، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، ولد سنة ٧١٣ للهجرة لأسرة عينية بلوشة على نهر شنيل بالقرب من غرناطة، وكان أبوه من أهل العلم والأدب، فعين بدواوين غرناطة عند أمرائها بنى

٣٣٢/٧ وأزهار الرياض ١٨٦/١ وما بعدها
والجزئين الخامس والسادس من نفع الطيب وكتاب
الاستقصا للسلاوى (طبع الدار البيضاء) ١٢/٤
وفي مواضع متفرقة وراجع كتابه: أعمال الأعلام: =

عصر الدول والإمارات (الأندلس)

(١) انظر في ترجمة لسان الدين التعريف بابن
خلدون وروحته شرقاً وغرباً (طبع لجنة التأليف
والترجمة والنشر) ص ١٥٥ وما بعدها وصح
الأعشى للقلقشندي ٥٣٦/٦ وتاريخ ابن خلدون

الأحمر، وبها نشأ لسان الدين، وعُني أبوه بتربته، فبعد حفظه للقرآن الكريم ألحقه بحلقات علماء العربية والدراسات الإسلامية، وطمحت نفسه لمعرفة علوم الأوائل فلزم يحيى بن هذيل أهم علمائها في زمنه. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وأخذ في مديح السلطان أبي الحجاج يوسف (٧٣٣-٧٥٥) وهو أهم سلاطين بني الأحمر في القرن الثامن الهجري، ويُعدّ مؤسس قصر الحمراء المشهور بما أضاف إليه من غرفه وأبهائه الفخمة. وأعجب السلطان بأشعار لسان الدين فألحقه بدواوينه، وأخذ يلزم أبا الحسن بن الجياب رئيس ديوان الكتاب وشيخ العدوتين: الأندلس والمغرب في النثر والنظم وسائر العلوم الأدبية، وعُني بالأديب الشاب، ومازال يعمل معه حتى توفي سنة ٧٤٩ فولاه السلطان أبو الحجاج رئاسة ديوان الكتاب بعده، وتوفي السلطان سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه الغني بالله، فازدادت حظوته عنده ورفعته إلى مرتبة الوزارة. ونشبت ثورة ضد سلطانه واضطر إلى اللجوء إلى السلطان أبي عنان المريني بفاس سنة ٧٦٠ وصحبه لسان الدين هناك ولم يلبث أن جال في بلاد المغرب واستقر بمدينة سلا زمنا، وعاد سلطانه إلى عرشه بقرناطة سنة ٧٦٣ فاستدعاه وألقى إليه بمقاليد الحكم، ولقبه بذي الوزارتين: السيف والقلم، وانفرد بالحل والعقد فترة، ثم أخذ يشعر بدسائس كثيرة من حوله، فخشى على نفسه مغبة ذلك، فجمع حقايبه سنة ٧٧٢ وتوجه إلى السلطان عبد العزيز المريني بفاس فأكرمه. ولم يهدأ خصومه بقرناطة وفي مقدمتهم تلميذه ابن زمرّك وقاضي قرناطة أبو الحسن التباهي ودشوا عليه عند الغني بأنّه يجرّض سلطان فاس على غزو الأندلس وضم قرناطة إليه ووصموه بالزندقة لما ذكر في كتابه: «روضة التعريف» من عقيدة التصوف الفلسفية وما يتصل بها من الحلول وغير الحلول، ورُفِع ذلك إلى السلطان عبد العزيز المريني فأبى تسليمه مبرّئا له مما وصموه به.. ولم يلبث السلطان أن توفي سنة ٧٧٤ واضطربت الأمور في فاس، وتولى سلطنتها - بمساعدة الغني بالله - أبو سالم المريني سنة ٧٧٦ ولم يلبث أن أودع ابن الخطيب السجن إرضاء للغني بالله. ولم يكتف تلميذه ابن زمرّك بذلك، إذ قدم إلى فاس وعقد محاكمة لأستاذه في مجلس السلطان

عباس (طبع بيروت) ونفاضة الجراب في كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس (طبع الإسكندرية) وكتابه في التصوف: روضة التعريف بالحب الشريف (طبع بيروت) ودواينه الشعرى: الصيب والجهم (طبع الجزائر).

= القسم الثاين (طبع الرباط) ص ٢٦١ وما بعدها وكتابتنا الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٣٣ ولللسان الدين أعمال كثيرة منها الإحاطة في أخبار قرناطة (طبع دار المعارف) والكنية الكامنة في معاصره بالمائة الثامنة تحقيق د. إحسان

أبي سالم وعرض عليه بعض كلمات كتبها في مصنفه «روضة التعريف» تتصل بآراء الصوفية المتفلسفة من مثل الحلول والاتحاد، وأعلن النكير عليه موبخا له، ونقل إلى السجن، وأخذ القوم يتشاورون فيه وأفتاهم بعض الفقهاء قصار النظر بقتله، ودس إليه في السجن من قتلوه خنقا، وألقيت جثته على قبره، ويقال إنه أضمرت عليه نار فاحترق شعره واسودت بشرته، ووورى التراب. وعجب الناس في فاس وفي غرناطة من هذا التمثيل الشنيع، وعدوه من هنات ابن زمرَك تلميذه العاق.

ولم يكن ابن الخطيب متصوفا فضلا عن أن يكون متصوفا فلسفيا كما حاول ابن زمرَك أن ينعتة بذلك كذبا عليه وافتراء، إنما كان كاتباً موسوعيا كما تشهد بذلك مصنفاته الكثيرة، وقد كتب في التصوف كتابه «روضة التعريف» لشيوع التصوف في زمنه بالأندلس وخاصة بالمغرب، ولو كان متصوفا حقا لهجر الدنيا وعاش في زاوية - أو ضرب في الأرض - ناسكا مثل ابن عربي وابن سبعين والششتري. ولا نخليه من ميول إلى الزهد والتصوف كما تدل على ذلك أشعاره ولكن هذا شيء والتصوف الحقيقي شيء آخر، وفيه يقول المقرئ: «هو لسان الدين وفخر الإسلام بالأندلس في عصره الطائر الصيت المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها» ويقول ابن خلدون في وصف براعته الأدبية: «كان آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب لا يساجل مداه، ولا يهتدى فيها بمثل هده». ومما قيل فيه: «كاتب الأرض إلى يوم العرض». وله - بجانب ديوانه: الصيِّب والجهام - مقامة بناها على المفارقة بين سلا في المغرب ومالقة في الأندلس وثلاث رحلات منها رحلتان في وصف البلدان وصف فيها بلدان الأندلس والمغرب هما: «خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» في وصف بعض البلدان الأندلسية الشرقية، و«معيار الاختبار في ذكر أحوال المعاهد والديار» في وصف بعض البلدان المغربية والأندلسية. وهذه الأعمال منشورة وكذلك رحلته نفاضة الجراب، وسنعرض لكل ذلك في موضع آخر. ونقف قليلا عند رسائله الديوانية.

وعادة إذا كانت الرسالة الديوانية موجهة إلى أحد السلاطين ممن يلقبون أنفسهم بالخلافة مثل سلاطين تونس أو يكتفون بالسلطنة فقط مثل سلاطين بني مرين أن تذكر لفظ الخلافة أولا أو يذكر لفظ المقام أو المقر ويطلب لسان الدين في هذا الوصف، ثم يذكر ألقاب الخليفة أو السلطان المرسل إليه، كما يطلب في الدعاء له ولدولته ويذكر السلطان

المكتوب عنه، ويتبع ذلك بالتحديد والصلاة على رسول الله والرضا عن صحابته، ويذكر المكان الذي كُتبت فيه الرسالة ثم يأخذ في بيان المقصود منها ويختمها بالدعاء. ومن خير ما يصور ذلك كله من رسائله الديوانية رسالة له عن سلطانه الغني بالله إلى سلطان تونس الملقب بالخليفة، جوابا عن كتاب وصل منه مصحوبا بهدية من الخيل والرقيق، ولروعتها البيانية رواها ابن خلدون في كتابه التعريف والقلقشندى في صبح الأعشى، وهو يستهلها على هذا النمط:

«الخلافةُ التي ارتفع في عقائد فضلها الأصيلِ القواعدِ الخلافُ، واستقلت مباني فخرها الشائع وعزها الذائع على ما أسسه الأسلافُ، وجب لحقها الجازم وفرضها اللازم الاعتراف، ووسعت الآملين لها الجوانبُ الرحيمةُ والأكنافُ، فامتزاجنا بعلانها المنيف وولاتها الشريف كما امتزج الماءُ والسُّلافُ، وثناؤنا على مجدها الكريم وفضلها العميم كما تآزجت الرياض بالأفواف^(١)، لما زارها الغمام الوكاف^(٢)، ودعاؤنا بطول بقائها واتصال علانها يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراق، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العميمة لا تحصره الحدود ولا تدرُكه الأوصاف، وإن عذر في التقصير عن نبيل ذلك العرام الكبير الحق والإنصاف».

ولعل بلاغة لسان الدين قد اتضحت في هذه القطعة، إذ ينعت فيها الخلافة التونسية نعوتا بدعية، وبدعها لا يأتي من انتخاب ألفاظها ذات الرونق والحسن فحسب، بل يأتي أيضا من أسجاعها الطويلة التي يتلافى طولها بما يجري في تضاعيفها من أسجاع داخلية على نحو ما نرى في تقابل السجعتين: «فخرها الشائع» و «عزها الذائع» في السجعة الثانية وبالمثل تقابل السجعتين في السجعة الطويلة الثالثة إذ يقول: «لحقها الجازم، وفرضها اللازم». وبنفس النمط تلاقى «المنيف والشريف» في السجعة الخامسة، و «الكريم والعميم في السجعة السادسة»، ويكثر ذلك في الرسالة طلبا لاكتمال الجرس حتى تلذ الأسباع لذة موسيقية، وهي لذة تقترن بمحسنات البديع، إذ تتوالى الجناسات في السجعات الداخلية، كما تتوالى التصاویر، ففضل الخلافة أصيل القواعد، ومباني فخرها وعزها استقلت وارتفعت، وامتزاج السلطان الغني بالله وحواشيه بشرفها امتزاج الماء بالسلاف، وثناؤهم عطرٌ كشدى الرياض في الأزهار غيب الغيث المدرار. وأخذ بعد ذلك في نعت الخليفة نفسه وآبائه الأجداد، وامتد نعتة نحو أربعة عشر سطرا، ثم ذكر الغني بالله مع

(٢) الوكاف: المدرار.

(١) الأفواف: الزهر.

طائفة من النعوت، ومع سلام كريم كما حملت أحاديث الأزهار نسمات الأسحار، وأطال في التحميد والصلاة على رسول الله والدعاء للخلافة، كما أطال في وصف الرسالة وحاملها والهدية النفيسة من الخيل فرسا فرسا، واستطرد إلى ذكر الخيول والأفراس المشهورة عند العرب، ويعود إلى ذكر رسول الخليفة أو سفيره مطريا مثنيا، ثم يأخذ في وصف جهاد سلطانه الغنى بالله لتصارى الشمال ومنازلته لهم في مدن كثيرة، من ذلك منازلته لهم في جيان وكانت قد سقطت في أيديهم سنة ٦٤٣ للهجرة ويصف تلك المنازلة بقوله:

«وهذه المدينة هي الأمّ الولود، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود، وكُرسيّ الملك، ومجنّبة^(١) الوسطى من السلك، غاب الأسود، وجحر الحيات السود.. ولما أكتبنا^(٢) جوارها، وكدنا نلتمح، نارها، تحركنا إليها ووشاح الأفق المرقوم^(٣) بزهر النجوم قد دار دائره، والليل من خوف الصباح على سطحه المستباح قد شابت غدايره.. ولما فشا سرُّ الصباح، واهتزت أعطاف الرايات بتحيات مبشرات الرياح، أطللنا عليها إطلال الأسود على الفرائس، والفحول على العرائس.. ودفعوا من أصحر^(٤) إليهم من الفرسان، وسبق إلى حومة الميدان، حتى أجحروهم^(٥) في البلد، وسلبوهم لباس الجلد، في موقف يذهل الوالد عن الولد، صابت^(٦) السهام فيه غماما، وطارت كأسراب الحمام تهدي جماما^(٧)، وأضحت القنا قصدا^(٨)، بعد أن كانت شهايا رصدا».

والقطعة زاخرة بالمجناسات والتساوير، فجيان أم ولود، وجنة من جنان الأندلس ولساكنيها النار وبئس القرار. وقد دنوا منها في أخريات الليل ووشاح الأفق المرصع بالنجوم يوشك أن يغيب والليل من خوف الصباح يوشك أن يشيب، ولم يلبث الصباح أن أخذ يذيع أسراره بينما تهتز الأغصان بتحيات الرياح مبشرة لهم بالظفر على الأعداء، وهبطوا عليهم كالأسود الكواسر، ولم يلبثوا أن دخلوا في جحورهم فرارا من الموت الزؤام وما ينزلون بهم من غمام السهام وصواعق الموت، وتكسرت الرماح التي كانت تحميهم، وخروا صرعى مجذلين.

- (١) مجنبة واسطة السلك: الجوهرة بجانب الجوهرة الوسطى الفريدة في العقد.
 (٢) أكتبنا: قاربنا.
 (٣) المرقوم: الموسوم والمنقوش.
 (٤) أصحر: برز.
 (٥) أجحروهم: أدخل.
 (٦) صاب: انصب.
 (٧) الحمام بكسر الحاء: الموت.
 (٨) قصد جمع قصدة: قطعة.

ويكثر ابن الخطيب - كعادة أهل الأندلس في زمنه وقبل زمنه - من الكتابة عن سلطانيه أبي الحجاج وابنه الغنى بالله إلى الرسول ﷺ متوسلين إليه بالشفاعة في تحقيق أمانيتهم الدنيوية في النصر على الأعداء وأمانيتهم الآخروية في الغفران والرضوان، مع تصوير جهادهما الدائب في نصرة الإسلام والذب عن حياضه في الأندلس. ويفيض المقرئ بكتابه نفع الطيب في الحديث عن شيوخه وتلاميذه وأولاده وهو بحق مفخرة من مفاخر الأندلس حُسن أداء وروعة بيان.

٢

الرسائل الشخصية

طبيعى أن يعنى الكتاب بهذه الرسائل منذ عنيتهم بالرسائل الديوانية معبرين عن عواطفهم ومشاعرهم من ثناء وشكر وعتاب واستعطاف واعتذار وتهنئة وشفاعة واستمناع وتعزية، وليس بين أيدينا نصوص منها قبل عصر المنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع إذ احتفظ ابن بسام في الذخيرة بطائفة من الرسائل الديوانية التي صدرت من دواوينه على لسان ابن برد الأكبر وابن دراج شاعره وساق للأخير رسالة شكر لمن أنقذه من ضنك حياته، وهو يصف فيها ما كان قد نزل به من الضنك والبؤس بعد أن كان في ثراء وحال حسنة قائلاً^(١):

«كنت قد نشأتُ في مَعْقَلٍ مِنَ الْعَفَا^(٢) وَالْوَقْرِ، مُحَدَقًا بِسُورٍ مِنَ الْأَمْنِ وَالسُّتْرِ، حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ سُلْطَانُ الْفَقْرِ، رَسُولًا مِنْ نُوبِ الدَّهْرِ، يَرِيدُ اسْتِنزَالَيَ إِلَيْهِ، وَخَضُوعِي بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَبَيْتُ مِنْ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَغَزَانِي بِكُتَائِبٍ مِنَ النَّوَائِبِ، تَسِيرُ تَحْتَ الْوَيْةِ الْمَصَائِبِ، تُبْرِقُ بِسُيُوفِ الرَّزَايَا، وَتُشْهِرُ أَسِنَّةَ الْمَنَايَا، يَرْمُونَ عَنِ قِسْيِ الْأَوْجَالِ، وَيَضْرِبُونَ طَبُولَ الذُّعْرِ وَسُوءِ الْحَالِ، بِأَيْدٍ بَاطِشَةٍ لَا تَكِلُ، وَبِصَائِرٍ ثَابِتَةٍ لَا تَمَلُ.»

والرسالة مبنية على السجع، مبالغة في التأنق، وقد اختيرت فيها الألفاظ وامتلات بالتصاوير، مما يؤكد شيوع التمنيق في الرسائل الشخصية منذ أواخر القرن الرابع الهجرى على نحو ما أخذ يحدث في الرسائل الديوانية عند ابن دراج نفسه وعند ابن برد

(١) الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس) (٢) العفا هنا: ككرة الخبز وطيب العيش.

الأكبر، وملتقى بأخرة من العصر الأموي بآبن شهيد الكاتب البارح المتوفى سنة ٤٢٦ وقد ترجم له ابن بسام في ذخيرته، وذكر له طائفة كبيرة من رسائله الشخصية، وهو يطيل فيها طولاً شديداً، ونسوق له قطعة من رسالة أظن فيها ما وسعه الإطناب كتب بها إلى صاحب بلنسية شاكراً معتذراً عن الإلمام ببابه لتعلقه بقرطبة مع ما أصابها من الفتنة ومن التخریب والهدم والحرق، يقول^(١):

«قد كان أقلُّ حقوق مولاى أن أقف ببابه، وأخيم بفنائه، وأهدى إليه الشكر غصاً،
وأثر عليه المدح بضاً^(٢)، ولكنى ممنوع، وعن إرادتى مَمُوع، يملكنى سلطان قدير، وأمير
ليس كمثلته أمير، شىء غلب صبر الأتقياء، واستولى على عزم الأنبياء، وهو العشق، باطل
يلعب بالحق، ليبين ضعف البشر، وتلوح قدرة مصرف القدر، والذي أشكو منه أغرب
الغرائب، وأعجب العجائب، بث شاغل، وبرح^(٣) قاتل، وصبر يعيض^(٤)، ودمع يفيض،
لعجوز بخرأ^(٥)، سهكة درداء^(٦)، تدعى قرطبة:

عجوز لعمر الصبا فانيه لها فى الحشا صورة الغانية

طاب لى الموت على هواها، ولذ عندى سقى دمي لثراها». وله من رسالة يصور فيها
أحد الأبطال المنازلين لجيوش الأعداء من نصارى الشمال^(٧):

«واصل الجهاد، واستأصل الكفر والعناد، واتخذ ظهر الجواد بيتاً، وظل اللواء
كُميتاً^(٨)، واستبدل من نقر الكران^(٩) قرع الطبول، ومن نغم القيان شجاً الصهيل، ومن
وجبة^(١٠) المعازف لجب الخيول، يمشى فى الهجير^(١١)، ويسرى^(١٢) فى الزمهير،
ويحن إلى الأذان والتكبير، فى خطة إبليس، ومصدق النواقيس».

وستترجم لابن شهيد فى مطلع الحديث عن الرسائل الأدبية، ونمضى إلى عصر أمراء
الطوائف ومن أوائل من تلقاه فى هذا العصر ابن برد الأصغر كاتب معن بن صُباح أمير

- | | |
|---|--|
| (١) الذخيرة ٢٠٧/١. | (٨) الكميت من الخيل: الأشقر ضارباً إلى السواد. |
| (٢) بضاً: ناظراً. | (٩) الكران: العود. |
| (٣) برح: عذاب. | (١٠) وجبة: صوت. |
| (٤) يعيض: يغيث. | (١١) الهجير: القبط وسط النهار. |
| (٥) بخرأ: رائحة فيها كرية. | (١٢) يسرى: يسير ليلاً. الزمهير: البرد الشديد. |
| (٦) سهكة: كرية الرائحة. درداء: ساقطة الأسنان. | |
| (٧) الذخيرة ٢٢٧/١. | |

المرية، وقد أطال ابن بسام في ذكر تحميداته، وذكر طائفة من رسائله في العتاب والاستزارة وله رسالة في ذم صديق، ويقول ابن سعيد في المغرب إنها من أبداع ما قيل في ذم مؤاخٍ، ومن قوله فيها: (١)

«خَلَيْتُ عَنْهُ يَدِي، وَخَلَدْتُ قِلاَهُ خَلْدِي، بِيضُ الْأَنْوَقِ (٢) مِنْ رِفْدِهِ أَمَكْن، وَصَفَا الْمُشَقَّرَ (٣) مِنْ خَدِّهِ الْآيْنِ، نَزَرَ النِّوَالِ، رَثَّ الْمَقَالِ، أَحَادِيثَ وَعُدَّهُ لَا تَعُودُ بِنَفْعِ، وَلَا هِيَ مِنْ غَرْبٍ وَلَا نَبْعٍ (٤)، عَلَى وَجْهِهِ مِنَ التَّعْبِيسِ قُفْلٌ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ، وَلَيْلٌ مَاتَ صِبَاغُهُ، غَنَى مِنَ الْجَهْلِ، مَفْلَسٌ مِنَ الْعَقْلِ، تَنْضَالُ النِّعَمِ لَدَيْهِ، وَتَقْبِيحُ مَحَاسِنِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، غِرْبَالُ حَدِيثٍ إِذَا وَعَى سِرًّا قَطَرَ مِنْهُ، كَبِدُ الزَّمَانِ عَلَيْهِ قَاسِيَةٌ، وَنِعْمَ اللَّهُ لَهُ نَاسِيَةٌ، قَصِيرُ عَمْرِ الْوَفَاءِ لِلْإِخْوَانِ، عَوْنٌ عَلَيْهِمْ مَعَ الزَّمَانِ، مَرْبٌّ لِأَطْفَالِ الْإِحْسَانِ، مُخَيِّ لَأَمْوَاتِ الدَّمَنِ (٥)، رَقَدَتْ مَلءَ عَيْنِي فِي فَرْشِ الْقَلْبِ (٦) لَهُ وَشَرِبْتُ زُلَّالَ (٧) مَاءِ الْغَزَاءِ عَنْهُ»

ولابن برد رسالة وجه بها إلى أبي الوليد بن جهور أمير قرطبة (٤٣٥ - ٤٦١ هـ) جعل موضوعها مجلسا للرياحين وأنوار البساتين أخذت فيه تتفاوض وتتجاوز في أيها أجمل في صورته وأعقب في رائحته ثم قام من بينهم خطيب، ففضل الورد على سائر الأزهار لحرمة معللا لذلك بأن الحمرة لون الدم والدم صديق الروح. وكان بالمجلس من رؤساء الأزهار والرياحين النرجس الأصفر والبهار والبنفسج والخيري، فأدوا للورد شهادتهم بتقدمه، ونسوق منها شهادة النرجس إذ يقول (٨):

«وَالَّذِي مَهَّدَ لِي جِجَرَ الثَّرَى، وَأَرَضَعَنِي نُدَى الْحَيَا (٩)، لَقَدْ جَنَّتْ بِالشَّهَادَةِ أَوْضَحَ مِنْ لَبَّةِ (١٠) الصَّبَاحِ، وَأَسْطَعَ مِنْ لِسَانِ الْمَصْبَاحِ، وَلَقَدْ كُنْتُ أُسِيرُ مِنَ التَّعَبِّدِ لَهُ وَالشَّغْفِ بِهِ، وَالْأَسْفَ عَلَى تَعَاقِبِ الْمَوْتِ دُونَ لِقَائِهِ. مَا أَنْحَلَ جَسْمِي، وَمَكَّنَ سَقْمِي، وَإِذْ قَدْ أَمَكْنُ الْبُوحُ بِالشَّكْوَى، فَقَدْ خَفَّ ثِقْلُ الْبَلْوَى»

وتوالى شهادة البنفسج والبهار (١١) والخيري، ثم تعقد الأزهار العزم على كتابة عقد

- | | |
|--|--|
| (١) الذخيرة ٥٠٤/١ والمغرب ٨٩/١. | (٦) القلي: الكراهية. |
| (٢) واضح أن بيض الأنوق مثل لبيان الاستحالة. | (٧) الماء الزلال: العذب الصافي السلس. |
| (٣) المشقر: حصن في البحرين اشتهر صفاه أو صخره بشدة الصلابة، ويريد أن صديقه صفيق. | (٨) الذخيرة ١٢٧/٢. |
| (٤) الغرب والنبع: شجر تتخذ منه السهام. | (٩) الحيا: المطر. |
| (٥) الدمن: جمع دمنة: الخمد. | (١٠) اللبة: موضع القلافة من العنق. |
| | (١١) زهر البهار أصفر ويشبه زهر النرجس. |

بذلك ويكتبون رقعة بتحالف الرياحين جميعا على أنها أعطت للورد قيادها وملكته أمرها، واعترفت بأنه أميرها المقدم لخصاله والمؤمّر لسوابقه، وهي لذلك تلتزم به بالسمع والطاعة والرق والعبودية. وربما كنى بالورد عن أمه في أن يكون وزيرا لابن جمهور مفضلا له على كل من حوله. وقد طارت شهرة هذه الرسالة وحاكها غير كاتب، ومن حاكوها معاصر ابن برد حبيب صاحب كتاب فصل الربيع وسنترجم له عما قليل، أما ابن برد فسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية.

ويكظ كتاب الذخيرة لابن بسام بالرسائل الشخصية يدبجها كتاب الدواوين والوزراء والشعراء وينمقونها صورا مختلفة من التنميق، ومن روى له كثيرا من رسائله الشخصية أبو محمد بن عبد البر الذي ترجمنا له بين كتاب الرسائل الديوانية، وله رسائل كثيرة في الشفاعات والوسائل والمودة وفي التهنتة والتعزية، من ذلك تعزيته لأب في فتى له استشهد في قتال أعداء الدين الحنيف، وفيها يقول^(١):

« كُتِبَتْ عن قلب يقشعُرُ، ونَفْسٍ بين ضلوعها لا تستقرُّ، لخبر الرُّزءِ الهاجم، والنبأ الشنيع الكالمِ... فيا لها حسرة ما أنكأها^(٢) للنفوس، وجمرة ما أذكأها^(٣) في القلوب. ورؤعة ما أفتها للأعضاء، ولوعة ما أحرها على الأكباد:

وما نحن إلا مثلهم غير أننا أقمنا قليلا بعدهم وتقدّموا

ولقد خرج من بيته مجاهدا، وعن جمى الدين ذائدا، فوقع أجره على الله.. وأنت الطودُ الموفى^(٤) على كل هضبة، المعلى على كل فرحة وكربة. والله - يا سيدى - فى نفسك العزيمة أن يكون فيها كامنُ رزءٍ^(٥) يقدح، أو أن يوهن منها باطن أسى يقدح»

وكان يعاصر أبا محمد ابن حيان مؤرخ الأندلس الكبير المتوفى سنة ٤٦٩ وقد ترجم له ابن بسام ترجمة ضافية، وسنترجم له في غير هذا الموضع، وروى ابن بسام له رسائل شخصية بديعة، وفي إحداها يقول مهنئا بعض العمال بخلاصه من نكبته^(٦):

« كتابى عن نفسٍ قد أشرق وجهُ صباحها، وهبت رياحُ ارتياحها، بما طلع علينا من

(٤) الموفى: المشرف.

(١) الذخيرة ٢١٩/٣.

(٥) رزه: مصيبة.

(٢) ما أنكأها: ما أنكأها أى ما أشد جرحها

(٦) الذخيرة ٥٨٤/١.

وألمها.

(٣) ما أذكأها: ما أحرها.

البشائر السائرة بخلاصك، وجميل انفكاكك، على حين بلغت قلوب الأوداء الحناجر، وكادت موارد الحزن لا تكون لها مصادر، فإن الأيام عمّت فيك، بإساءتها إليك، كلُّ مُتَسَبِّبٍ إلى فضل، مُتَسِمٍ باسم نُبَلٍ، وإن كانت قد أصابت فيك سواد ناظرها الذي تُضِيء به وتتجمل، وسَخَتْ منك بحلى جيدها الذي يحقُّ به أن تبخل.. وقد صادفتُ منك الإبريز^(١) الذي لا يزيد السبك إلا تمحيصا، والميرز الذي لا يعقبه تحوُّل الأحوال نكوصا، تتلقى الخطوب بصدر وساع^(٢)، وصبر منفسح الباع، وتسير^(٣) الدهر بمسبار، وتعرف من مكنونه حقيقة إرادته وإصداره».

ونلتقى بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وسنخصه بكلمة، وكان يكتب للمقتدر أيضا أبو عمر^(٤) الباجي المتوفى سنة ٤٧٥ وروى له ابن بسام رسالة على لسان زهر البهار وجه بها إلى المقتدر بن هود مزدلفا إليه آملا أن تكون له الخطوة الكبرى بين كتابه ووزرائه كما للبهار بين نواير الربيع وفيها يقول^(٥):

«أطال الله بقاء المقتدر مولاي وسيدى ومُعَلِّي حالي ومقيم أودي^(٦)، وأعاذني من خيبة العناء، وعصمني معه من إخفاق الرجاء، ولا أشمت بي عدوا من الرياض يناصبني^(٧)، وحاسدا من النواير يراقبني، وقد علم الورود موقع إمارتي، وغني بلطيف إيماني عن عبارتي.. وقد أتيت في أواني، وحضرت وغاب أقراني، ولم أخل من خدمتك رتبتي ومكاني.. فهل لمولاي أن يُحسن إليّ صنيعا، ويكرم النور جميعا، ويُدنيني فأرقي إلى أختي الثريا سريعا، في مجلس قد أخلصته سحائبه، وأفرغت الحسن عليه والطيب ضرائبه^(٨)، وجهك بدره، وغرتك فجره، وأخلاقك زهره، وثناؤك دره وعطره»

والباجي يجعل البهار فوق الورد وجميع الأزهار مصورا بلسانه مطامحه في التقدم عند المقتدر في مجالس تدبيره وأنسه على جميع كتابه ووزرائه. ولمواطنه كاتب المقتدر حسداي^(٩) - وكان يهوديا وأسلم وحسن إسلامه - رسالة مماثلة كتب بها إلى المقتدر على

(١) الإبريز: الذهب الخالص.

(٦) أودي: اعوجاجي.

(٢) وساع: متسع.

(٧) يناصبني: يفاديني.

(٣) تسير: تختبر. مسبار: آلة الاختبار.

(٨) ضرائبه: طبائعه وسجاياه.

(٤) انظر ترجمة الباجي في القلائد ١٠٢ والذخيرة

(٩) راجع ترجمته في القلائد ١٨٣ والذخيرة

١٨٦/٢ والحريدة ٣١٣/٢ والمغرب ٤٠٥/١.

٤٥٧/٣ والحريدة ٤٨/٢ والمغرب ٤٤١/٢.

(٥) الذخيرة: ١٩٤/٢.

ومن شعراء العصر الذين عنى ابن بسام برواية طائفة من رسائلهم الشخصية البديعة ابن الحداد الذي مضت ترجمته بين أفذاذ الشعراء في العصر، وتتم رسائله عن أنه كان مثقفا ثقافة واسعة بالآداب العربية ومايطوى فيها من أعلام وأمثال وأشعار، وبعلم الأوائل ومايطوى فيها من فلسفة وغير فلسفة، ومن طريف رسائله في الشكر والإخاء^(٢):

«يا سيدي الذي هو قسيم ذاتي إن تحققت الذوات والنحائر^(٣)، وشقيق نفسي إن تبينت الخلائق والغرائز، ومن أبقاه الله بقاء الفرقدين^(٤) في تدبير السعدين. بيننا من التحام المقة^(٥)، واستحكام الثقة، ما أربأ^(٦) به عن تضمين الصحائف، ولو قُدت من السوالف^(٧)، وأنزّهه عن اشتغال المداد، ولو كان من دم الفؤاد، فصفاؤنا شمسي النقاء، ووفائنا فلكي البقاء، ولا تضمن الطروس، إلا ما لحقه الدروس. وكتابي هذا إثر إتحاقك لى بكتابين كالنيرين، فإن كان القمر ويوح^(٨)، لإنارة اللوح، فهذان، لجلاء الأذهان».

ومن الكتاب المبدعين أبو عبد الرحمن بن طاهر، وسنخسه بكلمة، وكان يعاصره أبو الحسين^(٩) سراج بن عبد الملك بن سراج اللغوي الفقيه الكاتب المتوفى سنة ٥٠٨ وله رسالة طريفة بناها على الدعاية في الشفاعة لشخص يسمى بالزرزير مستغلا اتفاق اسمه مع اسم طائر الزُرزور على هذا النمط^(١٠):

«يَصِلُ بِالْكِتَابِ - وَصَلَ اللَّهُ عُلوَّكَ، وَكَبَتَ عَدُوَّكَ - شَخْصٌ مِنَ الطَّيُورِ يُعْرَفُ بِالزُّرْزِيرِ أَقَامَ لَدَيْنَا أَيَّامَ التَّحْسِيرِ^(١١)، وَزَمَانَ التَّبْلِغِ بِالشُّكْرِ^(١٢)، فَلَمَّا وَافَى رِيشُهُ، وَنَبَتْ بِأَفْرَاخِهِ عَشُوشُهُ، أَرْمَعَ عَنَّا قُطُوعًا^(١٣)، وَعَلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ اللَّذْنُ تَدْلِيًّا وَوُقُوعًا، رَجَاءُ أَنْ

-
- (١) الذخيرة ٤٧٠/٣.
 (٢) انظر ترجمته في الذخيرة ٨٢١/١ والمغرب
 (٣) النحائر: الطبايع.
 (٤) الفرقدان: نجان قريبان من القطب.
 (٥) المقة: المحبة.
 (٦) أربأ به: أنزهه.
 (٧) السوالف جمع سالفة: جانب العنق.
 (٨) النيران: الشمس والقمر يوح: الشمس.
 (٩) اللوح: الهواء بين السماء والأرض.
 (١٠) انظر ترجمته في الذخيرة ٨٢١/١ والمغرب
 (١١) الصلة ٢٢٢ والمطرب ١٢٣ والحريدة
 (١٢) ومعجم الأدباء ١١/١٨١.
 (١٣) الذخيرة ٣٤٧/٢.
 (١٤) التحسير: سقوط الريش العتيق.
 (١٥) الشكير: صغار الريش. التبليغ: الاكتفاء.
 (١٦) قطوعا: طيرانا.

يَلْقَى فِي تِلْكَ الْبَسَاتِينَ مَعْمَرًا^(١) وَعَلَى تِلْكَ الْغُصُونِ حَبًّا وَثَمْرًا، وَأَنْتَ بِجَمِيلِ تَأْتِيكَ،
وَكِرْمِ مَعَالِيكَ، تَصْنَعُ لَهُ هُنَاكَ وَكُونًا^(٢)، وَتَسْتَمِعُ مِنْ نَغْمِ شُكْرِهِ عَلَى ذَلِكَ أَغَارِيدَ وَلُحُونًا،
دُونَ أَنْ يَلْتَقِطَ فِي فَنَائِكَ حَبَّةً، أَوْ يَسْتَرْطَ^(٣) مِنْ مَائِكَ نَغْبَةً^(٤)».

وطارت الرسالة في الأندلس وحاول غير أديب محاكاتها لِمَا فِيهَا مِنْ دَعَابَةٍ مُسْتَمْلِحَةٍ،
إِذْ صَوَّرَ سِرَاجَ مَا كَانَ فِيهِ هَذَا الشَّخْصَ مِنْ ضَيْقٍ جَعَلَهُ يَلْتَمِسُ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ لِصَاحِبِهِ
بِالزَّرْزُورِ حِينَ يَنْحَسِرُ عَنْهُ رِيْشُهُ الْعَتِيقُ وَلَا يَبْقَى لَهُ إِلَّا الرِّيشُ الْقَصِيرُ، حَتَّى إِذَا كَثُرَ
رِيْشُهُ صَعِمَ عَلَى الْقَطْوَعِ أَوْ الرَّحِيلِ أَمْلَأَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَى أَفْقِ هَذَا الْجَوَادِ وَيَجِدُ عِنْدَهُ مَنْزِلًا
وَحَبًّا وَثَمْرًا وَوَكُونًا أَوْ عَشُوشًا يَأْوِي إِلَيْهَا مَتَغْنِيًا بِالنَّشَاءِ عَلَيْهِ. وَبِنَصْحِهِ أَنْ لَا يَجِدُ فِي فَنَائِهِ
حَبَّةً يَلْتَقِطُهَا وَلَا جَرَّةً مَاءٍ تَبَلُّ رِيْقَهُ. وَمَنْ حَاوَلَ مَحَاكَاةَ سِرَاجِ بَنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي هَذِهِ
الدَّعَابَةِ الطَّرِيفَةِ أَبُو بَكْرٍ عَبْدِ^(٥) الْعَزِيزِ بْنِ الْقَبْطُورَةِ كَاتِبِ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ
الْمُتَوَفَى حِوَالَى سَنَةِ ٥٢٠ لِلْهَجْرَةِ، وَمَنْ قَوْلُهُ فِي رِسَالَتِهِ^(٦):

«يَصِلُ بِكَتَابِي - وَصَلَّ اللهُ سَعُودَكَ - مِنَ الطَّيْرِ نَطَاقًا، مِنْ غَيْرِ ذَوَاتِ الْأَطْوَاقِ^(٧) ..
مَهْدَتَهُ الْعَدَارَى الْحُجُورَ، وَالْحَفَّتَهُ الشُّعُورَ، وَرَبَّتَهُ بَيْنَ التَّرَاتِبِ وَالنُّحُورِ، وَعَلَّلَتْهُ
بِالرُّضَابِ^(٨)، وَسَقَّتَهُ بِأَفْوَاهِهَا الْعِدَابَ، أَقَامَ عِنْدَنَا زَمَانًا، لَا يَتَأَلَّفُ إِلَّا رَنْدًا^(٩) أَوْ بَانًا،
يَتَدْرَجُ فِي الْبَسَاتِينَ، يَتَطَلَّبُ الْعِنَبَ الْمُنْتَقَى وَالتَّيْنَ، فَذَكَرْتَ لَهُ يَوْمًا وَالْحَدِيثَ ذُو
شُجُونٍ، أَرْضُكَ الْمَيْثَاءُ^(١٠) ذَاتَ الشَّجَرِ وَالْعَيْونِ، فَصَفَّقَ جَنَاحًا، وَاهْتَزَّتْ أَرْتِيحًا، وَسَأَلْتَنِي
إِلَى مَجْدِكَ كِتَابًا فَاثَلَّتَهُ مَا ابْتَغَى، وَقَلْتُ: سَلِمَتْ أَخَا الْبَيْغَا، وَبُلِّغْتَ الْمَدَى، وَجُنِبْتَ مِنْ
حَزَّةِ الْمَدَى^(١١) وَأَخَذَ الْكِتَابَ بِمَنْقَارِهِ، وَصَفَّقَ بِرِيْشِ الْجَنَاحِينَ سُرُورًا وَطَارَ، وَأَنْتَ
بِسَيَادَتِكَ تَبَسُّطُ لَهُ فِي بَسَاتِينِكَ، وَتَفْرِشُ لَهُ مِنْ وَرْدِكَ وَيَاسْمِينِكَ»

وكان يعاصر ابن القبطورنة أبا القاسم بن الجد، وسنخسه بكلمة، وعاصرهما
ابن عبدون الشاعر الفذ الذي ترجمنا له بين شعراء الرثاء، وقد عمل في دواوين المتوكل

-
- | | |
|--|--|
| (١) معمرا: منزلا. | (٧) ذوات الأطواق: الحمام. |
| (٢) وكونا جمع وكن: عش الطائر. | (٨) الرضاب: الريق المرشوف والعسل. |
| (٣) يسترط: يبتلع. | (٩) الرند: شجر طيب الرائحة. البان: شجر |
| (٤) نغبة: جرعة. | يشبه به الحسان في الطول واللين. |
| (٥) راجع ترجمته في الذخيرة ٧٥٣/٢ والمغرب | (١٠) الميثاء: اللينة الطيبة. |
| ٣٦٧/١ والتكملة رقم ١٧٤٣ والقلائد ١٤٨. | (١١) المدى، جمع مدينة: السكين. |
| (٦) الذخيرة ٧٥٨/٢. | |

ببطلْيوس ثم في دواوين المرابطين، وله رسائل يخطب فيها ودّ أبي القاسم بن الجند، وفي إحداها يقول^(١) :

«إن تعذّر لِقَاء، فقد انتشر نِئَاء، امتلأت الأرض منه والسماء، ووصف عِزُّ الأوصافِ
وغلبها، وهزُّ الأعطافِ وجذبها، وذكُرُ مَلَأ الآذان حُلِيًّا، والآنافَ رِيًّا^(٢)، والأفواه أُرِيًّا،
ونُبُلٌ جَلَّتْ مطالعُهُ دِياجِي الأوهام، وروّتْ مواقعهُ صَوادِي^(٣) الأوهام.. والله دهرُ أطلعك
أفقه، ووقتُ وسِعَك طَلَقُهُ^(٤)، ما أكرمَ طبيعته، وأضخمَ دَسِيعَتَهُ^(٥)، وأعبقَ في الآنافِ
شَمِيمَهُ، وأرقَ على الأنفاسِ نَسِيمَهُ.. وأنا أخطبُ إلى عِمادِي - أدام الله عزَّته - مودَّتَهُ
عَقِيلَةً^(٦)، وأجعلُ رَجْمِي^(٧) : الأدبَ والنسبَ وسيلةً، وأبذلُ من تحلية حَمْدِي وشكْرِي
مَهْرًا، وأبني لها بين سَحْرِي ونَحْرِي^(٨) قَصْرًا.. والله - جَلًّا وعلا - يُعِينَنِي على فَرَضِهِ
أوْدِيهِ، وقرَضِهِ أَقْضِيهِ».

وللأعمى التطيلي الشاعر معاصره رسالة عتاب بديعة لمن خدمه الزمان وأقبل عليه
السلطان، وله يقول مترفعا عن بره وعونه: «إني أبيت ظمآن، ولا أبيت خزيان، وأحتمل
الحرمان، ولا أحتمل الهوان^(٩)». وكان يعاصره ويعاصر ابن الجند ابن خفاجة شاعر
الطبيعة المبدع الذي مرت ترجمته، وكما كان يبدع في وصفها شعرا كان يبدع في وصفها
نثرا، وله من رسالة يصف نزهة مع بعض رفاقه غِبَّ مطر^(١٠) :

«لما أكبَّ العَمَامُ إكْبَابًا، لم أجِدْ معه إغْبَابًا^(١١)، واتصل المطر اتصالا، لم أَلِفْ معه
انفصالا، أذن الله تعالى لِلصُّحُو أن يُطْلِعَ صَفْحَتَهُ، وينشر صَحِيفَتَهُ، ففَشَعَتِ الرِّيحُ
السحاب، كما طوى السجل الكتاب، وطفقت السماء تخلع جَلْبَابَهَا، والشمس تحط
نِقَابَهَا، وتطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تَحَلَّتْ، وقد تَجَلَّتْ، ذهبتُ في لُمةٍ من
الإخوان نستبق إلى الراحة رَكْضًا، ونَطْوِي للتفرُّج أَرْضًا، وننشر أَرْضًا، وتردُّدنا بتلك
الأباطح تنهادي^(١٢) تنهادي أغصانها، وتنضحك تضاحك أقحوانها، وللنسيم، أثناء ذلك

- | | |
|------------------------------|--------------------------------------|
| (١) الذخيرة ٦٧٠/٢. | (٧) رحم: قرابة. |
| (٢) ريا: شذى. | (٨) السحر: الرثة. النحر: أعلى الصدر. |
| (٣) صوادي: عطاش. | (٩) الذخيرة ٧٢٩/٢. |
| (٤) طلقه: شوطه. | (١٠) الذخيرة ٥٤٣/٣. |
| (٥) دسيعته: طبيعته وشيمه. | (١١) إغيابا: انقطاعا. |
| (٦) العقيلة: السيدة الكريمة. | (١٢) تنهادي: نتمايل. |

المنظر الوَسِيم، ترأسلُ مَسِي، على بساطِ وَشَى، وأَجَلْنَا النظرَ فى نهرِ صافى لُجِينِ^(١) الماء، كأنه مجرَّةُ السماء، مؤتلقِ جَوْهَرِ الحَبَابِ^(٢)، كأنه من ثغورِ الأحباب. وحضْرنا مُسْمِعٌ^(٣) يجرى مع النفوسِ لَطَافَةً فهو يعلم غرضها وهواها، ويعنى لها مُقْتَرَحَهَا وَمُنَاهَا:

يحرُّك - حين يَشْدُو - ساكناتٍ وَيَبْتَعُ الطَّبائِعَ لِلسُّكُونِ»

ولابن خفاجة - بجانب ذلك - رسائل في التهادى وفي العتاب وفي الشفاعة، وفي التهاني وفي التعازى، وهى مبثوثة بترجمته فى الذخيرة، وله يتفجع على شهيد بإحدى رسائله^(٤):

«قَمَرٌ فَضِّلَ سارَ إلى سِراره^(٥)، ووُسْطَى عَقْدٍ أخذ فى انتشاره، وصَباحَ جَدَلٍ^(٦) أسرع فى انطوائه، ومصباح أمل عَجَلٍ بانطفائه، فقبِحاَ لدنيا قَصَفْتَهُ أنضُرَ ما كان غُصْنا، وكَسَفْتَهُ أقمر^(٧) ما كان حسنا. وصار مفقودًا، كأن لم يكن مشهودًا، وَمَنْشُودًا^(٨) كأن لم يكن موجودًا. وقد وجدتُ لذلك وَجْدًا لا يسعه الصَّدْرُ، ولا يقاومه الصَّبْرُ، وأوارًا^(٩) لا تطويه أحناء الضلوع، ولا تُطْفئه أحساء^(١٠) الدموع. وكأن كل ذلك لما انقضى، فمضى، خيال ألم ثم تولى، وغمام أظل ثم تجلَّى».

ومن معاصرى ابن خفاجة أبو عبد الله بن أبى الخصال أهم الكتاب فى دواوين المرابطين بأخرة من أيامهم، وتحتفظ المجلدات الثامن والتاسع والرابع عشر من صبح الأعشى بطائفة من رسائله الشخصية بين شكر وتهنئة بقدم وتعازى فى وزير وبنت وأخ وزوجة وشفاعة ووصف لغيث بعد جذب وما أعقبه من تغنى الطيور فرحا بجمال الطبيعة وازديانها بروائع الأزهار من نرجس وغير نرجس، واحتفظ له ابن بسام بطائفة أخرى من رسائله فى ذخيرته، من بينها رسالتان وجَّهَ بها إلى ابن بسام ردًا على رسالة كان أرسلها إليه فى طلب بعض شعره ونثره ليضمته الذخيرة، وهو فى أولهما يعتذر عن تلبية طلبه فى تواضع جم إذ ليس له من الشعر والنثر - كما يقول - إلا ما يعد من سَقَطِ المتاع. ويبدو أن ابن بسام ألح عليه فى الطلب فاضطر أن يلبيه بقليل من شعره قائلًا إنه

- | | |
|--|------------------------|
| (١) اللجين: الفضة. | (٦) جدل: سرور. |
| (٢) الحباب: الفقاقيع تلمع فوق سطح الماء. | (٧) أقمر: أضوأ. |
| (٣) مسمع: مغن. | (٨) منشودا: مطلوبيا. |
| (٤) الذخيرة ٥٥٧/٣. | (٩) الأوار: حر النار. |
| (٥) السرار: آخر ليلة فى الشهر. | (١٠) أحساء هنا: يتابع. |

يربأ بقدر الذخيرة عن مثل هذه التنف الأخيرة، ويعتذر بأنه يخط ما خطه من هذا الشعر في ليلة قاسية البرد، ويمضى في تصويرها قائلاً^(١):

«إني خطلتُ والنوم مُغازل، والقرُّ مُنازل، والريِّحُ تلعب بالسَّراج، وتصول عليه
صَوْلَةُ الْحِجَّاجِ^(٢)، فَطَوْرًا تَسُدُّهُ سِنَانًا، وَتَارَةً تُحَرِّكُهُ لِسَانًا، وَأَوْنَةً تَطْوِيهِ حَبَابَةَ^(٣)،
وَأُخْرَى تَنْشُرُهُ نُؤَابَةَ، وَتَقِيمُهُ إِبْرَةَ لَهَبٍ، وَتَعَطْفُهُ بُرَّةَ ذَهَبٍ، أَوْ حُمَّةَ^(٤) عَقْرَبٍ، وَتَقْوِسُهُ
حَاجِبَ فَتَاةٍ، ذَاتَ غَمَزَاتٍ، وَتَسْتَلُّ رُوحَهُ مِنْ ذُبَالِهِ، وَتَعِيدُهُ إِلَى حَالِهِ، وَرَبِمَا نَصَبْتَهُ أذن
جَوَادٍ أَوْ مَسَخْتَهُ حَدَقَ^(٥) جَرَادٍ.. فَلَا حَظَّ مِنْهُ لِلْعَيْنِ، وَلَا هِدَايَةَ فِي الطَّرْسِ لِلْيَدَيْنِ،
وَاللَّيْلِ زَنْجِيَّ^(٦) الْأَدِيمِ تَبْرِيَّ^(٧) النُّجُومِ، قَدْ جَلَّلْنَا سَاجَهُ^(٨)، وَأَغْرَقْنَا أَمْوَاجَهُ، وَلَوْ
نَظَرْتَ فِيهِ الزَّرْقَاءَ^(٩) لَا كَتَحَلْتَ، أَوْ خُضِبْتَ بِهِ الشَّيْبَةَ لِمَا نَصَلَتْ^(١٠)، وَالْكَلْبُ قَدْ صَافَحَ
خَيْشُومَهُ ذَنْبَهُ، وَأَنْكَرَ الْبَيْتَ وَطُنْبَهُ^(١١)، وَالتَّوَى التَّوَاءَ الْحُبَابِ^(١٢)، وَاسْتَدَارَ اسْتِدَارَةَ
الْحُبَابِ، وَجَلَّدَهُ الْجَلِيدَ، وَضَرَبَهُ الضَّرْبِيبَ^(١٣)، وَصَعَّدَ أَنْفَاسَهُ الصَّعِيدَ^(١٤)، فَجَمَاهُ مَبَاحٍ،
وَلَا هَرِيرَ وَلَا نُبَاحٍ، وَالنَّارَ كَالصَّدِيقِ أَوْ كَالرَّحِيقِ^(١٥)، كِلَاهُمَا عِنَقَاءُ مُغْرِبٍ^(١٦)، أَوْ نَجْمٍ
مُغْرِبٍ».

والرسالة وصف شعري بديع لهذه الليلة من ليالى الشتاء الباردة بردا شديدا فى الأندلس والرياح تقصف، والليل داج معتم، والسراج تقبضه الريح وتبسطة، وقد يضيء ويستعرض، وقد يتضائل حتى يصبح إبرة أوبرة، وقد يستطيل حتى كأنه سنان أو لسان، وقد يتقوس حتى كأنه حاجب أو يتلوَّى كأنه عقرب. ويستمر ابن أبى الخصال فى وصف الليلة الباردة وما أضفى عليها من أخيلته الرائعة. وليستتم صورة بردها الشديد وصف كلبا مقرورا مدَّ عليه الثلج رواقه، حتى لم يعد يبصر طنْب بيته والتف ذنبه على خيشومه

- | | |
|---|---|
| (١) الذخيرة ٧٩٢/٣. | السواد. |
| (٢) يريد الحجاج الثقفى وفتكاته بأعدائه. | (٩) زرقاء اليمامة: اشتهرت بحدة نظرها. |
| (٣) حباية: فقاعة الماء. | (١٠) نصلت: بهتت. |
| (٤) البرة: الحلقة توضع فى أنف البعير، وبها شبه الكاتب لسان الشمعة. حمة العقرب: إبرته. | (١١) الطنب: الحبال تشد بها الخيمة والخباء. |
| (٥) أذن جواد أى مستعرضا مثلها. حدق جراد أى ضئلا كنقطة مداد. | (١٢) الحباب بالضم: الأفعى. وبالفتح: فقاقيع الماء. |
| (٦) زنجى الأديم: أسود الجلد. | (١٣) الضرب: الثلج. |
| (٧) تبرى: ذهبى. | (١٤) الصعيد: وجه الأرض. |
| (٨) جللنا: غطانا. الساج: شجر خشبه شديد | (١٥) الرحيق: الصافى من الخمر والشراب. |
| | (١٦) عنقاء مغرب: طائر خرافى. |

أواخر طومه، وتقرّص وتكوم كالأفعوان، وكاد يتجمد، فحشوا الجو من فوقه إبر من الثلج اللاسع، وأرضه قوارير من الجليد اللاذع، وجف ريقه في حلقة فلا هريير ولا نباح، ولا نار لمصطل، فالرياح العاصفة لها بالمرصاد حتى لكأنها الطائر الخرافي المسمى عنقاء مغرب.

وتمضى في عصر الموحدين، وولتقى فيه بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ المار ذكره بين شعراء الغزل والمدائح النبوية، وله من رسالة يهئ بها أبا القاسم بن بقى حين تولى خطة القضاة سنة ٥٩٢ وفيها يقول^(١):

«حُسْنُ الأيام وجمالها، ومآل الآمال وئمالها^(٢)، وبَصْرُ المعارف وسَمْعها، وواحدُ الفضائل وجمعها، أبو القاسم بن بقى بن مخلد، بُورِكَ في والدٍ وما ولد:

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصّباح عموداً

.. نفع الحقُّ به عِلَّه، ونفعُ غُلَّه^(٣) .. عمادى الأكرم، وملاذى الذى أنفخ من حدّه فى صَرَم^(٤)، وأحلّ من الاختصاص به محلّ الحرّم، تخيرتُ علاه ومن أخصّبَ تخيرٌ وما كنتُ إلا كالغريب ارتاد الجوار، والمحلّى انتقى المِعصَم حين صاغ السّوار.. والله - تعالى - يديم مدة قاضى الجماعة الأسرى^(٥)، وكَلِمَ حمده أسيرٌ من الأمثال وأسرى^(٦)، ونِعْمَ الله سبحانه عليه تترى، وما يريه من نعمة إلا هى أكبر من الأخرى». والتورية واضحة بين الأسرى وأسرى، وهى تكثر فى نثر الأندلس وشعرها منذ هذا التاريخ.

ولسهل بن مالك - بأخرة من عصر الموحدين - رسائل شخصية بديعة، وسنخسه بكلمة، ولأبى عبد الله بن الجنان المترجم له بين شعراء المدائح النبوية من رسالة يعزى بها أبناء سهل حين توفى استهلها بقصيدة أو بحرثية طويلة وفيها يقول^(٧):

«يال له حادثاً، جمع قديماً من الكروب وحادثاً، ومُصاباً، جرّع أوصاباً، وأضحى كلُّ به مُصاباً، لا جرم أنى شربت من كأسه مُستفظعها، وشَرِقتُ^(٨) بها وبدمعى الذى ارفضى^(٩) معها، فغالتُ خلدى، وغالبتُ جلدى، حتى غبتُ عنى، ولم أدر بألامى التى تعنى.

(١) بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة

تحقيق د. إحسان عباس ص ١٤١.

(٢) ثمالها: ملجأها.

(٣) نفع غلله: شفاه.

(٤) صرم: وقود النار.

(٥) الأسرى: الأشرف.

(٦) أسرى: أسير ليلاً.

(٧) بقية السفر الرابع المار آنفا ص ١١٥.

(٨) شرقت: غصبت.

(٩) ارفض: تفرق وتهد.

وبكيت حتى خشيت. البكاء أن يعشيني^(١)، وعشيت^(٢) إذ غشيني^(٣) من ذلك اليم^(٤) ما غشيني، «وظللت لقي^(٥) أينما شاء الترح يلقيني، فتارة يفيني، وتارة يبقيني.. ويا ليت شعري إذ أفادوا الماء طهارة زائدة بغسل جلاله، هل حنطوه بغير تائه أو كفتوه في غير جلاله، ويا ليت شعري إذ استقل به نعشه الأشرف، ترفرف عليه الملائكة ويظله الرفرف، هل رأوا قبله حمل الأطواد^(٦)، على الأعواد، وسير الكواكب في مثل تلك المواكب، ولم آثروا على نفوسهم، ورضوا الأرض مغربا لأنوار شمسهم؟ هلا حفروا له بين أحناء الضلوع، وجعلوا الصفيح صريح الحب والولوع.. وهب الله لكم في مصابكم صبيرا على قدره، وسكب ديم مغفرته على مئوى فقيدكم وقبره».

وأخذ الكتاب في الأندلس منذ القرن السابع الهجري على لسان أبي المطرف بن عميرة الذي ترجمنا له بين كتاب الدواوين وغيره يتصنعون في كتاباتهم بالماعات وإشارات إلى الأمثال وإلى مسائل العلوم ومصطلحاتها على نحو ما نقرأ من رسالة لأبي المطرف حين أعلمه صديق نبا استيلاء الروم على بلنسية، فقال متحسرا^(٧):

«بالله أي نحو ننحو، أو مسطور ثبت أو نمحو، وقد حذف الأصل والزائد، وذهبت الصلة والعائد.. وذهبت علامة الرفع، وفقدت نون الجمع، والمعتل أعدى الصحيح، والمثلث أزدى الفصيح.. ومالت قواعد الملة، وصرنا جمع القلة، وظهرت علامة الخفض، وجاء بدل الكل من البعض».

وواضح أنه استغل مصطلحات النحو استغلالا واسعا في التورية عما أراد من تصوير يؤس الأندلسيين إزاء ما يسقط من بلدانهم في حجر نصارى الإسبان، وأضاف إلى التوريات بمصطلحات النحو توريات ببعض كتب الأندلسيين، وأقصد كتابي الصلة والعائد وهما من كتب التراجم ومن مصطلحات النحو أيضا وأشار معها إلى تغلب المسيحي على العربي بكلمتي المثلث والفصيح موريا بها عن كتابين لغويين هما مثلث قطرب وفصيح ثعلب، ومعروف أن من أنواع البدل عند النحاة بدل الكل من البعض. وبجانب هذه الإشارات والإماعات إلى مصطلحات العلوم وكتبتها التي يحاكون بها تلمحا

(٥) لقي: مطروحا مهملا.

(٦) الأطواد: الجبال.

(٧) الإحاطة ١٧٣/١.

(١) يعشيني: يعميني البكاء.

(٢) عشيت: أغشى على.

(٣) غشيني: غطاني وحواني..

(٤) اليم: البحر يريد بحر الحزن.

أبا العلاء المعري في نثره وشعره على نحو ما أوضحنا ذلك عنه في كتابينا عن الفن ومذاهبه في الشعر والنثر العربيين. وأخذت تشيع في الرسائل مع المحسنات البديعية - وخاصة التورية - عقد يصعب بها الكتاب الممرات إلى صنع الرسائل، على نحو ما صنع المشاركة من ذلك منذ الحريري صاحب المقامات، إذ كان يلتزم في بعضها أن تكون كلماتها غير منقوطة أو تكون إحدى الكلمات منقوطة وتاليتها غير منقوطة. وكثير مثل ذلك عند المشاركة كما كثر أن يلتزم حرف بعينه في كلمات الرسالة أو كلمات العهد على نحو ما صنع ابن الجنان إذ التزم في عهد أن يكون السجع فيه جميعه حاء مع إردافها بالألف مثل صلاحا، فلاحا^(١). والتزم في رسالة له العين في جميع ألفاظها، ويقول ابن عبد الملك المراكشي إنها «شاعت في الأندلس، وتنقلت شرقا وغربا» وراجعه أبو الحسين الرعيني برسالة مماثلة، ورد عليه ابن الجنان أيضا برسالة على غرارها، مما دفع أبا المطرف بن عميرة أن يكتب إلى الرعيني برسالة نونية ملتزما النون في جميع كلماتها^(٢). ومن الحق أن كتاب الأندلس كانوا من البراعة في الكتابة بحيث كانت رسائلهم تسع هذا التصنع وما يشاكله دون أن يجبور على إبداعاتهم الأدبية وحيويتها النافذة بما كانت تتوهج به دائما من سجع ومحسنات وتصاوير رائعة مع العناية دائما بجمال الجرس وحسن الأداء. وظل ذلك ماثلا في كتابات الكتاب بغرناطة طوال إمارتها من أواسط القرن السابع الهجري إلى أن خرج منها العرب بأخرة من القرن التاسع، ويزخر كتاب الإحاطة بكثير من الرسائل الشخصية للكتاب الغرناطيين وفي مقدمتهم ابن الخطيب مؤلفه، وقد ختمه برسالتين راسل بهما ابن خلدون صديقه، واحتفظ ابن خلدون له بطائفة من رسائله إليه في كتابه «التعريف» وفي إحداها يرحب بمقدمه إلى غرناطة قائلا^(٣):

«لو خُيرتُ أيها الحبيب الذي زيارته الأمانةُ السنيةُ والعارفةُ الوارفةُ^(٤)، واللطيفة المُطيفة، بين رجوع الشباب يقطرُ ماء، ويرفُ نماء، ويغازل عيون الكواكب فضلا عن الكواكب إشارة وإيماء.. وبين قدومك لما اخترت الشباب وإن شاقني زمنه وأجرت سحاب دمعى دمنه^(٥)، فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي، وملكني أزمة آرابي» وكانت بينها مودة وثيقة، وأن أن نترجم لبعض كتاب الرسائل الشخصية المبدعين: حبيب وابن الدباغ وأبي عبد الرحمن بن طاهر وأبي القاسم بن الجدد وسهل بن مالك.

(٣) التعريف بابن خلدون ص ٨٢ وما بعدها.

(١) الإحاطة ٣٥٢/٢ - ٣٥٣.

(٤) العارفة: العطية. الوارفة: الواسعة المبهجة.

(٢) انظر في هذه الرسائل المراكشي (تحقيق د.

(٥) الدمن: آثار الديار، والاستعارة واضحة.

إحسان عباس) ٣٢٧/٥ وما بعدها.

هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد الملقب بحبيب، من أهل إشبيلية، كانت له ولأبيه قدم في الرياسة عند المعتضد أميرها، ولقبه الضبي بالوزير الكاتب، وقال فيه ابن بسام: «كان سديد سهم المقال، بعيد شأو الروية والارتجال.. ولو تحاماه صرف الدهر، وامتد به قليلا طَلَقُ^(٢) العمر، لسدَّ طريق الصباح، وغبَّر في وجوه الرياح، إذ توفي ابن اثنتين وعشرين سنة» وانفرد ابن سعيد بقوله إن المعتضد قتله، والراجح أنه توفي شابا معتبطاً بغير علة قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكان - كما يقول ابن الأبار - آية في الذكاء والفهم والبلاغة وتجويد الشعر على حدائثه. وله كتاب البديع في وصف الربيع جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة في الربيع ومشاهده وأزهاره ورياحينه، قال في فاتحته:

«فَصُلِّ الربيعَ آرَجُ وَأَبْهَجُ، وَأَنْسُ، وَأَنْفَسُ، وَأَبْدَعُ، وَأَرْفَعُ، من أن أَحَدَ حُسْنِ ذاته، وأعدُّ بديع صفاته.. وهو مع صفاته الرائقة، وسماته الشائقة، وآلانه الفائقة، لم يُعَنَّ بتأليفه أحد، ولا انفرد بتصنيفه منفرد».

وقد جمع حبيب في كتابه أروع ما للأندلسيين في وصف الربيع سواء ما نظموه فيه خاصة وما أودعوه مقدمات مدائحهم، وأضاف إلى ذلك بعض ما كتبوا فيه رسائلهم من وصف الأزهار، وأشاد برسالة ابن برد إلى أبي الوليد بن جمهور وما بثه من حوار فيها بين خمسة نواوير هي الورد والنرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيري النمام واعتراف النواوير الأخيرة بفضل الورد وكتابتها عهدا أو وثيقة بذلك على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع. وأردف حبيب رسالة ابن برد برسالته إلى المعتضد حاكاه فيها مفضلا البهار على الورد مع وصفه لسبعة من نواوير الربيع، وهو يستهل رسالته بإنكاره لتفضيل ابن برد الورد عليها في رسالته، يقول:

«أولُ من رأى ذلك الكتاب (رسالة ابن برد في تفضيل الورد) وعابن الخطاب، نواويرُ فصل الربيع التي هي جيرةُ الوَرْدِ في الوطن، وصحابته في الزمن، ولما قرأته

بيرييس طبع الرباط سنة ١٩٤٠. وطبع في السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيلان.
(٢) طلق: شوط.

(١) انظر في ترجمة حبيب الذخيرة ١٢٤/٢ والجدوة ١٥٢ والبقية رقم ٥٣٤ والتكملة (البقية الجديدة) ص ٢١٩ والمغرب ١/٢٥٠. وراجع كتابه: «البديع في وصف الربيع بتحقيق هنري

أنكرت ما فيه، وبنّت على هدم مبانيه، ونقض معانيه، وعرفت الورد بما عليه، فيما نسب إليه.. وكتبت إلي الأقبوان والخيري الأصفر كتابا قالت فيه: لا ندري لأي شيء أوجبت الأزهار تقديمه، بما غيرهُ أشكل له وأحق به وهو نور البهار، البادي فضله بدو النهار، والذي لم يزل عند علماء الشعراء، وحكماء البلغاء، مشبهاً بالعيون التي لا يحول نظرها، ولا يحور حورها، وأفضل تشبيه للورد، بنضرة الخد، عند من تشيع فيه، وأشرف الحواس العين، إذ هي على كل منول عون، وليس الخد حاسة، فكيف تبلغه رئاسة:

أين الخدود من العيون نفاسةً ورياسةً لولا القياس الفاسدُ

واستمر حبيب في هذه الرسالة طويلاً، وختمها بمبايعة الأزهار للبهار بتفضيله على الورد. وله من رسالة إلى أبيه:

«لما خلق الربيع من أخلاقك الغر، وسرق زهره من شيمك الزهر، حسن في كل عين منظره، وطاب في كل سمع خبره، وتاقت النفوس إلى الراحة فيه، ومالت إلى الإشراف على بعض ما يحتويه من النور الذي كسا الأرض حلالاً، لا يرى الناظر في أثنائها خلا، فكانها نجوم نشرت على الثرى، وقد ملئت مسكاً وعنبراً، إن تشمتها فأرجة، أو توسمتها فيهجة، تروق العيون أجناسها، وتحيى النفوس أنفاسها.. فأوجد لي سبيلاً إلى إعمال بصرى فيها، لأجلو بصيرتى بمحاسن نواحيها، فالنفوس تصدأ كما يصدأ الحديد، ومن أجمها^(١) فهو السديد الرشيد».

وواضح في الرسالة لطف الابن لأبيه، مع حسن تأتبه وجمال وصفه للربيع وشغفه بمشاهد نواويره البديعة. وله من رسالة إلى بعض إخوانه يستدعيه للمتعة معه والأنس به في منظر فاتن من مناظر الربيع، يقول:

«قد علم سيدى أن بمرآه يكمل جذلي، ويدنو أمني، وقد حلت محللاً عنى الجو بتحسينه، وانفرد الربيع بتحسينه، فكساه حلالاً من الأنوار، بها ينجلي صدأ البصائر والأبصار، فمن مكوم^(٢) يعقب مسكه، ولا يمنعه مسكه، ومن باد يروق مجتلاه، ويفوق مجتبا، في مرآه ورياه، فتفضل بالخفوف^(٣) نحوى لنجدد من الأنس مغاني^(٤) درست،

(١) أجمها: أراحها.

(٣) الخفوف: الإسراع.

(٢) مكوم: أى زهر مستور فى كنه.

(٤) مغاني: منازل. درست: عفت وذهب أثرها.

ونفك من السرور معاني أشكلت وألبست،^(١) ونشكر للربيع، ما أرانا من البديع»
والرسالة كسابقتها جمال صياغة وحسن أداء، وهي تصور - مثلها - تعلقه بالطبيعة
في أعيادها وأعراسها أيام الربيع، مما جعله يصنف فيه كتابه «البديع» متنقلا بين مشاهد
وأزهاره ونواويره وما صاغ فيها هو وشعراء موطنه من أوصاف رائعة.

ابن^(٢) الدباغ

هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ الوزير الكاتب، نشأ
بسرقةسطة، وعمل بدواوينها وقرّبه المقتدر بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) حتى أصبح
من وزرائه، وأحس منه جفوة، وخشى أن يسطو به ويبطش، فخرج عنه، ونزل
بالمعتمد بن عباد في إشبيلية، فأجزل قراه، وخصه بحظ من دنياه، وجعله مكان سره
ونجواه. وسفر بينه وبين المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس حين كان ببائيرة.
وحدثت مشادة بينه وبين ابن عمار قرينه في وزارة المعتمد، وبلغه أنه قدح فيه بمجلس
المعتمد، وخشى مغبة ذلك، فلحق بالمتوكل أمير بطليوس فرحب به، ويبدو أنه لم يكن
موطأ الكنف في العشرة، إذ لم يلبث أن فسد ما بينه وبين وزير المتوكل أبي عبدالله بن
أمين، واشتعلت بينها نار ملاً الأفق شعاعها، وأخذ بأعنان السماء - كما يقول ابن
بسام - ارتفاعها، فكرر راجعا إلى سرقةسطة، وبعد فترة قليلة قتل ببستان من بساتينها.

ويبدو أن ابن الدباغ كان شديد الضجر بالناس كثير الظنون بهم أو قل سيئ
الظنون، فنيا به مقامه عند المقتدر بن هود ثم عند المعتمد والمتوكل بن الأفطس، وربما
دفعه إلى ذلك تشاؤم شديد جُبلت عليه نفسه. وهو من كتاب عصر أمراء الطوائف
الناجيين، وفيه يقول ابن بسام: «فيما انتخبته من نظمه ونثره ما يشهد بفضله، ويدل على
نبله». ومضى ابن بسام يعرض طرائف من رسائله امتدت إلى نحو ستين صحيفة، جميعها
عُرر ودُرر، وأكثرها في ذم الزمان ومعاصريه وتعذر أماله فيه، من ذلك قوله في بعض
رسائله:

«كنايى وعندى من الدهر ما يهدُ أيسرهُ الرُؤاسي، ويفتت الحجرَ القاسي.. ومن
أقلها قلبُ محاسنى مساوى، وأولياتى أعادى، وقصدى بالبِغضة من جهة المِقة^(٣)،

(١) أشكلت وألبست: اشتبهت وانبهت. (قسم شعراء المغرب والأندلس - طبع الدار
التونسية) ٢٥١/٣ ٣٨٧/٣
(٢) انظر في ترجمة ابن الدباغ الذخيرة ٢٥١/٣ (٢) المقة: المحبة.
والقلائد ص ١٠٦ والمغرب ٤٤٠/٢ والحريدة

واعتمادى بالخيانة من حيث الثقة.. وقد غيّر علىّ حتى شرابى، وأوحشنى حتى ثيابى،
 فها أنا أتهم عياني، وأستريّب من بياني، وأجنى الإساءة من غرس إحسانى..
 وما أصنع؟ وقد أبى القضاء إلا أن أقضى عمرى فى بوس ولا أنفك من نحوس..
 لست أشكو إلا زمانى وقعوده بجدى^(١)، وقبيح آثاره عندى، يخضنى بمزية جرمان،
 ويتوخانى بفضلة عدوان، ويجعلنى نصب سعيه، وغرض رميّه، ومكان أذابته وبغيه..
 ما أجد إلا من يثلب، ولا أمر إلا بمن يتجهّم ويقطب.. وسبحان من جعل الدنيا دار
 كرب ومحنة، لكل ذى لبّ وفطنة، ومقام تنعم وترف، لكل ذى خسة ونطف^(٢).. وما أظن
 أن لدجى حالى انبلاجا، ولا لكربة نفسى انفراجا، ولا إخال غمرات الهمّ تنجلي،
 ولا مددّ النحوس تنقضى، ومن كانت له من الدنيا حظوة يصطفىها، ومكانة يستقر فيها،
 فليس لى منها إلا أن أرى كيف تنقسم ربّها وتتناوب، وتتنازع نعمها وتجادب، وتعتّم
 فوائدها وتتناهب، حتى كأنى جئت على العدد زائدا، ولم أكن عند القسمة شاهدا،
 وما أقول هذا قول ساخط، ولا أياس من رحمة الله يأس قانط، ولكن ربما استراح
 العليل فى أنه، واستغاث المتوجع إلى رنة^(٣)، وخفف عن المصدر نفت^(٤)، ونفس من
 وجد المكروب بث^(٥)..»

من يطيل فى مثل ذلك صادرا عن قريحة أدبية خصبة، وكأما سيول الكلام العذب تفد
 من كل صوب، وهو يختار أسلأ الألفاظ وأحلاها فى الجريان على الألسنة
 ومصافحة الأسعاع والقلوب، مما يصور براعة أدبية حقيقية، إذ يتع دائما بألفاظه
 الألسنة والآذان والأذهان. وله من تهنته:

«قد كنت - أعزك الله - متمنيا لهذه الأيام، كما يتمنى فى المحل^(٦) صوب الغمام،
 ومنتظرا لظهورك فيها، كانتظار النفس أعذب أمانياها، ولما أطلعت ثلاثيها السعود،
 واستمر بك الارتقاء والصعود، قلت لنفسى بشارك، أسعفك الدهر بمنالك، وسرك فى
 بعض أعزتك وأرضاك، وأذنى فى الإصغاء، إلى ما يطرأ من الأنباء، وكلما قيل فرع^(٧)
 من الجاه ذروة، واستجد من العز كسوة، سرت العزة فى خلدى^(٨)، وطالت^(٩) على
 النوب يدي»

(١) جدى: حظى.

(٢) نطف: عيب.

(٣) رنة: صيحة.

(٤) فرع: علا.

(٥) نفثة المصدر: ما يخفف به عن صدره

(٦) المحل: الجذب.

(٧) الحفلة: البال والفكر.

(٨) طالت: غلبت وتفوقت.

(٩) المريض.

وهذا البيان الخلاب لانزال نقرأ في رسائل ابن الدباغ معجبين، ونأسى لمصيره، وكان حريا بأحد الثلاثة: المقتدر بن هود والمعتمد بن عباد والمتوكل بن الألفس أن يرفق به ويعرف له فضله ومنزلته الأدبية الرفيعة، فيقبله من أضرار تشاؤمه وعثرات بؤسه بما يُسدل عليه من صفو الحياة ورخاء العيش، مما يبذل قنوطه من معاصريه رجاء ويأسه منهم أملا وخوفه ثقة واطمئنانا، غير أن أحدا منهم لم يحاول إنقاذه من محنته، بل جميعهم تركوه يتجرع غُصَصَ الضُّيم والحُرمان في غير شفقة ولا رأفة.

أبو^(١) عبد الرحمن بن طاهر

هو أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر، من بيت ثراء وشرف وفضل بمدينة مرسية في شرقي الأندلس، وهو بيت كان ينتمي إلى قبيلة قيس بن عيلان في الجزيرة، وكان يعتز بقيسيته وعرويته. ولما انتثرت الأندلس وتوزعت بلدانها بأيدي أمراء الطوائف دعا أبوه أحمد بن طاهر لنفسه في بلدته مرسية، فاجتمع أهلها على طاعته، وازدهر إقليم أهلها بجميل سيرته. وكان قد رُزق بابنه أبي عبد الرحمن محمد حوالي سنة ٤٢٠ للهجرة، وشبُّ فأعان أباه في حكمه إلى أن توفي سنة ٤٥٥ فخلفه على مرسية، وانتهج سيرته، فاستقام له حكم أهلها، وكأنهم لم يفقدوا أباه. وكان من أهل العلم والأدب البارح إذ عنى أبوه بتربيته، وكان يتقدم أمراء الطوائف في بلاغة الكتابة، وكانت رسائله متداولة لما تتميز به من حسن الأداء، ولابن بسام تأليف خصها به سها «سلك الجواهر من ترسل ابن طاهر» وترجم له في الذخيرة ترجمة ضافية.

وكان ابن طاهر جوادا ممدحا، ينتجعه الشعراء والأدباء فيجزل لهم العطاء، وانتجعه ابن عمار الذي مرت ترجمته بين الشعراء أيام خموله، فرحب به وأكرمه، وجزاه على إكرامه وترحيبه جزاء سنأر، إذ عرف في مقامه بضيافته ضعف جنده وعورات بلده، فلما تطورت به الظروف، وأصبح وزيرا ومستشارا للمعتمد بن عباد أمير إشبيلية زين له الاستيلاء من يد ابن طاهر على مرسية، وما زال يُغريه بفتحها وأن ذلك لن يكلفه مئونة كبيرة حتى استجاب وأعدَّ له جيشا جرارا لفتحها، وفي طريقه إليها اتخذ قائدا لعسكره عبد الرحمن بن رشيق، ولم يلبث أن انتزعها من يد ابن طاهر سنة ٤٧١ وزجَّ به في سجن

والحلة السيراء ١١٦/٢ والذيل والتكملة للمراكشي ٥٩٠/٥ والخريدة ٣٦٣/٣ وأعال الأعلام لابن الخطيب ٢٣٢.

(١) انظر في ترجمة أبي عبد الرحمن بن طاهر للذخيرة ٢٤/٣ - ١٠٣ والقلائد: ٥٨ والمغرب ٢٤٧/٢ وبغية الملتبس رقم ٢٣ والمعجب ١٨٠

بحصن قريب من مرسية يسمى «مَنْتْ أقوط» وسوّلت له نفسه أن يخلع ولاءه للمعتمد ويستقل بمرسية، فسُلط عليه قائده عبدالرحمن بن رشيق، فاستخلصها منه. وتوسط لديه أبو بكر بن عبد العزيز الوزيز ببلنسية، كى يرد إلى ابن طاهر حرّيته، فردّها عليه. وعاش ابن طاهر بقية حياته ببلنسية مبيّجاً معزّزاً، وشهد محنة المسلمين بها سنة ٤٨٧ على يد الفارس الإسباني المغامر السيد الكنييطور، ووقع - بعد بلاء مرور فى حربيه - بأسره، وافتدى وأطلق سراحه، ولم يبرح بلنسية إلى أن استردها المرابطون سنة ٤٩٥. ومدّه له فى البقاء إلى أن توفى ببلنسية سنة ٥٠٨ للهجرة.

وهذه الحياة الطويلة التى امتدت باين طاهر إلى نحو تسعين عاما أمضى منها فترة معاوننا لأبيه فى حكم مرسية وفترة ثانية فى حكمها وفترة ثالثة قصيرة معتقلا ثم فترة طويلة ببلنسية معززا موقّرا. وهذه الحياة المديدة أتاحت له أن تتكاثر المكاتبات بينه وبين أمراء الطوائف، يخطبون وداذه، وهو تارة يثنى ويشكر، وتارة يعاتب أو يشفع أوبعزى أويهنّى، وقد اهتزّ هزة عنيفة لأوائل حكمه مرسية حين نكل النورمانديون بأهل بريشتر فى الشمال الشرقى لسرقسطة سنة ٤٥٦ وأنزلوا بهم مذبحه - كما مرّ بنا - تقشعر لهولها الأبدان وسبوا منهم خمسة آلاف من النساء والعذارى وباعوهم فى الأسواق بيع الإماء، وما إن علم بذلك حتى ضاقت به الأرض بما رحبت، وأخذ يكتب لأقرانه كى يكيلوا للعدو الغاشم الصاع صاعين، ومن قوله فى وصف هذا الحادث المروّع:

«خطب أطار الألباب، وطأطأ الرقاب، وقطع الآمال والهمم، وأسلم من الذلّة والقلّة إلى ما قصم، فما شئت من دمع مسفوح مُراقى، ونفسٍ متردّدة بين لهاة وترّاقى^(١)، وأسى قد قرع حُصيّات القلوب فرَضُها^(٢)، وعدل عن المضاجع بالجنوب فأفضها^(٣)». ويقول من رسالة أخرى مستنفرا للجهاد:

«ليندب الإسلام نادب، وليبّك له شاهدٌ وغائب، فقد طَفئى مصباحه، ووَطئى ساحه، وقصّ جناحه، وهيض^(٤) عَضُدُه، وغَيْضَ نَمُدُه^(٥)، إلى الله نَفْرَعُ، وإليه نَضْرَعُ، فى طارق الخطب ومُنتابه، ولا حول ولا قوة إلا به، فهو كاشفُ الكروب، وناصرُ المحروب». «

(١) التراقى: جمع ترقوة: أعلى الصدر. اللهاة:

(٢) أفضها: جعلها لا تريح النائم بجنبه فيها.

(٤) هيض: تحطم.

(٥) غيض نمده: جف ماؤه القليل.

أقصى سقف الخلق.

(٢) رضها: دقها.

وحين رُدَّت إليه حريته وأُطلق من معتقله بفضل وساطة أبي بكر بن عبد العزيز الوزير بيلنسية واستجاب إلى رغبته في المقام عنده كتب وهو في طريقه إليه رسالة يقول في فصل منها:

« كتابي وقد طَفَلَ^(١) العَشِيُّ، وسأل بنا إليك المَطِيُّ^(٢)، ولها من ذكرك حادٍ، ومن لُقياك هادٍ، وسنوافيك المساء، ونَغْتَفِرُ للزمان ما قد أساء، ونَرِدُ ساحةَ الأمان، ونشكر عظيمَ ذلك المَنِّ، فهذه النفس أنت مُقِيلها^(٣)، وفي بَرْدِ ظِلِّكَ يكون مَقِيلها^(٤)، فله مجدك وما تأتيه، لازلت للوفاء تُحْيِيهِ وتَحْوِيهِ»

وكانت في ابن طاهر دعاية لم تفارقه حتى في أيام محنته بالاعتقال، وله في ذلك - كما يقول ابن بسام - عدة نوادر أحر من الجمر وأدمغ من الصخر، ويروى منها أن ابن أخت لعبد الرحمن بن رشيق كان ذا لحية طويلة، وطلعة ثقيلة، وقف عليه يوما في اعتقاله، فجعل يتفجع له ويتوجع، ويتملق معه ويتصنع، فقال له ابن طاهر: خلاصي بيدك إن شئت، فإنك لو أخرجتني في لحيتك لتخلصت ولم يرنى أحد. وكتب إليه رجل يتزهد، وأطال الوعظ ورُدَّد، وهو يعرف أنه على الضد من وعظه، فأجابه:

«ورد كتابك فوعظ وذكَّر، ونصح فبَصَّر، ونَبَّه من سِنَةِ الغفلة، واغترار المُهْملة، وحذَّر من يوم الندامة، وبعث يوم القيامة، فبرحمك الله من هادٍ، وخائف معادٍ، ومبتغى إرشادٍ، وداعٍ إلى صلاح وسداد، لقد حرَّكت أنفُسًا قاسية، وهزرت جندلةً راسية، ومَعُولك دونها نابٍ، لا يؤثر فيها يظفرٍ ولا نابٍ»

ودائما يسيل الكلام على لسان ابن طاهر في خفة ورشاقة وعدوبة، وفي الذخيرة من ذلك بدائع وروائع يقول ابن بسام بعقبها: «أبو عبد الرحمن أكثر إحسانا، وقد وهب الطروس من ألقاظه ما يفيض العقود الدرِّيَّة، وتُعَسِّس^(٥) معه الليالي البُدْرية».

(٣) مُقِيلها: منحَّيها أي عما كانت فيه من اعتقال.

(٤) مَقِيلها: مكان راحتها.

(٥) تُعَسِّس: تظلم.

(١) طفل العشي: مال للغروب العشي وهو آخر

النهار.

(٢) المطي: الإبل.

أبو القاسم بن الجد^(١)

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهرى، من أسرة بنى الجد، من بيوتات لُبلة غربى إشبيلية وإشبيلية نفسها، وفي كتاب المغرب ترجمات لغير فقيه وأديب من هذه الأسرة، وقد أكَبَّ في نشأته على كتب الفقه والحديث والأدب، وأخذ اسمه يلمع بين أقرانه في إشبيلية، فاختاره المعتمد بن عباد أميرها وزيراً لابنه الراضى حين ولّاه مدينة الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب، وظل معه حين ولّاه مدينة رُنْدَة غربى مالقة إلى أن استنزله منها المرابطون سنة ٤٨٤م وفتكوا به. وعاد أبو القاسم إلى بلدته: لُبلة فولّوه خَطَّة الشورى ومقاليد الفتوى، وهو مع ذلك يساجل إخوانه ويراسلهم ويخطب مودتهم، وخاصة أبا بكر بن القصيرة رئيس الديوان براكش منذ سنة ٤٨٧م ليوسف بن تاشفين ثم لابنه على. ويبدو أن ابن القصيرة استدعاه ليعمل معه في هذا الديوان، ولا نعرف تاريخ هذا الاستدعاء، وأكبر الظن أنه استدعاه منذ عهد يوسف بن تاشفين حتى إذا توفي ابن القصيرة سنة ٥٠٨م أسندت إلى ابن الجد رياسة الديوان براكش إلى أن توفي سنة ٥١٥ للهجرة.

وقد استهل ابن بسام ترجمته بقوله: «قريع^(٢) وقتنا، وواحد عصرنا، ممن استمرى^(٣) أخلاف النظم والنثر، فدرت له بالبيان أو بالسحر.. ورؤيدك حتى ترى الصبح كيف يُسفر، وثبج^(٤) البحر كيف يزخر. وهو على نباهة الذكر، وعلو القدر، وشرف المحل من فهر^(٥)». وتلا ابن بسام ذلك بطائفة من رسائله، ونقرأ من بينها رسالة كتب بها إلى صديقه رئيس دواوين المرابطين: ابن القصيرة، وقد تصادف أن كان على مسافة قريبة منه، ولم يتفق لهما لقاء، وفيها يقول:

«لم أزل - أعزك الله - أستنزل قربك براحة الوهم، من ساحة النجم، وأنصب لك شرك المنى، فى خلس الكرى. وما ظنك بى وقد نزلت على مسافة يوم، وطالما نفر عن

(١) انظر في ترجمة أبى القاسم بن الجد الذخيرة ٢٨٥/٢، ٣٤٧ والصلة ص ٥١٦ والمطرب ص ١٩٠ والمعجب ص ٢٣٧ والقلائد ١٠٩ والذيل والتكملة للمراكشى ٢٢٦/٦ والمغرب ٣٤١/١ والحريدة ٣٩٣/٢ وإحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعى ص ١٨٥.

(٢) قريع: سيد.

(٣) استمرى أخلاف النظم: احتلب ضرعه.

(٤) ثبج البحر: وسطه.

(٥) فهر: قبيلة قرشية.

خيالى نوم، ودنوت حتى هممت بالسلام، وقد كان من خُدع الأحلام.. وما كان على الأيام لو غفلت قليلا، حتى أشفى بلقائك غليلا.. ولئن أقعدتني بعوائقها عن لقاء حر، وقضاءٍ برٍّ فما تحيَّفتُ (تنقصت) ودادى، ولا ارتشفت مدادى، ولا غاضت (نقصت) كلامى، ولا أَحَفَّتُ (استأصلت) أقلامى، وفي الكتاب بُلغَة الوطر، وُستدَلَّ على العين بالأثر.. وإن فرغتَ للمراجعة ولو يحرف، أو لمحة طرف، وصلتَ صديقا، وبَلَّتَ ريقا، وأسديتَ يدا، وشفيتَ صدَى (عطشا)، لا زالت أياديك بيضا، وجاهك عريضا، ولياليك أسحارا، ومساعيك أنوارا».

ويبدو أنه كتب لابن القصيرة هذه الرسالة حين كان يتولى ديوان الإنشاء بمراكش للمرابطين، وقد تولاه منذ سنة ٤٨٧ كما أسلفنا حتى وفاته سنة ٥٠٨ ونراه فيها يشير - من طرف خفى - إلى تمنييه أن يستدعيه صديقه للعمل معه في ذلك الديوان، ولا تحفى سطور الرسالة مراده وأنه يأمل لو ردَّ عليه بكتاب يحقق له أمنيته. وقد صاغ الرسالة صياغة بديعة، مع لطف الأخيلة ودقة المعاني ومع حسن الأداء. ولانلبث أن نقرأ له رسالة في وصف مطر بعد جذب شديد، وفيها يقول:

«لما استرابتُ حياضَ الوهاد، بعهود العهاد^(١)، وتأهَّبتُ رياضَ النَّجاد، لبرود الحداد، وأكثَحَلتُ أجفانَ الأزهار، بإئيمد^(٢) النَّقعِ المنار، وتعطلتُ الأنوار، من حُلِيّ الدِّيمة المِدرار، أرسل الله تعالى بين يَدَي رحمته رِيحًا بليلةَ الجناح، سريعة الإلقاح، فنظمتُ عقودَ السُّحاب، نظَمَ السُّخاب^(٣)، ولم تلبث أن انتهك رُواقها^(٤)، وأنتبكَ^(٥) وشيكا نطاقها، وانبرت مدامعها تبكي بأجفان المشتاق، غداةَ الفراق، فاستغربت^(٦) الرياض ضحكا بيكائها، واهتزت رُفات^(٧) النَّباتِ طربًا لتغريد مُكَّانها^(٨)، فيا برِّدَ موقعها على القلوب والأكباد، ويا خلوص رِيَّها إلى غُللِ النفوس الصَّواد^(٩)، كأنما استعارت أنفاسَ الأحباب، أو ترشَّفت رُضابًا^(١٠) من الثنايا العذاب، أو تحملت ماء الوصال، أو

-
- (١) العهد: المطر.
 (٢) إئيمد: كحل. النَّقع: الغبار.
 (٣) السحاب: القلادة من الأزهار.
 (٤) الرواق: مقدم البيت.
 (٥) أنتبكَ: انقطع.
 (٦) استغربت في الضحك: بالغ فيه.
 (٧) رفات: حطام.
 (٨) المكاء: طائر له تغريد حسن.
 (٩) رها: شربها حتى الامتلاء. الغلل: جمع غلة: شدة العطش الصوادى. العطشى.
 (١٠) الرضاب: الريق المرشوف.

سَرَتْ عَلَى أَنْدَاءِ الْأَسْحَارِ وَرِيحَانِ الْأَصَالِ. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا انْسَكَبَ قَطْرًا،
وَأَنْصَدَعَ فَجْرًا، وَتَوَقَّدَ قَبَسًا، وَتَرَدَّدَ نَفْسًا.»

ولعل صوت ابن الجد اتضح، فهو صوت يفيض بألحان عذبة يأخذ بعضها بتلايبب
بعض لما تتميز به من عذوبة ورشاقة، وهو صوت يتخايل أو يتجسد في تصاوير متتابعة،
فيمتع النفس بِنَغَمَاتِهِ وَأَخِيلَتِهِ الْبَدِيعَةِ. وله من رسالة يخطب فيها وداد أديب وأخوته:

«إن كانت المداخلة بيننا لم يُفْتَحْ لها باب، ولا علقنا بها أسباب، ولا رُمِيَ لنا في
مَحْصَبِهَا^(١) حِجَارًا، وَلَا عَطَفَ بنا نحو كعبتها اعتبارًا، فقد جمعنا في معرف^(٢) المعرفة معارف،
وَضُمْنَا من معالم العلم معاهد ومآلف، ووشجت^(٣) بيننا من أواصر الأدب أنساب،
وَضْرِبَتْ علينا في مدارج الطلب قِيَابًا، ولا غرو من تداني القلوب على تنائي الديار،
واتتلاف النفوس مع اختلاف النجار^(٤)، فربما أَلَفَ تشاكل الشيم والأخلاق، بين مستوطن
الشام وساكن العراق. على أنى لا أدعي رتبتك في فنون العلم والآداب، ومن يضاهاى محل
الفرقد^(٥)، بنبت الفرقد، لكنى وإن لم أعد في رعيك، فعندى من بضائع الكلم ما ينفق في
سوقك، بقيت حلية للدهر فائقة، وغرة في وجد الزمن رائقة.»

وعذوبة الكلم وحلاوة الصوت وسلاسة الجرس ونعمته، كل ذلك تفرق الآذان في
أنغامه مع ما يسوق من أطياف وخيالات رائعة. وكان فيه ميل إلى الدعابة، مما جعله
يعارض أبا الحسين بن سراج في رقعة التي مرت بنا والتي شفع فيها عند بعض ذوى
الجاه والثراء لرجل يسمى الزرير مستعيرًا له بعض الصفات المتصلة بالطيور كالريش
والعش والشكير والتحسير، وعلى غرار رقعة ابن سراج يقول في رقعته:

«لئن سُمِّيَ بِالزُّرَيْرِ، لَقَدْ صُغِرَ لِلتَّكْبِيرِ، ولما طار ببلاد الغرب ووقع، وزقًا فى
أكنافها وصقع^(٦)، وعاین ما اتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون، فى تلك البطون،
والمتون، ولم يجد بها قرارًا، أزمع عنها فرارا. واستخفه هائج التذكار، نحو تلك الأوكار،

(٥) الفرقد: النجم القطبي: الفرقد شجر قصير

قروعه شائكة.

(٦) زقا: صاح. صقع: ذهب في كل وجه.

(١) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى.

(٢) المعرفة: الموقف بعرفات، والاستعارة واضحة.

(٣) وشجت: تشابكت.

(٤) النجار: الأصل والحسي.

حيث يكسى ريشه حريرا، ويحتشى جوفه بريرا^(١)، ويحتسى قراحا نميرا^(٢)، فخذه إليك، نازلا لديك، مائلا بين يديك، يترنم بالثناء، ترنم الذباب فى الروضة الغناء. ولن يعدم فى جنابك حبا نثيرا، وخصبًا كثيرا، وعشا وثيرا^(٣)».

والدعابة لطيفة والصياغة بديعة، ويقول ابن بسام فى ختام ترجمته له إن كلامه أبهى من النجوم وأبهى، وأسرى من النسيم وأسير» لما يشيع به من صياغة تأخذ بمجامع القلوب

سهل^(٤) بن مالك

هو سهل بن محمد بن سهل بن مالك الأزدي، من أسرة علمية غرناطية ذات جاه وثناء، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى: «كان من أعيان مصره وأفاضل عصره تفننا فى العلوم وبراعة فى المنثور والمنظوم، محدثا مجودا للقرآن متقدما فى العربية، وافر النصب من الفقه وأصوله، كاتبا مجيد النظم فى معرب الكلام وهزله ظريف الدعابة مليح التندير» ويقول ابن سعيد فى القدح المعلى: «لو لم تأت غرناطة إلا بهذا الجليل المقدار، لكان حسبها فى العلم والجود والرياسة وجميع أنواع الافتخار، وبرع فى العلوم الحديثة والقديمة وبلغ بين نظرائه مبلغ الكمال»، وصنف فى العربية كتابا مفيدا رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيبويه، وله تعليقات نافعة على كتاب المستصفى فى الأصول للغزالي.

ولما تار محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل بمدينة مرسية سنة ٦٢٥ وملك قرطبة وإشبيلية وغرناطة بلغه أن سهل بن مالك يتندر به وبرجاله، وكان مطبوعا على النادرة ظريفا خفيف الروح، ولكن ابن هود لم يحتمله فغربه عن غرناطة ببلدته إلى مدينة مرسية، وظل بها حتى توفى ابن هود سنة ٦٣٥ وصارت غرناطة إلى الغالب بالله محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس دولة بنى نصر أو بنى الأحمر فى غرناطة فعاد إليها، وظل فى جاه بها وبلوغ أمنية حتى توفى سنة ٦٣٩ للهجرة عن سن عالية وراثه تلميذه ابن الجنان رثاء حارا.

وكان سهل شاعرا كما كان ناثرا، ونثره يبذ شعره ويدل على عمق فكره واصطباغه

ابن الأبارص ٧١٢ واختصار القدح المعلى لابن سعيد ص ٦٠ وزاد المسافر رقم ٢٣ وابن فرحون والنيل والتكملة للمراكشى (بقية السفر الرابع) ص ١٠١ والإحاطة ٢٧٧/٤.

(١) البرير: ثمر الأراك.

(٢) يحتسى: يتجرع. قراحا نميرا: ماء صافيا زاكيا.

(٣) وثيرا: وطنينا.

(٤) انظر فى ترجمة سهل بن مالك-التكملة لتلميذه

بأصباغ الفلسفة. وكان من تلاميذ ابن رشد، وعنه أخذ العلوم القديمة، وكان شديد الشغف به والإعجاب بفلسفته وفكره، فلما توفي سنة ٥٩٥ أظلمت الدنيا في عينيه وكأنما طعن في كبده فأمسك بالقلم وكتب إلى بنيه يعزهم - وقد حَزَّ في نفسه الجزع وعَضُّها الوجع - تعزية ملتاع أَضْرَمَت اللوعة ناراً في قَوَّاده، وفيها يقول:

«لا أقول كفى ولا أستشعر صَبْرًا، وقد أُسْكِن نورُ العِلْمِ قَبْرًا، بل أُغْرِقُ الأَجْفَانِ بِمَائِهَا، وَأَسْتَوْهَبُ الأَشْجَانَ غَمْرَةً^(١) غَمَّائِهَا، وَأَتَهَالِكُ تَهَالِكُ المَجْنُونِ، وَأَسْتَجِيرُ مِنَ الحَيَاةِ بِرَيْبِ المَنْوَنِ، وَأَنَافِرُ السَّلْوِ مَنَافِرَةَ اليَقِينِ لوساوس الظنون. وهو الخطبُ الذي نَفَى الهَجُودَ^(٢)، وَأَلْزَمَ أَعْيُنَ التَّقْلِينِ أَنْ تَجُودَ، وَبِهِ أَعْظَمُ الدهرُ المَصَابِ، وَفِيهِ أَخْطَأُ سَهْمَ المَنِيَةِ حِينَ أَصَابَ، وَالدَّهْرُ يَسْتَرْجِعُ مَا وَهَبَ، كَانَ الصُّفْرُ^(٣) أَوْ الذَّهَبُ، وَلَا غُرُو أَنْ دَهَمَ^(٤) الرُّزْمُ، يُؤُودُ^(٥) الفَلَكُ الدَّائِرُ مِنْهُ الحِزْمُ.. وَإِنَّا لِلَّهِ لَفِظَةٌ أُولِيهَا، وَأَتَّبِعَهَا زَفْرَةٌ تَلِيهَا، وَلَقَدْ بَحِثْتُ الأَيَّامَ عَنْ حَتْفِهَا بِظُلْفِهَا، وَسَعَتْ عَلَيَّ قَدَمُهَا إِلَى رَعْمِ أَنْفِهَا، حِينَ أَتَلَّفْتُ الوَاحِدَ يَزْنَ مَائَةَ أَلْفِهَا، فَمَنْ لَبِثَ الوَاصِلِ وَلِرَعَى الوَسَائِلِ^(٦)؟ وَإِلَى مَنْ يُلْجَأُ فِي مُشْكَلاتِ المَسَائِلِ؟ وَمَنْ المَجِيبُ إِذَا لَمْ يَكُنِ المَسْئُولُ بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ؟ اللّهُمَّ صَبِّرْنَا عَلَى قَدِّ الأَنْسِ بِالعِلْمِ، وَأِدْلِنَا^(٧) مِنْ خُفُوفِ الوَلِيهِ بِوَقَارِ الحِلْمِ، وَأَخْلِفْهُ فِي بَنِيهِ وَعَامَةِ أَهْلِيهِ بِشَيْبِهِ، مَا أُولِيَتَهُ فِي جِوَارِكِ المَقْدَسِ وَتُولِيَهُ»

والتعزية طويلة، وجميعها - على هذا النحو - توجع وتفجع لهذا الرزء الفادح الذي نزل بالأندلس لفقد فيلسوفها العظيم منقطع القرين: ابن رشد. وكتب صديق لسهل يعزيه عن محنته بنفيه إلى مرسية وغربته، فردَّ عليه برسالة يقول فيها:

«أنا أستوهبُ لك أيها الشيخُ الأَخُ الجليلُ عافيةً لا تَعْفُو^(٨) بِاللُّسْنِ الحُسَادَ، وَلَا تَعْفُو^(٩) مَوَادِّهَا أَعْيُنُ السَّعَاةِ البِغَاةِ الَّذِينَ مَا لَهُمْ مَقْعَدٌ إِلَّا بِالمَرْصَادِ، وَأَتْنِي عَلَى كَرَمِ طِبَاعِكَ بِوَصُولِ رِسَالَتِكَ الَّتِي طَلَعَتْ عَلَيَّ لَيْلَى البَهِيمِ^(١٠) صَبَاحًا، وَأَدَارَتْ عَلَيَّ مِنْ التَّسْلَى وَالتَّعَزَّى أَقْدَاحًا.. وَبِعِلْمِ اللَّهِ أَيُّهَا العَلَمُ عِلْمًا وَفَهْمًا، أَنِّي لَوْلَا مَخَاطِبَتِكَ وَمِثَالُكَ^(١١)

(٧) أدلنا: انصرا.

(٨) تعفو: تنطمس.

(٩) تقفو هنا: تحيط بها.

(١٠) البهيم: المظلم.

(١١) مثالك: يريد مثال مخاطبه وشخصه.

(١) غمرة غائها: شدة سداؤها.

(٢) الهجود: النوم.

(٣) الصفرة: النحاس.

(٤) دهم: فحأ. الرزم: المصيبة.

(٥) يؤود: يتقل ويجهد.

(٦) الوسائل: السمات.

لَمْتُ أَسْفًا وَعَمًّا، وَلَسْتُ - عَافَاكَ اللَّهُ - بَدِي سِجْنٍ وَلَا قَيْودٍ، وَلَكِنْ مَعَاشِرَةٌ مِنْ لَا يَشَاكِلُ عَقَبَةَ كَوْودٍ^(١)، وَلَعَلَّهَا ذُنُوبٌ تَمَحَّصُ، وَسَبُّكَ يُصَفِّي بِهِ الْإِنْسَانَ وَيُسْتَخْلَصُ، وَقَدْ شَكُونَا لَوْ أَنَّ الشُّكَاةَ تُسْمَعُ، وَدَعَوْنَا لَوْ أَنَّ الدَّعَاءَ - عِنْدَ مَنْ لَا يَقْبَلُهُ يَنْفَعُ».

وسهل يومئ في أول رسالته إلى ما صنعه به أهل الحسد والعداوة مما انتهى به إلى النفى عن بلده، ويعبر عن ألمه وحزنه لهذا النفى مع الثناء على صديقه والشكر على رسالته التي أثلجت صدره وفتحت له من التسلي والتعزى أبوابا كانت مغلقة، فحققت من أسفه وغمه. ويقول المراكشي عنه إنه كان كريم النفس فاضل الطبع نزيه الهمه حصيف الرأي وجيها مبرورا معظما عند الخاصة والعامه.

٣

الرسائل الأدبية

مما تميّز به النثر الأندلسي كثرة الرسائل الأدبية فيه، وكانت تسعف الكتاب في ذلك ملكات أدبية خصبة، وهي تلاحظ بوضوح في كثير من رسائلهم الشخصية إذ نرى الكاتب يتحول برسالته في المودة والإخاء أو في العتاب أو في الرثاء إلى الاتساع والامتداد بها صفحات تلو صفحات. وكان من آثار كثرة الحروب عندهم مع نصارى الشمال كثرة الرسائل الطويلة التي تتخذ الجهاد والاستنفار للحرب وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها، وفي كتاب الذخيرة لابن بسام رسائل كثيرة في كل ذلك، وخاصة مع موقعتي برُبُشتر سنة ٤٥٦ والزلاقة سنة ٤٧٩. وتكثر عندهم الرسائل الشخصية التي تتخذ الطبيعة موضوعا لها، وألمنا فيما أسلفنا برسائل بارعة على لسان الأزهار عند ابن يرد وحيب وأبي عمر الباجي، ومرّا بنا أن لابن الجدر رسالة بارعة في وصف مطر بعد قحط شديد، وأن لابن أبي الخصال رسالة في وصف ليلة شديدة البرد نوه بها السابقون، ولابن خفاجة أكثر من رسالة في وصف الطبيعة، وبالمثل لكتاب غرناطة وفي مقدمتهم ابن الخطيب رسائل متعددة في وصف الطبيعة. وكان للأندلسيين ميل واضح إلى الدعابة والفكاهة، وهما يتضحان في كثير من رسائلهم الشخصية، على نحو ما يلقانا عند محمد بن مسعود القرطبي في أوائل القرن الخامس الهجري وكان شاعرا يتصعلك في شعره على

(١) كؤود: صعبة.

طريقة الأدبائية أصحاب الكُذبة ممن يصفون في أشعارهم بؤسهم وحرمانهم وما يسود حياتهم من ضنك وقلق طلبا للنوال، وكان له ابن رحل إلى غربي الأندلس وعرف أنه عاش هناك للمجون والشراب فكتب إليه رسالة طويلة حاكى فيها الجاحظ مستمدا من رسالته الترييع والتدوير وما فيها من هزل، وقد ذكر منها ابن بسام فصولا في ترجمته له^(١). ولأحمد بن عباس وزير زهير صاحب المرية المقتول معه سنة ٤٢٩ رسالة هزلية بديعة في وصف رسول بكتاب أرسله إليه أبو المغيرة بن حزم، ورد على رسالته أبو المغيرة مستوحيا شيئا من هزله^(٢)، وسنلم لابن شهيد برسالته: التوايع والزوايع وما فيها من سخرية وأيضا بالرسالة الهزلية لابن زيدون. ويذكر ابن بسام لابن طاهر الذى ألمعنا به طائفة من رسائله في الدعابة والهزل، وممرت بنا رسالة أبي الحسين سراج بن عبد الملك في الشفاعة التى بناها على الدعابة لشخص يسمى الزريزير مستغلا في وصفه طائر الزرزور، وكأنه هو نفس هذا الطائر، وطارت شهرة الرسالة - كما أسلفنا - في الأندلس وحكاها كثيرون من أعلام الكتابة بغرض الفكاهة والدعابة. وهو جانب واسع في الرسائل الشخصية الأندلسية مثل وصف الطبيعة والجهاد والحرب. وحرى بكل جانب من هذه الجوانب أن تُجمع رسائله مع مقدمة تحليلية توضح روعته الأدبية، وحسبنا الآن أن نلم ببعض رسائل أدبية اشتهرت للأندلسيين.

رسالة التوايع والزوايع لابن شهيد

ابن شهيد^(٣) هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي القرطبي، فهو من أصل عربي، كان جده الأعلى عبد الملك بن شهيد وزيرا للأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) ووز ابنه أحمد لعبد الرحمن الناصر ولقبه بنى الوزارتين ومر بنا في الفصل الأول ذكر هدية نفيسة له إلى الناصر تدل على أنه كان من أكثر أهل قرطبة تراء، وولد له في سنة ٣٢٣ ابنه عبد الملك وأصبح فيما بعد وزيرا للمنصور بن أبي عامر، وولاه على الولايات الشرقية: بلنسية ومرسية مدة تسع سنوات، وعاد مضيفا منها إلى ثرائه

(١) الذخيرة ٥٤٩/١.

(٢) الذخيرة ٦٤٥/١ وما بعدها.

(٣) انظر في ترجمة ابن شهيد اليتيمة ٣٥/٢

والجدوة ١٢٤ والمطمح ١٦ والذخيرة ١٩١/١ -

٣٣٦، ٤٣٧ والبعية رقم ٤٣٧ والخريدة ٥٥٥/٢

ومعجم الأدياء ٢١٨/٢ وابن خلكان ١١٦/١

والواقى للصفدى ١٤٤/٧. ونشر شعره يعقوب

زكى بالقاهرة وشارل بلا في بيروت وللأخير

محاضرات عنه بجامعة عمان.

الموروث عن أبيه ثراء واسعاً، واصطفاه المنصور بن أبي عامر لنفسه مستشاراً وجليسا. ونقل سكناه إلى جواره. وكان قد رُزق بابنه أحمد سنة ٣٨٢ فنشأ في نعيم نشأة مترفة وضاعف ترفها رعاية ابن أبي عامر وحظياته له، فكان لا يزال يغدو ويروح إلى قصوره مختلطاً بأحفاده. وعنى أبوه بتربيته. ومنذ نعومة أظفاره كان عنده نهم للأدب والمعارف، يقول في فواتح رسالة: التوابع والزوابع: «كنت أيام كُتاب الهجاء أحن إلى الأدباء وأصبو إلى تأليف الكلام. فابتعت الدواوين وجلست إلى الأساتيد، فنبض لي عرق الفهم، ودّر لي شريان العلم.. فطعنتُ ثغرة البيانِ دراكاً، وأعلقت رجل طيره أشراكاً، فانتالت لي العجائب وانهالت على الرغائب». ويضيف إلى ذلك في إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب وخبر وفقه وطب وكيمياء وحكمة. وبينما هو غارق في التعميم وفي تثقيف نفسه إذ النكبة تحل بأسرة ابن أبي عامر سنة ٣٩٩ وكان قد توفي منذ سبع سنوات. وولى الحجابة المظفر ابنه فسعدت الأندلس والرعية به، غير أن القدر لم يمهل، فتوفي سنة ٣٩٩ وخلفه أخوه الناصر عبد الرحمن وكان نحسا على نفسه وانهمك في الشرب والزندقة والطعن في الدين الحنيف، فقتل سريعا. وانفتح باب الفتنة التي قضت على الدولة الأموية ودُمّرت فيها قرطبة وأحرقت المدينتان المحدثتان بجوارها: الزهراء والزاهرة، وسُفكت الدماء بقرطبة وظلت تنزف طويلا. وترك ذلك آثارا عميقة في نفس ابن شهيد فقد اندكت صروح آماله ومطامحه، وداخله أسى عميق لما نزل بمدينته وبأسرة بنى أبي عامر، ولما رأى في أثناء ذلك من انتهاك القيم واختلال الموازين، فأكبَّ على كتوس الخمر واللذات يغرق فيها هوممه محاولا أن ينساها أو يتسلى عنها، وأنى له، إذ كانت تتحدد كل يوم، فكيف يحتمل الحياة إنه ليس أمامه إلا أن يسرف على نفسه في الخمر حتى يتصل بها من اللذات، لعلها تخفف عنه محنته وما يُطبق عليه من أحزان. وتصادف أن أصابه الصمم مبكرا، فتضاعف حزنه وهمه، وتضاعف إقباله على الخمر والمجون حتى يقول ابن حبان: «غلبت عليه البطالة فلم يحفل في آثارها بضياح دين ولا مروءة حتى سقط شرفه ولم يُقصر عن ارتكاب قبيحة» ويقول ابن بسام: «كان بقرطبة في رفته وبين عته وظرفه خليعها المنهمك في بطالته وأحط الناس في هوى نفسه وأهتكهم لعرضه وأجرأهم على خالفه». وكان الشعر قد انتال على لسانه مبكرا، كما أخذت تظهر مخايل نبوغه الأدبي، وسرعان ما أصبحت داره منتدى لأترابه من الشباب القرطبيين المتأدين أمثال ابن حزم وابن عمه أبي المغيرة عبد الوهاب وابن برد الأصغر وأبي عامر بن المظفر بن أبي عامر وابن عمه المؤمن عبد العزيز. ويقدم غير مدحة

للخليفة المستعين الأموي (٤٠٠-٤٠٧ هـ) ويشكو له ممن يتهمون به بسرقة الشعر كذبا وهتانا. وفتك بالمستعين قائده علي بن حمود الحسني واستولى على صولجان الخلافة وانعقدت صلة بين ابن شهيد وكاتبه أبي جعفر اللبائي، وفتك بابن حمود غلبانه سنة ٤٠٨ وخلفه أخوه القاسم وخلعه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود سنة ٤١٢ وكان قد اتخذ وزيرين أبا عبد الله بن الفرضي وابن فتح جعفر بن محمد وأفسدا العلاقة بينه وبين ابن شهيد مما جعله يزجّ به في غياهب السجن فترة ظل فيها يستعطفه حتى رد إليه حريته.

وكان ابن شهيد يختلف إلى مجالس أبي العباس بن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ وفيها انعقدت صلة بينه وبين ابنه أبي بكر وكان مثله رقاعة وخلاعة، وتعرف على ابن الحناط الكفيف الذي كانت ترعاه أسرة بنى ذكوان، واصطدم به، وربما كان من أسباب ذلك أنه كان يوالى بنى حمود ويقدم إليهم مدائحه بينما كان ابن شهيد يوالى بنى أمية، وأيضا ربما رجع ذلك إلى المناقسة الأدبية، فنشبت بينها مناقضات نظما ونثرا استمرت طويلا. ولم يكن يؤذيه شيء مثل اتهامه بالسرقة في شعره ونثره، وبلغه أن أبا بكر محمد بن القاسم إشكمياط (في كتاب المغرب: إشكنهاط) يتهمه بالسرقة في نثره، فكتب إليه محققا رسالة عنيفة، قال فيها: «لأقطعن حبالك هاجرا، ولأتركن ليلك ساهرا». ويصبح صديقه الأمير عبد الرحمن بن هشام الأموي خليفة في سنة ٤١٤ ويتلقب بالمستظهر، ويتخذ مع صاحبه ابن حزم وزيرين، وأحسّ ابن شهيد أن الدنيا تبسّم له بعد طول العبوس، غير أن ابتسامتها سرعان ما غاضت بعد سبعة وأربعين يوما، إذ خلف المستكفي الأموي المستظهر، وعادت الهوم تطبق عليه. وكان يحيى بن علي بن حمود قد انسحب إلى مالقة، ففكر ابن شهيد أن يهاجر إليها كما تدل على ذلك قصيدة في ديوانه، ونظن أنه زار حينئذ مجاهدا أحد فتيان العامريين الصقالية وكان قد أسس له إمارة في دانية بشرقي الأندلس سنة ٤١٢ غير أنه ازورّ عنه فيما يبدو لاختلاف مسلكها في الحياة، إذ لم يكن مجاهد يأخذ نفسه بشيء من اللهو، بل على العكس كان منصرفا إلى الجد والعناية بالعلماء والقراء. وعاد ابن شهيد إلى قرطبة ولم يلبث يحيى بن علي بن حمود أن قدم إليها بجنوده من مالقة واستولى على أزمّة الأمور بها سنة ٤١٦ وقدم إليه ابن شهيد بعض مدائحه غير أن وزيره ابن فتح وابن الفرضي ظلا يغلقان أبوابه في وجهه. واستدار العام، فانصرفت قرطبة عن ابن حمود وبايعت لأموي هو الخليفة المعتد وظل بعيدا عنها يتنقل في الثغور نحو ثلاث سنوات. وكان صديق ابن شهيد المؤتمن العامري أصبح أميرا على بلنسية منذ

سنة ٤١٧ فتراسلا مرارا، وألح عليه المؤتمن أن يترك قرطبة إلى بلنسية، فاعتذر إليه بشعر رقيق يصور فيه شغفه بقرطبة مع ما أصابها من المحن والخطوب والدمار وتفجع لها وتوجع في أسى مرير. وقرَّبَه الخليفة المعتد ويتخذة جليسا وسرعان ما يتقوض حكمه وتتقوض معه الدولة الأموية سنة ٤٢٢ وستولى على مقاليد الأمور بها أبو الحزم جهور. وفي سنة ٤٢٥ يزور أمير المرية زهير الصقلبي - من قتيان بنى عامر - قرطبة ومعه وزيره وكتابه أبو جعفر أحمد بن عباس وكان فيه عجب شديد، فاصطدم به ابن شهيد وهجاه هجاء مقدعا. ويصاب في أواخر هذه السنة بفالج ويقاسى منه لمدة سبعة أشهر أهوالا ثقالا حتى ليفكر في الانتحار كما ذكر في بعض شعره، ويلبى داعى ربه في جمادى الأولى سنة ٤٢٦، وصلى عليه - وأقام مراسم دفنه - أمير قرطبة أبو الحزم جهور، ويكثرُ البكاء والعيول على قبره وتتشد مرثا متعددة لصديقه ابن برد الأصغر وغيره.

وهذه حياة ابن شهيد، وهى حياة امتلأت بغيوم الهموم مع ما امتاز به من تفوق في الأدب نثرا وشعرا، وفيه يقول ابن حيان مؤرخ الأندلس: «إذا تأملته ، وكيف يجرّ في البلاغة رسنه، قلت عبد الحميد في أوانه، والمجاحظ في زمانه.. وله رسائل كثيرة في أنواع التعريض والأهزال قصار وطوال برز فيها سآؤه، وأبقاها في الناس خالدة بعده» وقال عنه الفتح بن خاقان في المطمح: «عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حائز قصب السبق فيها، لا يشبهه أحد من أهل زمانه، ولا ينسق ما نسق من درّ البيان وجمانه» وقال فيه ابن بسام: «نادرة الفلك الدوّار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جدّ فزئير الأسد الضرغام، نظم كما اتسق الدر على النحور، ونثر كما خلط المسك بالكافور». وقد سقطت من يد الزمن أعماله ولولا ما احتفظ به ابن بسام وأصحاب الكتب الأدبية من أشعاره لضاع هذا الكنز النفيس من منظوماته، وأيضا لولا ما احتفظ به ابن بسام من رسائله وخاصة من رسالته التوابع والزوابع لفقد النثر الأندلسى دررًا بديعة من لآلئه وروائعه.

وابن بسام لم يحتفظ برسالة التوابع والزوابع جميعها، إنما احتفظ ببعض فصولها، وما جاء في صدرها من مخاطبة ابن شهيد لصديق له هو أبو بكر بن حزم، وتصادف أن كان لأبى محمد بن حزم أخ يتفق مع هذا المخاطب في اسمه توفى سنة ٤٠١ فظن بعض الباحثين أنه هو المخاطب، ورتبوا على ذلك أن ابن شهيد ألف رسالته وهو شاب، ولو أنهم رجعوا إلى الحميدى في الجذوة لوجدوه ينص على أنه شخص آخر، إذ يقول: «يحمى بن حزم أبو بكر شيخ من شيوخ الأدب.. وهو الذى خاطبه أبو عامر بن شهيد

برسالة التوابع والزوايع التي سماها شجرة الفكاهة، وهو من بيت آخر غير بيت الفقيه أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم». وإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن شهيد أنشد في الرسالة قطعة من رثائه لوزير الخليفة المستظهر حسان بن مالك المتوفى - كما جاء في كتاب الصلة - سنة ٤١٦ تعين أن تكون الرسالة كتبت في هذه السنة على الأقل أو بعدها في إحدى السنوات التالية القريبة. وبذلك يسقط كل ما ذهب إليه الباحثون من أن الرسالة ألفت قبل هذا التاريخ.

والتابع في الرسالة الجنيُّ والزوبعة الشيطان، وابن شهيد يذكر في صدرها لصديقه أبي بكر بن حزم أنه أرتج عليه ذات يوم في شعر كان ينظمه، فترأى له تابعه من الجنِّ على فرس أدهم، فأجازه، واستحلفه من هو فقال: زهير بن نعيم من قبيلة أشجع في الجن، وكان في الجن قبيلة تقابل قبيلة ابن شهيد: أشجع في الإنس، وتحادثا حيناً، ثم علمه أبياتا إذا أراد استحضاره، وأوثب الفرس جدار الحائط وغاب عنه، فكان كلما أرتج عليه أنشد الأبيات المذكورة فمثل تَوًّا. ولما تأكدت صحبته له عرض عليه أن يلقي معه توابع الشعراء والكتاب وزوابعهم فاستأذن له شيخه الجني، وأذن له، فأركبه معه على متن جواده، وسار بهما كالطائر يقطع الجوَّ فالجوَّ والدَّوَّ (الفلاة) فالدَّوَّ حتى لمح ابن شهيد أرضاً لا كأرض الإنس متفرعة الشجر عطرة الزهر، وقال له تابعه تلك أرض الجن، وطلب منه ابن شهيد أن يلقي صاحب امرئ القيس «وأمال التابع عنان الجواد إلى واد من الأودية به دَوْحٌ تنكسر أشجاره وتترنم أطياره، وصاح تابعه على تابع امرئ القيس قائلا: «يا عَتَيْبَةَ بن نوفل، بسقط اللوى فحوُمَل (وهما موضعان بمعلقة امرئ القيس) يوم دارة جُلْجُل (أيضا في المعلقة) إلا ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك، وسمعت من الإنسى وعرفتنا كيف إجازتك له؟ فظهر لهما فارسٌ على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير وحياً صاحبك أهذا فتاهم؟ قال زهير هو هذا. وأى جَمْرَة (يشيد بابن شهيد) يا عَتَيْبَةَ، فقال لابن شهيد: أنشد، فقال: السيد أولى بالإتشاد، فتطامح (ارتفع) طَرْفَه، واهتزَّ عَطْفَه، وقبض عِنانَ الشَّقْراء (فرسه) وضربها بالسوط، فسمت تحضِر (تثب) طُولاً عِنا، وكَرَّ فاستقبلنا بالصَّعدة (القناة) هازألها، ثم ركزها، وأنشده إحدى قصائد امرئ القيس حتى أكملها، ثم قال لابن شهيد: أنشد، فهم إزاء روعة قصيدة امرئ القيس بالحیصة (النكول) ثم اشتدت قوی نفسه وأنشده قصيدة يعارض بها قصيدته، فلما انتهى منها تأمله تابع امرئ القيس مُعْجَباً به، ثم قال له: اذهب فقد أجزتكَ وغاب عن بصره. وسأله تابعه زهير: من تريد بعده، فطلب

لقاء صاحب طرفة، فقطع معه وادى عتبية، وركضا جوادهما حتى انتهيا إلى غيضة. ويصف ابن شهيد الغيضة وأشجارها ولقاءه فيها بعنتر بن العجلان تابع طرفة، ومحاوره وينشده عنتر قصيدة لطرفة ويعارضها بقصيدة بديعة، ويصيح عنتر معجبا بقصيدته، ويحيزه، ويغيب عنه. ويلتقى ابن شهيد مع صاحبه بتابع قيس بن الخطيم شاعر يثر بويتحاوران ويتناشدان الشعر ويحيزه. ويترك توابع شعراء الجاهلية إلى شعراء العصر العباسي. ويلتقى بصاحب أبي تمام، وينشده ابن شهيد أشعارا مختلفة له منها مراثيته للوزير حسان بن مالك. ويلتقى بتابع البحري، ويتناشدان الشعر ويحيزه.

ويسأل ابن شهيد صاحبه أن يلقاه بصاحب أبي نواس وينقل لنا صورة من منازل خمره وسكره، إذ بوادي الجن منازل مماثلة لمنازل أبي نواس في دنيا الإنس، فهذا دير حنة الذي كان كثيرا ما يختلف إليه، وشق سمع ابن شهيد قرع النواقيس، ويحجاب مع تابعه أديارا وكنائس وحانات حتى ينتهيا إلى دير عظيم تعبق روائحه وتفوح نوافحه، ويقف صاحبه زهير ببابه ويصيح سلام على أهل دير حنة، ويسأله ابن شهيد هل صرنا بذات الأكرأح (ساحة يخرج إليها الرهبان في أعيادهم وطالما تغنى بها أبو نواس) ويحبيه: نعم، وتقبل نحوهما الرهايين وفي أوساطهم الزنانير المشدودة وقد قبضوا على العكاكيز، بيض الحواجب واللحى، وقالوا لصاحبه ما بغيتك؟ فقال حسين الدنان تابع أبي نواس، فقالوا إنه في شرب الخمر، منذ أيام عشرة، ونزلوا بابن شهيد وتابعه إلى بيت اصطفت دنانه وحولها غزلانه، وفي فرجته شيخ طويل الوجه واللحية افترش أضغاث (أخلاق) زهر، وأتكأ على زق خمر، ويبيده طاس خمر كبير، فصاح به زهير: حيأك الله أبا الإحسان، فأجاب بجواب لا يعقل لغلبة الخمر عليه، فقال زهير لابن شهيد: أقرع أذن نشوته. ياحدى خمرياتك فإنه ربما تنبه لبعض ذلك، فصاح ابن شهيد ينشده إحدى خمرياته، فصاح تابع أبي نواس وسأله أشجعي كأنه لا يحسن مثل هذه الخمرية إلا ابن شهيد الأشجعي، وأجابه ابن شهيد: أنا ذاك، فاستدعى ماء قرأحا، فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إليه من حاله، وأنشده قصيدة أبي نواس:

يَادِيرُ حَنَّةَ مِنْ ذَاتِ الْأَكْرَأَحِ مَنْ يَصْحُ عَنْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِالصَّاحِي

وكاد ابن شهيد يخرج من جلده طربا، وسأله تابع أبي نواس أن ينشده من شعره، وقام حسين يرقص ببعض شعر ابن شهيد ويردده، وقال له: هذا والله شيء لم نلهمه نحن وقبل بين عينيه وأجازه. وسأل زهير ابن شهيد من تريد بعد ذلك؟ فقال له: تابع

أبي الطيب المتنبي، ولقيه فارسا على فرس بيضاء كأنه قضيبٌ على كئيب، ويده قنّاة قد أسنّدها إلى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عدبةً صفراء، فحيّاه زهير، فأحسن الردّ ناظرا من مُقلّة شوساء مضمومة أجفانها استعلاءً قد ملّثت يبيهاً وعُجباً، واستشهد ابن شهيد فأنشده بعض أشعاره، ولما انتهى قال لزهير إن امتد به شوطُ العمر فلا بد أن ينفث بدرر، وما أراه إلا سيخنصر (يموت شابا) بين قريحة كالجمر وهمةً تضع أخمصه (باطن قدمه) على مفرق البدر، ويجيزه. وكأنما كان تابع المتنبي يقرأ في صفحة القدر، إذ تنبأ له أن يحطم الموت غصنه اليافع بعد سنوات معدودة، وحطمه.

وسأل ابن شهيد زهيرا بعد لقائه بالمتنبي أن يلقاه بتوابع الكتاب - ويسميهم الخطباء - وركضا الجواد طاعنين في مطلع الشمس، ومالا إلى توابعهم بمرج دهمان وإذا بناد عظيم جمعمهم، والكل منهم ناظر إلى شيخ أصلع جاحظ العين اليمنى على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة، فسأل ابن شهيد زهيرا عنه فقال: عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ وكنيته أبو عتبية، فقال ابن شهيد: بأبي هو ليس رغبتى سواه وغير صاحب عبدالحميد الكاتب فقال له إنه ذلك الشيخ الذي إلى جنبه. وعرف عتبة بابن شهيد، فقال له: إنك حائك للكلام مجيد، لولا أنك مغرى بالسجع، فكلامك نظم لا نثر، فاعتذر له قائلا إنه يعرف فضل الازدواج والمماثلة (خاصة أسلوب الجاحظ وعبدالحميد الكاتب) غير أنه عدم يبلده فرسان الكلام. ويسوق حملة عنيفة على كتاب زمنه مستخدما أسلوبيهما من الازدواج والمماثلة، ويقرأ لهما رسالة طويلة مسجوعة في الحلواء، يصف فيها طائفة منها، من مثل الخبيص والزلابية، ويستحسنانها قائلين إن لسجعيه موضعا من القلب ومكانا من النفس، مع حلاوة اللفظ وملاحة السياق. ويذكر أن له أنه بلغهما أن من أبناء جنسه من يطعن على أدبه، وسألاه من أشدهما في الطعن والإجحاف بحقك، فيذكر لهما ثلاثة هم أبو محمد وأبو بكر وأبو القاسم، ولا نعرف شخصية أبي محمد، إذ تكتئ بهذه الكنية لزمنه غير واحد، وأما أبو بكر فأكبر الظن أنه إما أبو بكر بن حزم، الذي ذكر في مطلع الرسالة أنه يتهمه بأن شيطانا يجرى على لسانه ما يخرج عن قدرة الإنس، وإما أبو بكر محمد بن قاسم المعروف بإشكمياط الذي مر بنا في حياته أنه اتهمه بسرقة فقر نثره الحسان من سابقه، وأما أبو القاسم فذكر ابن شهيد بعد سطور قليلة أنه أبو القاسم الإقليلي، ويهتف صاحب الجاحظ وعبدالحميد بتابعه أنف الناقة بن معمر، وينهض لهما جنئ أشمط (دبّ الشيب في شعره) ربة وارم الأنف (متكبر شامخ بنفسه) يتظالم (بتعارج) في مشيته كاسرا لطرفه، وزاويا لأنفه.

وكان الإفليلي قد تصدّر في قرطبة، يقرئ علم الأدب ويختلف الطلاب إليه، وكان مع علمه باللغة والنحو يتكلم في معاني الشعر والبلاغة والنقد، واستكتبه المستكفي في خلافته ثم أعفاه لخلو كلامه من حُسن البيان والبلاغة. ويتهم تابعه أنف الناقة ابن شهيد بنقص اطلاعه، ويطلب إليه أن يناظره على كتاب سيبويه وشرح ابن درستويه، فيسخر ابن شهيد منه ويقول الإفليلي بلسان أنف الناقة إنه أبو البيان، فيهزأ به قائلاً إنه لا يحسنه. ويطلب إليه أنف الناقة مثالا، فيصف له برُعوثا وتعلبا وصفا رائعا. ويلتفت إليه تابع بديع الزمان زُبدة الحقب فيطلب إليه أن يصف جارية ويعجب بوصفه، ويذكر له زبدة الحقب وصف البديع للماء ويقول له إنه من العُقم أو المعجز، فيعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء، ويمتلئ زبدة الحقب غيظا، فيضرب الأرض برجله، فتتفرج عن هُوّةٍ يغيب فيها. ويشتدّ غيظُ أنف الناقة تابع الإفليلي، فيطلب إليه أن ينشد بعض أشعاره، وينشد أشعارا بديعة متحدثا له، وتصبح فتیان الجن إعجابا واستحسانا، وتعلو أنف الناقة الكأبة، ويحاول فتى من الجن أن يصلح بينهما، فيأبى ابن شهيد لما يتتبع الإفليلي في دروسه لزلّة قد تمر به في شعره أو نثره، فيهتف بها بين تلاميذه ويجعل وقوفه عليها مفخرة من مفاخره. فيقول له الفتى الجنى إن الشيوخ قد تزل أحلامهم في النثرة، ويقول ابن شهيد: بل إنها المرة بعد المرة. وما يلبث صاحبها الجاحظ وعبد الحميد الكاتب أن يشهدا له بأنه شاعر وناثر، وينفض الجمع، والكل ممتلئ إعجابا به. ويقول ابن بسام إنه امتد بعد ذلك بابن شهيد الكلام في باب التوابع والزوابع، ومدّ فيه أطناب (أسباب) الإطناب والإسهاب، ولذلك وقف دون الغاية، وقطع قبل النهاية. وكنا نتمنى أن لا يقطع ابن بسام وأن لا يقف، بل كنا نتمنى أن يورد التوابع والزوابع بحذافيرها، لأنها طرفة رائعة من طرف النثر الأندلسي، وهي طرفة بديعة النسق في الصياغة والرواق في العبارة دون سجع ولا ما يشبه السجع إلا ما جاء عفواً.

وأضاف ابن شهيد في الرسالة إلى هذا الباب الخاص بلاقائه لتوابع الكتاب والشعراء بابا تذاكر فيه مع زهير تابعه ما تعاورته الشعراء من المعاني ومن أحسن منهم الأخذ للمعنى ومن قصّر فيه، ويعرض لبعض المعاني ومن تداولوها، ويتمثل له جنى يسمى فاتك بن الصَّقعب ويتحاور معه ويجرى على لسانه بعض أبيات من سينية غزلية له، ويسأله فاتك هل جاذبت أحدا فيجيبه نعم أبا الطيب المتنبي، وينشده من ذلك بعض أشعاره فيصيح فاتك صيحة منكرة من صياح الجن إعجابا واستحسانا. وكان يقربه جنى ضخم هو فرعون بن الجون، أخذ يتحداه بأشعار رائعة للمتنبي، فأنشده ابن شهيد بعض أشعاره

البدیعة ومهرته، فأخذ يسأله عن أشعار لأبيه وأخيه وعمه وجده وجدّ أبيه، وابن شهيد يذكر له قائله منهم، حينئذ أقسم أن لا يعرض له أبداً، وشهد له بعراقة في الكلام، وكأنما ألقمه حجراً بشعره وشعر آبائه فتضاءل وغاب عن بصره.

وتتبع ابن بسام ذلك بفصل أخير من فصول الرسالة أو قل بمشهد نرى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير بأرض الجن يستعرضان أندية أهل الآداب، وإذا هما يشرفان على أتان من ممر الجن وبعض بغالهم وتعرضت لابن شهيد الأتان تحكّمه في شعيرين لحمار وبغل من عشاقهم اختلفت التوابع من الجن فيها، وتقدمت إليه بغلة شهباء عليها جلّها (غطاؤها الصائن لها) وبرقعها، وأنشدته الشعرين ففضل شعر البغل وقال: كان أنف الناقة أجدر مني بالحكم، وقالت له البغلة: أما تعرفني؟ فقال لها: لو كانت بك علامة، فأماطت لثامها، فإذا هي بغلة أبي عيسى والخال على خدّها، فتباكيا طويلا، وأخذا في ذكر أيامها، وسألته: ما فعل الأحبة بعدها؟ أهم لا يزالون على العهد؟ فقال: شاخ الفتیان، وتكررت الخللان، ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة، وحالوا عن العهد، ونسوا أيام الود. وكانت بقرهم إيوة بيضاء شهلاء في مثل جثمان النعامة، ويسأل ابن شهيد زهير عنها، فيقول له إنها تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف، ويتحاور معها مثنيا عليها، فمرة تسيح ومرة تطير، ومرة تنغمس في الماء ومرة تخرج منه، ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها ورפרفت بجذافها (بجناحيها) واستقبلته مع صاحبه جائئة (قائمة على مؤخرتها) كصدر المركب، ثم سأله ماذا يُحسن؟ فقال لها من الشعر أو النثر، فقالت له إنما أريد النحو والغريب تريد أن تتهمه بأنه لا يحسنها، ويطلب الحوار معها واصفا لها بالحقق وأنها في حاجة إلى عقل التجربة إذ عدت العقل الطبيعي، ويسألها أيها أفضل: الأدب أم العقل؟ وتجيبه العقل، فيقول لها إذا ظفرت منه بحظ فناظري حينئذ في الأدب. وكأن الإيوة بذلك تأخذ صفة الإفليلي بشهادة تحديها لابن شهيد بإحسان النحو والغريب اللذين كان الإفليلي يشتهر بهما. وبذلك نفهم كلمة ابن بسام عن الرسالة لابن شهيد وتكرار ذكر الإفليلي فيها بأنه هو الذي به ابن شهيد عرض، وجعله الغرض، وكأنما أنشأها من أجل الرد على ما وسمه به في بعض دروسه من زلات وعثرات، مما جعله يعرض في الباب الأول من الرسالة روائع شعره ونثره على توابع الشعراء والكتّاب الناهين مقارنة إلى قصائد أصحابهم، وإذا هم يبهرون بشعره ونثره دأباً ويحيزونه، محاولا بذلك أن يسقط نقد الإفليلي له. ثم أخذ يعرض جانباً من

تداول المعاني بين الشعراء ومن قدرته على نقد الشعر وتذوقه ليبرهن على أنه يبذ الإقليلى فى انتقاد الشعر وتذوقه والوقوف على المعانى التى يشترك فيها الشعراء ويتداولونها، وكان تابع الكاتب والشاعر فى الشطر الأول من الرسالة يتمثل له بشرا سويا، وتشكّل له فى الشطر الثانى على صورة بعض الحيوانات والطيّر مستمدا فى ذلك كله من قصص الجن عند العرب.

وقرن كثير من الباحثين^(١) هذه الرسالة لابن شهيد إلى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، ومنهم من ذهب إلى تأثر أبى العلاء بابن شهيد، ومنهم من ذهب إلى أن ابن شهيد هو الذى تأثر بأبى العلاء، وكلا الرأيين يجانبه الصواب، وحقا الرسالتان رحلتان فيما وراء الواقع، لكنها بعد ذلك تتباينان فى موضوعيهما، فرحلة أبى العلاء تدور على عقيدة إسلامية هى عقيدة المعاد وما يتصل به من أهوال الحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار ولقاء بعض من عُفّر لهم من الشعراء واللغويين فى الفردوس ورؤية إبليس وبشار وأضرابه من الزنادقة فى الجحيم. أما رحلة التوابع والزواج لابن شهيد - كما مرّت بنا - فتدور على ما شاع على ألسنة العرب فى عصرهم الجاهلى الوثنى من تصور شياطين للشعراء يلهمونهم أشعارهم. وواضح من موضوع الرحلتين أنها لا يلتقيان أى التقاء وأن من الخطأ كل الخطأ أن يحاول باحث تبين أثر لإحداهما فى الأخرى. وذكرنا من قديم فى كتابنا «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» ثم فى كتابنا «المقامة» أن الذى أوحى إلى ابن شهيد برحلته فى أرض الجن ووديانها إنما هو بديع الزمان وما قرأه فى مقامته الإبلسية عن لقاء عيسى بن هشام لإبليس فى واد من وديان الجن وتحاورهما وإنشاد إبليس له أشعارا جاهلية، ثم عرض عليه أن ينشده من شعره، فأنشده إبليس قصيدة لجرير، وعجب عيسى من انتحاله قصيدة جرير، ولم يلبث إبليس أن قال له: «ما أحد من الشعراء إلا معه معين منا، وأنا أملت على جرير هذه القصيدة، وغاب عنه، وكأنما ابتلعه الأرض. وفى نفس رسالة التوابع والزواج ما يؤكد الصلة بين ابن شهيد وبديع الزمان فى مقاماته، إذ نرى ابن شهيد يعرض على تابعى الجاحظ وعبد الحميد الكاتب رسالة طويلة فى ألوان من الحلواء أراد بها محاكاة بديع الزمان فى مقامته المضيرية. وما يلبث ابن شهيد أن يذكر أنه لقى تابع بديع الزمان المسمى زبدة الحقب، ويقترح

للككتور هيكل ص ٣٨١.

(١) راجع بلاغة العرب فى الأندلس للكتور أحمد ضيف (طبع القاهرة) ص ٤٨ والأدب الأندلسى

عليه وصف جارية ويصفها، ويعجب زبدة الحقب بوصفه، ويسأله ابن شهيد أن يسمعه وصفه للماء، ويقول له إنه وصف معجز، ويعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء يبهره. وفي ذلك كله ما يقطع بأن المقامة الإبلية لبديع الزمان هي التي ألهمت ابن شهيد رسالة التوايح والزوايح وأوحت بها إليه. ويتردد في كتابي الجدوة للحميدي والمغرب لابن سعيد اسم كتاب لابن شهيد سماه حانوت عطار ويبدو من نقولهما عنه أنه ترجم فيه لأدباء الأندلس في عصره وقيل عصره ترجمات قصيرة ذكر فيها بعض أخبارهم وما استطرفه من أشعارهم مع بعض نظرات نقدية.

رسائل ابن بُردٍ^(١) الأصغر

ابن بُردٍ الأصغر هو أبو حفص أحمد حفيد أبي حفص أحمد بن بُردٍ الأكبر الذي ولى ديوان الإنشاء للمنصور بن أبي عامر، وكتب بعده لابنيه المظفر والناصر. ثم كتب لسليان المستعين الأموي وللأمراء الحمديين، ويترجم له ابن بسام في الذخيرة، ويشيد ببيانه وبلاغته قائلاً إنه «أسمع الضمَّ بيانا، واستنزل العُصمَ إبداعاً واستحساناً» ويتلو ذلك بطائفة بديعة من رسائله. وحين رُزق ابنه محمد بولده أحمد توسم فيه النجاية منذ نعومة أظفاره، فعنى بتربيته وتخريجِه في الأدب نثره وشعره، وفي ذلك يقول الحفيد ابن برد الأصغر، كما روى ابن بسام عن كتاب له سماه «سر الأدب وسبك الذهب»: «وكان جدي أحمد بن برد - رحمه الله - بطول ممارسته لهذه الصناعة قد اقتعد سَنامها، ورفع أعلامها، وأصبح إمامها، وإني وافقت أول معالجتى لها آخر أيامه خلا أنه قد كان أقبسنى مصابيح من وصاياها فيها، ووطأ لى مراكب من دلائله إليها، وضرب لى صُوى (أعلاما) من هداياته نحوها أفاد الله بها نفعاً». ويقول ابن بسام إن بني برد ينتمون إلى بني شهيد بالولاء، ولعلنا بذلك نفهم ما كان ينعقد من صلة وثيقة بين ابن برد الأصغر وابن شهيد، ويتضح ذلك في جوانب من أخبار ابن شهيد، وحين توفي بكاه - كما أسلفنا - بكاء حاراً. وليس بين أيدينا أخبار عن نشأة ابن برد الأصغر إلا الخبر السالف عن عناية جده به ورعايته له. ونرى ابن بسام يذكر أنه حين اتخذ المستظهر الأموي في سنة ٤١٤ ابن

وأخباراً متفرقة عنه في ٣٥٨/١، ٧٧١، ٧٨٧
وراجع رسالته في تفضيل الورد على سائر الأزهار
في ١٢٧/٢ وراجع ٨١٩/٣.

(١) انظر في ترجمة ابن برد الأصغر الجدوة
للحميدي: ١٠٧ والمطمح: ٢٤ والبغية رقم ٣٥٤
والمغرب ٨٦/١ ومعجم الأدباء ١٠٦/٢ والذخيرة

شهيد وزيرا كتب له ابن برد ولم يوضح ابن بسام هل هو ابن برد الأصغر أو هو جده ابن برد الأكبر، وبالمثل يقول إن أبا القاسم الإفريقي كتب للخليفة المستكفي بعد ابن برد في نفس السنة ولا يذكر هو الأصغر أو الأكبر، وأكبر الظن أنه الأصغر، وكأنه كتب للمستظهر في الأشهر التي تولاها ثم كتب فترة للمستكفي بعده ولم يلبث أن أعفاه. وقد ظل ابن برد الأكبر حيا حتى توفي بسرقسطة عن ثمانين عاما سنة ٤١٨ ويبدو أنه رحل إلى تلك البلدة في الشمال لما سمع من كرم منذر التجيبى أميرها وهبته لقصاده أموالا عظيمة. ويقول ابن برد الأصغر إن صروف الأيام باكرته بعد مصابه في جده ويبدو أن الدنيا ظلت لا تبسم له فترة غير قليلة كما يبدو أن أبواب دواوين قرطبة ظلت مغلقة دونه في عهد جهور حين أصبح حاكمها المتصرف في شتونها منذ سنة ٤٢٢ ولعل سبب ذلك عمله في دواوين الخليفين الأمويين: المستظهر والمستكفي. ومن المؤكد أنه ظل بقرطبة حتى وفاة ابن شهيد سنة ٤٢٦ ويقول المؤرخون أنه رحل منها إلى مجاهد الصقلبي أمير دانية (٤١٢ - ٤٣٤ هـ) وسنراه يوجه إليه أولى رسائله الأدبية الخاصة بالسيف والقلم وربما حنَّ إلى قرطبة ورفاقه فيها وعاد إليها، وقد يدل على ذلك أن نجد ابن زيدون حين سجنه جهور سنة ٤٣٢ يوجه إليه قصيدة كى يشفع له عند جهور أو عند ابنه أبي الوليد. وربما كان بقرطبة حين خلف أبو الوليد أباه سنة ٤٣٥ ومَرَّت بنا رسالته البديعة إليه بتفصيل الورد على سائر الأزهار، ولعله كان يرمز إليه بالورد وأنه يفضل جميع أمراء الطوائف. وكان المظنون أن يظل بقرطبة، غير أننا نراه يؤثر المقام بالمرية عند أميرها معن بن صُهادح (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) الذي عرف له فضله، فاتخذه وزيرا له، وإليه قدم ابن برد كتابه: «سر الأدب وسبك الذهب» وافتتح ابن بسام ترجمة ابن برد بصدر هذا الكتاب وقد نوه فيه برعاية جده له وتخرجه كما مرَّ بنا، وأثنى ثناء غامرا على معن بن صهادح ورعايته للعلوم وفنون الآداب، وما أسبغ عليه من شرف المرتبة الرفيعة. وضمن الكتاب رسائله السلطانية والإخوانية وطرَّز أبوابه بأبيات من الأشعار المحتوية على الحكم الجارية بجرى الأمثال. ومن المؤكد أنه قضى الشطر الأخير من حياته في ظل هذا الأمير، ويقول الحميدى في الجذوة إنه رآه في المرية مرارا بعد الأربعين وأربعمئة، ولا ندري هل لحق عصر المعتصم بن معن بن صهادح (٤٤٣ - ٤٨٤ هـ) أو أن القدر لم يمهل حتى عصره، أو حتى إذا كان أمهله فإنما أمهله إلى فترة قصيرة، ويشيد به ابن بسام قائلا:

«كان أبو حفص بن برد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نَفَتْ

فيها بسحره، وأقام من أودها (اعوجاجها) بناصع نظمه، وبارع نثره». وأتبع ذلك بفصول من تحميداته ورسائله الديوانية والشخصية وطائفة من أشعاره في النسب وغيره، وألحق أديب بترجمته في الذخيرة من قديم ثلاثا من رسائله الأدبية في: السيف والقلم، والنخلة، وأهـب الشاء، وقدم لها بقوله إنها من بدائع العُـمـم (التي لا مثيل لها) المستنزلة للعضم (النوادر) ويقول إن ابن بسام لم يتجاف عنها غضا منها، ولكن ربما أعجله القدر أو لم يسمح له بها الزمن، وحرى أن نلّم بها في إجمال.

(أ) رسالة السيف والقلم

كتب ابن برد هذه الرسالة إلى الموفق أبي الجيش مجاهد أمير دانية مناظرا بين السيف والقلم متقدما مناظرتها بالثناء عليهما معاَ فيها مثل جوادين سبقا في حلبة أو غصنين نسقا في تربة، بل هما مثل نجمين أنارا في أفق، وسهمن صارا على نسق، غير أنها جررا أذيال الخيلاء تفاخرا، وادعى كل واحد منها أن له الفوز على صاحبه وامتد بينها الجدل والحصام، فقاما يتباريان في المقال، ويتساجلان في الخصال. وبدأ القلم فقال:

﴿ن. والقلم وما يسطرون﴾ فجلّ من مُقسم وعزّ من قَسَم، لقد أخذتُ الفضلَ بِرُمته، وقُدّتُ الفخر بأزمته. فقال السيف: عُدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة، لا أسير ولكن أعلن، قيمة كل امرئ ما يُحسِن، إن عاتقا حَمَل نِجَادِي (حمائل سيفي) لسعيد، وإن عَضُدًا بات وسادى لسديد، أفصح والبطل قد خَرَسَ، وأبتسم والأجل قد عَبَسَ. فقال القلم: الحق أبلج (مضى) والباطل لَجَلج (أعرج) أجلب الغنى من ضروعه، وأجتنبى الندى (الجود) من فروعه، وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول، وجواد شأوه (شوطه) يدرك الأمل، شفيح كل ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه فقال السيف: يا لله! استنتت الفِصال (أولاد النوق) حتى القرعى^(١)، وربّ صلفٍ تحت الرأعدة^(٢). لقد تحاول امتدادا بباع قصيرة، وانتفاضاً بجناح كسيرة، أمستعرب (دخيل في العرب) والفلسُ ثمنك، وكل بقعة وطنك؟ إن الملوك لتبادر إلى دركي، ولتتحاسد في ملكي، ولتتوارثنى على النسب، والتغالى في على الحسب، فتكللتني (فتتوجني) المرجان، وتعلّني العقيان^(٣)، وتلحفني بحمائل

والصلف: قلة المطر أى أنها منوع مع كثرة ما تحمل من المطر.

(٣) العقيان: الذهب. تنعله هنا: تكسو غمده.

(١) مثل يضرب لمن يفعل ما ليس له بأهل والاستئان هنا: العذر. وهو يشير إلى أن الفصال إذا عدت حاكمها أخواتها المصابة بالقرع.

(٢) مثل يضرب للبخيل. والراعدة: السحابة.

كخمائيل. فقال القلم: أستعِذ بالله من خطي أرعيت فيه سَوامَكَ (إبلك) وزَلَلِ افتتحت به كلامك، إن ازدراءك بتمكن وجداني، وبخس أثمانى، لنقص فى طباعك، وقصر فى باعك، ألا وإن الذهب معدنه فى العفر (التراب) وهو أنفَس الجواهر، والنار مكنها فى الحجر، وهى إحدى العناصر، وإن الماء - وهو الحياة - أكثر المعاش وجدانا، وأقلها أثمانا، وقلما تُلقي الأغلاق النقيسة إلا فى الأمكنة الخسيسة. فقال السيف: جَعَجَعَةٌ رَحَى لا يتبعها طَحْن (دقيق) وجَلْجَلَةٌ رَعْدٌ لا يليها مَزْنٌ، وجه لثيم، وجسم سقيم، ودُموع سِجَام، كأنهن سُخَام (فحم) فَهَبٌ من نومك، وأفطرٌ من صومك، إني لو انتضيت (سُللت) والشمسُ كاسفة لم ينظر وقت تجليها^(١)، أو السنون مجدبة أيقن بالحيا (بالغيث) راعيتها. أكرعُ (أشرب) يوم الوغى فى لبة البطل (أعلى صدره) فأعود كالخد كُسي صيغ الخجل».

ولما كثر تعارضهما، وطال تناظرهما، ولم يئتين أحدهما كهاما (كليلا) بادرا إلى السلم يعقدان لواءه، قائلين إن من القبيح أن تنشت أهواؤنا وتتفرق آراؤنا وقد جمعنا الله فى المألف الكريم، وقال القلم إن مما نُبرم به عَقَدنا، وننظم عَقَدنا إن حالت حال، وكان للدهر انتقال، أن نُخطُ كتابا مُصيبا، يكون لنا مَنابا وعلينا رَقيبا، فقد يدبُ الدهر بعقاربه، بين المرء وأقاربه، واختار القلم أن يكون العَقْد شعرا، لأنه شَدُو الحادى، وزاد الرائح والغادى. وسجله فى قطعة شعرية بديعة. وواضح ما امتاز به ابن برد الأصغر فى تلك المناظرة بين السيف والقلم من قدرة على صوغ الأدلة والبراهين فى لسانى الخصمين المتناظرين، إذ ما زال يؤلف لكل منهما حججا يُدلى بها مع نقضه لحجج منافسه. وطبيعى أن لا ننقل تلك المناظرة بحذافيرها، فقد اجتزأناها مكتفين بما نقلناه منها للدلالة على قدرة ابن برد فى توليد الأفكار والبراهين وفى صوغ الكلام وحوكه حياكة تموج بالعدوبة، إذ كان يعرف كيف يصطفى ألفاظه وكيف يلائم بينها ملاءمات موسيقية بديعة.

(ب) رسالة النخلة

هى رسالة عتاب لصديق سبق أن عاتبه فى العام الفارط على كتمانته لرطب نخلة، وهى تُعد بالأندلس إحدى الغرائب وفريدة العجائب، ويقول إنه سأله من جناها قليلا، فقال له لو علمت أن لكم به هذا الكلف لأمسكته عليكم، ولكنه فى العام المقبل إن شاء

(١) يشير إلى كثرة الغبار فى الحرب حين تسل السيوف وتكر الخيل.

الله يكون غلتكم وعتادا نفيسا لكم ودُخرا حبيسا عليكم، ويمضى ابن بُرد قائلا له: «رسمنا تلك العِدَّة في سويداوات قلوبنا، ووكلنا بها حَفْظَةَ خواطرنا، أما أنت فهَلَّتْ عليها التراب، وأسلمتها إلى يد اللَّيْلِ، حتى إذا أخذت النخلة زُخْرُفَهَا وَازْيَنْتَ زينتها، وبلغت غايتها، وأشبع القمر صَبْغَهَا، وأحكمتِ الشمس نُضْجَهَا، جنيتها على حين نام السُّمَار، وغفلت الجارةُ والجار، وَأَبَّتْ بها إيابة الأسد بفريسته.. ولما رأينا طلائع الرُّطْب في الأسواق، والجنِّي من بواكير النخيل على الأطباق، هزَّتْ جوانحنا ذكرى العِدَّة، وقلقل أحشاءنا حذرُ الخيبة، فركضنا الدوابَّ إلى حُرْمَتِكَ^(١)، وجعلنا نسرع طمعا في لقائك»

ويذكر ابن بُرد لصاحبه أنهم حين وصلوا إلى مَحِلَّتِهِ لقيهم فتى ظريف، فسألهم عن مقصدهم، فقالوا له: إن جارك وصديقنا وعدنا منذ عام أن يسهم لنا في جَنَى نخلة لديه، لم تتشقق تربة هَجْر المشهورة على الخليج العربي بتمرها عن مثلها، ولا آوت قمارئُ (حَمَام) البصرة إلى نظيرها، فجاءها وليأكلوا منها ويعلموا أن قد صدقهم ويكونوا عليها من الشاهدين. ويقول ابن بُرد:

«قال الفتى يالإخواني في الخيبة أنا ساكنٌ في المحلة التي مَنَبَتْ هذه النخلة في ساحتها وقد صَرَمَهَا (قطعها) منذ خمسة عشر يوما، وقد كنت قبل صَرَمِهَا أَمْنَحُهَا نظراً العاشق إلى المعشوق، فإذا رَأَتْ الطيرُ وهي على سَعْفِهَا ما أوصل إليها من لحظاتي، وأتابع عليها من زَفَرَاتِي، رمتني بأفراد من رُطْبِهَا أَحْلَى من شفاء العذارى، وأنا اليوم أبكى رَبْعاً خاليا».

ويتجه ابن برد بالحديث إلى صاحبه قائلاً: ما هذه الخيانة للعهد، ويسأله شيئاً مما ادخره منها لأعياده واعدأ له أن يناصبوا عنه أعداءه برا وبحرا وأن لا يعصوا له أمراً. ويصف له شيئاً من كلام العرب في النخل وبدء نباته والبلح وتلون حالاته وبعض منظومهم فيه لعله يذيب من جموده ويولد عقيم جوده، ويورد عليه ما أثر من قول الرسول ﷺ: «نعمت العمة لكم النَّخْلَةَ» ويقول: «ليس من حقِّه أن يستبدَّ بخيرها ويمسك معروفها عنهم، ويختم الرسالة بقوله: «نستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بخلك نوالاً، ويمطلك إعجالاً». وهي رسالة طريفة بما فيها من فكاهاة ومن قدرة على التصوير ومن سلاسة في التعبير.

(١) الحرمة: ما لا يحل انتهاكه من صحة أو حق.

(ج) رسالة أهبُ الشاء

سَمَى ابن برد هذه الرسالة: «البديعة في تفضيل أهب (جلود) الشاء على ما يُفترَسُ من الوطاء» وهو فيها يردُّ على من لأمه على استخدام أهب (جلود) الشاء في الجلوس شتاءً وصيفاً دون وَطِيءِ الْفُرُشِ ورافها من قِطْعِ البُسُطِ والسجاجيد والحشاياء. وهو في فاتحتها يدعو الله أن يلهمه الرشاد ويمنحه الصواب ويعرفه بركة التواضع وينفقه من الكبر، ويطلب في المقدمة، ثم يقول للآتمه:

«عَبْتِي - أَعَزُّكَ اللهُ - بارتخاص الأشياء في الشراء، وقلت لم تؤثر ذلك إلا للؤم الخليفة، والهمة الدقيقة، وربما مالت نفس الحريص إلى الرخيص.. وسأفسح للكلام ميداناً، وأثر عليك من الألفاظ مُرْجَاناً، وأعطيك من سُلَاف (خمر) المعاني أَكْوَاباً، وَأَشْمَكُ من روض البيان آسأ.. جَلَّ ماله عبْتٌ وفيه قلت ورددت، وبه أبدأت وأعدت، من إيثاري في الصيف والشتاء أهبُ (جلود) الشاء، ومُراوحتي منها في البرد والحر، بين البَطْنِ والظَهر. وأيُّ بساطٍ مثلها أدلُّ علي التواضع وأعربُ عن القناعة وأدفاً في السَّيْرَةِ (الغداة الباردة) وألين في المَسِّ وأخف في الحَمَلِ وأمكن للثقلَةِ وأوفق لمقدار الحاجة وأجدر بطول المتعة وأبقى على حدث الدهر، وأغنى عن تكلف التَّبْطِينِ ومراعاة أوقات الترقيع. ولا تحوجك إلى خِيَاطٍ ينازلك في السُّومِ (الثلث) ويُنْجلك أمام القوم، وَيُنْتِجُ جَبِينَكَ (يجعله يرشح) بعرق الاختلاف إليه، وذَلَّ التكرار عليه، وهو متبجج (متمكن) في دكانه، ومشتغل عن سوء مقامك باستطابة محادثة صيبانه، فَنَشِمْتَ العَدُوَّ بنفسك، وتبدى ما كان مستوراً من حالك، وهذه (الأهب) بأنفسها مكتفية، وعن سواها مستغنية، مع صيانة المروءة ووقاية ماء الوَجْنَةِ، إن قَلَبْتَهَا لظهورها شتوت على وثارة^(١)، أو صرفتها لبطونها صَفَتْ في لُدونة».

ويذكر ابن برد أن من يطلبها يشتريها في الأضحية تقرباً إلى ربه وطلباً لكريم ثوابه، ويقول إن رخص ثمنها فضيلة لها مع قلة الثبوت والكلفة، ويذكر أن من فضلها أن جعل الله من جنسها كبشا فداء إسماعيل ابن خليله إبراهيم، وسأه في تنزيله ذِبْحاً عظيماً. ويقول لصاحبه إن الصوف زى النسك والمنقطعين للعبادة، وقد استخدمها المعلمون لأنها الأرقف والأرخص والأوفق. ويختتم هذه الرسالة الطويلة بالنصح لعائبه أن لا يستقبل

(١) يشير إلى فروة هذه الجلود من الصوف. والوثارة: الفراش الوثير: الوطء الناعم.

بالذم من يفترشها مغتبطا بها، إذ لا يفترشها إلا الشيوخ الجلَّة من العلماء ذوى المهابة والوقار، يقول:

«لا تجد مفترشاً لها إلا شيخاً رائع الوَسامة، أبيض الشَّعرة، أنس إخوانه، وجلس (ملازم) أسطوانه^(١)، قد حفظ المسائل وملاً من إجازات الشيوخ الخزائن، تقصده الفتيات والفتيان، وتفديه الجارات والجيران، ويتناقس في حضوره أيام الزَّفاف، ويختص بصدور المجالس وطببات الصحف، أو معلماً. قد ائتمنته الملوك على ثمار قلوبها وعماد ظهورها وقطع أكبادها، يقعد عنده الوراقون، ويتحاكم إليه فى الخطوط الناسخون، فإذا كانت أيام الأخمسة والجمعات أطال قلنساته^(٢)، ووالى الزيارة بمنساته^(٣)، وسار مهنماً^(٤) بتسيحه وتقديسه وتهليله وتحميده، يزور الإخوان والمعارف، والكل هس إليه، مقبل عليه. فإن عارضت هذا الجنس ضاقت عليك الأرض، وأخوك من صدقك، ومحبك من نصحك».

والرسالة تصوّر قدرة ابن برد على صنع الأدلة والبراهين بحيث يأخذ على عائبه فى استخدام جلود الشياه كل المسالك، فهى تدل على فضيلتى التواضع والقناعة بالقياس إلى البسط والسجاجيد الفاخرة والحشايا الثمينة المزدانة. ومما يميزها دفء فروتها فى الشتاء القارس، وليونتها فى المسّ وخفتها فى الحمل والانتقال من موضع إلى موضع. ثم هى لا تحتاج مثل الحشايا والبسط إلى تبطين كما لا تحتاج إلى ترقيع. ثم يعرض ابن برد صورة الخياط، وهو يساوم صاحب الحشية أو السجادة فى أجرة الترقيع والتبطين منجلاً له أمام الناس، ويتفقان على الأجر. وما يزال الخياط يرجىء إنجازَه لما يراد منه من تبطين أو ترقيع، ويظل صاحب الحشية أو السجادة يتردد عليه، وجبينه يرشح عرقاً من ذل التكرار عليه، والخياط - مع إلحاحه عليه - منصرف عنه مع سوء وقفته أمامه، مشغول بمحادثة صبيانه أو عماله وكأنما يجد فى ذلك متعة له. وهى صورة بديعة تدل على روعة خيال ابن برد مع جمال الصياغة، وهو جمال يطرد فى نثره لما يعمه من نقاء فى اللفظ وصفاء وعذوبة.

(٣) المنسأة: عصا غليظة تكون مع الراعى بهش بها على غنمه.
(٤) مهنياً: هامساً.

(١) يريد أنه عالم يلازم عموداً فى المسجد يلقي محاضراته عنده ويتخلق حوله الطلاب لشهرته.
(٢) قلنسات: جمع قلنسة.

رسالتا ابن زيدون: الهزلية والجدية

ابن زيدون هو أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي، القرطبي، وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل في الفصل الرابع، وقلنا هناك إن حادثين كبيرين أثرا في حياته، أولهما تبادلها في شبابه الحب مع الشاعرة ولادة بنت الخليفة المستكفي واتصال هذا الحب بينها فترة ثم هجرها له إلى الأبد بسبب ما لاحظته من مغالته إحدى جواربها، وقيل بل بسبب تقده لبعض شعرها، وقد يكون للسببين جميعا. وظل ابن زيدون يبكي حبها ووصلها طويلا، وكَلَفَتْ بعده بشخص كان يختلف مع غيره من شباب قرطبة إلى مُنتداهها هو ابن عبدوس، وهو موضوع رسالة ابن زيدون الهزلية. والحادث الكبير الثاني الذي كان له تأثير في حياته، هو سخط أبي الحزم جهور أمير قرطبة عليه والزجّ به في غياهب السجون مما جعله يستعطفه مرارا إلى أن عفا عنه وردَّ إليه حريته بشفاعة ابنه أبي الوليد، وفي استعطافه كتب رسالته الجدية، وحرىُّ بنا أن نتحدث عن الرسالتين جميعا: الهزلية والجدية.

(أ) الرسالة^(١) الهزلية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة على لسان ولادة إلى ابن عبدوس منافسه في حبها متهكما به ساخرا منه سخريات لاذعة، وما يمضى القارئ فيها حتى يشعر بوضوح أنه استوحى فيها رسالة التربيع والتدوير للجاحظ التي سخر فيها من كاتب معاصر له يسمى أحمد بن عبد الوهاب كان يكثر من ذمه وثلبيه، فوصفه بأنه مربع مدور، وظل في نحو خمسين صفحة من القطع الكبير يخلع عليه صورا ساخرة من الجمال وصوراً أخرى ساخرة من المعرفة، تتخذ شكل أسئلة في تاريخ العرب والأمم القديمة وفي العلوم كيمياء وغير كيمياء وفي الحيوان والجماد وفي الفلسفة والمنطق مع سؤاله عن أسماء كثيرين من الرجال عربا وغير عرب في ميادين الثقافات المختلفة. وكان ابن زيدون رأى أن يجاريه في رسالته، إذ مضى على شاكلته يكثر من أسماء الرجال وما يتصل بهم من التاريخ والأخبار والأحداث، مع محاولته الواضحة في أن يكون لرسالته سياتها الخاصة لا في طريقة عرضه لأسماء الرجال بها فحسب، بل أيضا بما أكثر فيها من ضرب الأمثال ونثر

(١) ابن زيدون. ومرت مصادر ابن زيدون في ترجمته بالفصل الماضي.

(١) انظر هذه الرسالة وتعليقنا عليها في كتابنا عن ابن زيدون (طبع دار المعارف) وراجع شرح ابن نباتة لها في كتاب: سرح العيون شرح رسالة

الآبيات وجلب الأشرطة، مما جعل الرسالة في حاجة شديدة إلى التعريف بما عدد فيها ابن زيدون من الأعلام وأخبارهم ومن الأمثال والأشعار المنتورة، وتجرد لذلك ابن نباتة في شرحه لها، وهو يستهلها على هذه الشاكلة:

«أما بعد أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البيِّن سَقَطُهُ، الفاحش غَلَطُهُ، العائر في ذَيْلِ اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سُقُوطِ الذُّبابِ على الشراب، المتهافتُ تهافتَ الفَراشِ في الشَّهابِ (الضوء).. وإنك راسلتني مستهديا من صلتى ما صَفَّرْتَ (خلت) منه أيدي أمثالك، مرسلا خليلتك مرتادة وقد أعذرت (أجهدت) في السفارة لك، وما قَصَّرْتُ في النياية عنك، زاعمةً أن المروءة لفظٌ أنت معناه، والإنسانية اسمٌ أنت جِسْمُهُ وهَيُولاه (مادته) قاطعةً أنك انفردتَ بالجمال، واستأثرتَ بالكمال، واستعليتَ في مراتب الجلال، واستوليتَ على محاسن الخلال، حتى خيلتُ أن يوسفَ عليه السلام حاسنك (باراك في الحسن) فغَضَضْتُ منه، وأن امرأةَ العزيز رأتك فسلت عنه، وأن قارونَ أصاب بعض ما كُنزْتَ، وكسرى حَمَلَ غاشيتك (مظلتك) وقيصَرَ رعى ماشيتك، والإسكندر قَتَلَ دارا في طاعتك».

ويظل ابن زيدون يورد على ابن عبدوس رجالا وأعلاما تاريخيين عديدين، مدعيا أن جميعهم تصرفوا عن إرادته محاولين الزلفى إليه من مثل أردشير ملك الفرس القديم وجذية الملك العربي الجاهلي. ويقول له إن شيرين زوجة أبريز نافست ابنته بوران فيه وفي حسنه، وكليبا إنما حمى رحاه بعزته، ومهلها أخاه إنما طلب ثأره بهمته، وحاتما إنما جاد بأمواله والسُّلَيْكُ بن السُّلَيْكَة العَدَاءُ الجاهلي إنما عدا على قدميه، وسحبان البليغ إنما كان يتكلم ببيانه، وأن الحجاج إنما تقلد ولاية العراق بحظّه، والمهلب القائد الأموي إنما ظفر بالخوارج الأزارقة بقوته. وليس هناك فيلسوف لليونان أو عالم لهم - ويعدد لهم - إلا صدر عن فكره، وبالمثل ليس للعرب مفكر ولا فيلسوف مشهور إلا منحه القدرة على ابتداعه، وما بلغاؤهم بالقياس إليه؟ إن عبد الحميد الكاتب باري أقلامه وسهل بن هرون مدون كلامه والجاحظ مستمليه، وبالمثل الفقهاء الكبار من أمثال الإمام مالك. بل هو الذي أقام البراهين ووضع القوانين وحدّ ماهية الأشياء وبين الكيفية والكمية وناظر في الجوهر والعرض وفرّق بين الصحة والمرض. حتى إذا بلغ ابن زيدون من ابن عبدوس كل ما أراد من سخرية أخذ يكويه بسياط هجائه معددا صفاته الذميمة، وكأنما جمع كل مثلبة. وتتوالى المثالب، فهو خسيس أرعن مفرط الحمق سييء الإجابة والسمع، ظاهر الوسواس، متنن الأنفاس، كلامه متممة وبيانه فهفهة، ودينه زندقة، وباقل المشهور بالعي

عند العرب بليغ بالقياس إليه، ووجوده عدم، والاعتباط به ندم، والخيبة منه ظفر والجنة معه سقر، وأين هو من ولادة؟ إن الشرق والغرب لا يجتمعان ولا يتقاربان. ويجعلها تهدده وتوعده بسوء المصير حتى كأنما يطلب حثفه، ويقول له على لسانها مقارناً في سخرية شديدة بينه وبين من يختلفون إلى ندوتها من نوايح الشباب الأفذاذ.

«النار، ولا العار، والمنية، ولا الدنية، والحرة تجوع ولا تأكل بشديها، وما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد، فإنما يتيمم من لم يجد ماء.. ولعلك إنما غرّك من علمت صبوتى إليه وشهدت مساعفتى له من أقمار العصر، وريحان مصر، الذين هم الكواكب علوهم، والرياض طيب شيم.. ما أنت وهم؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم، وكألو سيطرة (التنوء) فى العظم منهم. وإن كنت إنما عطرت أزدانك (أكمالك) وجررت سيروالك، واختلت فى مشيتك، وحذفت فضول لحيّتك، وأصلحت شارتك، ومططت حاجبك، ورققت خط عذارك، واستأنفت عقد إزارك، رجاء الاكتنان فيهم، وطمعا فى الاعتداد منهم، فظننت عجزاً، وأخطأت الغرض».

وتضى ولادة قائلة لابن عبدوس فى سخرية مرة: فلو أن عمرو بن هند ملك الحيرة أعطاه برديه وحلته مارية بنت ظالم زوجة أحد ملوك الغساسنة بالقرطين اللذين أهدتها إلى الكعبة، وقلده عمرو بن معد يكرب الفارس القديم سيفه الصمصامة، وحمله الحارث بن عباد سيد وائل فى الجاهلية على فرسه النعام، ما شككت فيه ولا أخفى ذلك كله أصله ونسبه، وهل يجتمع لها فيه إلا خلّتان سيّتان: كأردأ التمر وسوء كبله وهل يقترن عليها به إلا ما اقترن على عامر بن الطفيل الذى دعا عليه الرسول ﷺ فاقرنت غده فى رقبته بموته ميتة ذليلة فى بيت سلوية. وتقول له هازنة به ساخرة إنه كان أجدر به أن يقدر الأمر تقديراً دقيقاً فلا يكلف نفسه ما لا يستطيعه، حتى لا يكون مثله مثل الكلبة برأقش التى غزا أصحابها قوم فلم يعرفوا مكانهم ونبحت فدلّتهم، وضرب العرب بها المثل فى الشؤم، فقالوا «دلّت على أهلها برأقش». ويختم ابن زيدون الرسالة قائلاً على لسانها: «قد أعذرت إن أغنيت شيئاً، وأسمنت لو ناديت حياً، وإن بادرت بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامة كنت قد اشتريت العافية لك بالعافية منك، وإن أنشدت:

لا يؤسّسك من مخدرة قول تغلظه وإن جرحاً^(١)

فعدت لما نهيت عنه، وراجعت ما استعفيت منه بعثت من يزعجك إلى الخضراء

(الريف) دفعا ويستحثك نحوها وَكَّرًا (ضربا) وَصَفَعًا، فإذا صرَّت إليها عبث أكاروها (فلاحوها) بك، وتسلط نواظيرها (متعهدو بساتينها) عليك بما قدمت يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك».

وبدون ريب بلغ ابن زيدون في هذه الرسالة الذروة بالسخرية من ابن عبدوس، وقد أصبح في يده كلُّ عبة تارة يعلو به فيرفعه إلى السموات العليا في القوة والسلطان والعلوم والفلسفة والبيان والبلاغة وتارة يسقط به فيهوى من حائق إلى الحضيض والدرك الأسفل. وهو في كل ذلك يزدري عقله وعلمه وأدبه وفكره وهيبته وكل ما يتصل به. ويسوق ابن زيدون للإغراق في السخرية به أعلام التاريخ القديم والإسلامي وأعلام الفلسفة والعلوم والبيان العربي، وكأنه هو الذي نفت فيهم كل ما امتازوا به. واستكثر في الرسالة من الأمثال ومن نثر الأشعار، وهو لا يطرف فيها بذلك فقط، بل يطرف أيضا بالألفاظ الجارحة الموجعة الملأى بسموم التهكم.

(ب) الرسالة^(١) الجديدة

كتب ابن زيدون هذه الرسالة يستعطف بها أبا الحزم جهورًا أمير قرطبة حين ألقى به في غياهب السجن ووراء قضبانه، لما قيل من نهبه عقارًا لبعض مواليه، وقيل - وهو الأصح - بل لما دُسَّ عليه عند جهور من اشتراكه ضده في مؤامرة فاشلة، وظل يدبج فيه القصائد ويرسل إليه الشفعاء، وهو لا يعفو عنه ولا يصفح، فدبج له هذه الرسالة الرائعة مستهلا لها بقوله:

«يا مولائي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه، أبقاك الله ماضى حدِّ العزم، ثابت عهدِ النعمة، إن سلبتني - أعزك الله - لباس إنعامك، وعطلتني من حلى إنباسك، وأظمأتني إلى برود (بارد) إسعافك، ونفقت بي كف حياطتك (رعايتك) وغضضت عني طرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائى عليك، وأحسَّ الجمادُ باستنادى إليك، فلا غرو قد يغصُّ بالماء شاربهُ، ويقتل الدواء المستشفى به، ويؤتى الحذر من مأمنه.. وإنى لأتجلد وأرى الشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعع، فأقول: هل أنا إلا يد أدمها سوارها، وجبين عضة إكليله، ومشرقي الصقه بالأرض صاقله، وسمهري^(٢) عرضه على النار مثقفه..

كتابه: «قام المتون شرح رسالة ابن زيدون».
(٢) المشرقي: السهري: الرمح.

(١) انظر في هذه الرسالة وتعلقنا عليها كتابنا
عن ابن زيدون، وراجع شرح الصفدي لها في

وهذه النكبة سحابة صَيْفٍ عن قليل تَقْسَمُ، ولن يَرِيَنِي - من سیدی - أَنْ أَبْطَأُ سَيِّهٍ (عطاؤه).. فأبْطَأُ الدَّلَاءَ فَيُضًا أَمْلُوها، وأثقل السحاب مَشِيًا أَحْفَلُها (أملؤها) وأنفَعُ الحَيَا (الغيث) ما صادف جَدْبًا، وألذ الشراب ما أصاب غَلِيلاً».

وابن زيدون - في مطلع رسالته - يسترحم جهورا مستعظفا، فظالما أتني عليه و طالما ظن أنه سيسبغ عليه نعمة، فإذا هو ينزل به عقابا أليبا. ويتجلد للنكبة، ويحاول أن يسرى عن نفسه، ويخال كأنه يد أدامها سوارها أو جبين عضه تاجه أو سيف ركزه صاقله في الأرض أو رمح سواه على النار صانعه. وعنى نفسه بأن نكبته سحابة صيف ستنجلي ويعود إلى سماء الود الصحو والصفاء، وإذا كان عطاء جهور على ثنائه ومدححه أبطأ فإن أبطأ الدلاء فيضاً أغزرها وأثقل السحاب مسيرة في السماء أملؤها، وأنفع الغيث ما صادف أرضا مجدية، وألذ الشراب ما صادف نفسا ظامئة، ويستمر فيهنون من ذنبه مخاطبا جهورا بقوله:

«ليت شعري ما هذا الذنب الذي لم يَسَعَهُ عَفْوُكَ، والجهل الذي لم يأت من ورائه جِلْمُكَ.. وما أراني إلا أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لى نوح: اركب معنا فقلت: (سأوي إلى جبل يعصمني من الماء)، وأمرت ببناء الصرح (لعلني أطلع إلى إله موسى) وعكفت على العجل، واعتديت في السبب، وتعاطيت فَعَقَرْتُ، وشربت من ماء النهر الذي أبْتَلَيْ به جنود طالوت، وعاهدت قريشا على ما في الصحيفة، وانخذلت بثلت الناس يوم أحد، وتخلفت عن صلاة العصر في بني قُرَيْظَةَ، وجئت الإفك على السيدة عائشة الصديقية، وأُنِفْتُ من إمارة أسامة، ومزقت الأديم^(١) الذي باركت يد الله عليه، وضحيت بالأشمط^(٢)، ورجمت الكعبة».

وهو يقول كأنني اقترفت كبيرة مثل كبيرة إبليس حين استكبر وأبى السجود لآدم معلنا عصيانه لربه، أو ارتكبت ما ارتكبه ابن نوح حين عصى أمر أبيه فلم يركب معه في السفينة فكان من المفرقين، أو كأنه ارتكب جريرة فرعون حين أمر وزيره هامان أن يبني له صرحا لعله يرى إله موسى، أو جريرة بني إسرائيل حين عبدوا العجل وحين اعتدوا في يوم السبت فصادوا فيه، أو جريرة عاقر ناقة صالح (قدمم عليهم ربهم بذنبهم) وأهلكهم، أو جريرة جنود طالوت الذي حرم عليهم الشرب من نهر فخالفوه، أو جريرة

(٣) راجع الكعبة الحاجاج في حربه لابن الزبير.

(١) يشير إلى مقتل عمر بن الخطاب.

(٢) الأشمط: عثمان بن عفان.

من تعهدوا لقريش بما في الصحيفة التي كتبوها من مقاطعة الرسول وأصحابه، أو جريرة أبي بن سلول حين انخزل بمن معه من المنافقين عن رسول الله يوم أحد، أو جريرة من تخلفوا عن صلاة العصر مع الرسول في بني قريظة من اليهود، أو جريرة من شاركوا في حادثة الإفك والبهتان على زوج الرسول السيدة عائشة بنت الصديق، أو جريرة من أنفوا من تولية أسامة الصحابي الجليل على رأس جيش، أو جريرة قاتل عمر بن الخطاب أو جريرة قتلة عثمان بن عفان، أو جريرة رجم الحجاج للكعبة، إلى عظام أخرى ذكرها لا يعدّ ذنبه بجانبها شيئا مذكورا. ومضى ابن زيدون يقول إنه لا ذنب له إلا وشاية مشاء بنميم، ويشهد الله أنه ما غش جهورا ولا انحرف عنه ولا عاداه بعد أن تشيع له وأصبح في عداد خاصته مما سؤل لحساده أن يوغروا صدره عليه بوشاياتهم وتنامهم الدنينة، يقول:

« كيف لا تتضرم جوانح الأكفاء (النظرَاء) حسداً لى على الخصوص بك، وتتقطع أنفاس النظرَاء مناقسة في الكرامة عليك؟ وكيف وقد زاننى رسم خدمتك، وزهاني وسم نعمتك، وأبليت البلاء الجميل فى سباطك (صفك) وقمت المقام المحمود على بساطك.. وهل ليس الصباح إلا برداً طرّزته بفضائلك، وتقلدت الجوزاء إلا عقداً فصلته بمأثرك، واستملى الربيع إلا ثناء ملأته بمحاسنك، وبث المسك إلا حديثاً أذعته فى محامدك؟ ما يوم حليلة بسر. ولم أكسك سلبيا، ولا حليتك عطلاً، ولا سمتك غفلاً بل وجدت أجراً وجصاً فبنت، ومكان القول ذا سعة فقلت. حاش لك أن أعد من العاملة الناصبة، وأكون كالدبالة المنصوبة تضيء للناس وهى تحترق، فلك المثل الأعلى وهو بك، وبى فيك، أولى.»

وهو يقول لجهور إنه من الطبيعى أن تضطرم جوانح النظرَاء حسداً وتتقطع أنفاسهم غيظاً لمنزلتى منك وقد ازدنت بخدمتك وازدهيت بنعمتك، وأبليت البلاء الجميل فى صفك ونصرتك وقمت المقام المحمود على بساطك، أنثر بين يديك خلع مدائح المضئنة بفضائلك، وعقود ثنائى المنظومة بدررِ مأثرك، ولكأنا عطرُ الربيع إنما يفوح بمحاسنك وشذى المسك إنما يذيع أحاديث محامدك، ويقول: ما يوم حليلة بسر أى أن ذلك كله مشهور، ويصيح إن جهورا لم يكن سلبيا أو عاريا فكساه ولا عطلاً غير مزدان فحللاه ولا غفلاً غير معلم فوسمه وأبداه، بل لقد وجد أجراً وجصاً فبنى وشاد قصائده، ويقول حاش لجهور أن أعدّ عنده من العاملة الناصبة إشارة إلى آية التنزيل: ﴿وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية﴾ وأيضاً حاش لجهور أن يعده كالدبالة أو فتيلة

السراج تضيء للناس وهي تحترق وتلفظ أنفاسها الأخيرة. وتِعَزُّ على ابن زيدون نفسه، فيقول إنه لن يصبر على الذل والهوان، ويقول إن الأدب خير وطن للأديب وإنه لا يُجفَى في أى مكان ينزل به فأينما توجّه ورد أعذب منهل وضوحك قبل إنزال رحله، وأعطى حكم الصبي على أهله. وكأنه يلّمح بأنه سيفارق وطنه قرطبة إلى من يعرف له حقه ويقدر أديه. وتهدأ نفسه فيعود إلى صوابه، ويعلن محبته لوطنه وأنه لا يؤثر عليه أى وطن كما لا يؤثر على أبى الحزم جهور أى أمير، ويأخذ في استعطافه حتى يعفو عنه ويصفح عن زلته، يقول:

«إن الوطن محبوب، والمنشأ مألوف، واللبيب يحنُّ إلى وطنه حينئذٍ النَّجِيبِ (البعير) إلى عَطْنِهِ (مَبْرَكِهِ) والكريم لا يجفو أرضاً فيها قَوَابِلُهُ (داياته) ولا ينسى بلدًا فيها مَرَاضِعُهُ. هذا إلى مغالاتي بَعْدَ جِوَارِكِ، ومنافستي في الحظِّ من قربك، واعتقادي أن الطمع في غيرك طَبَعٌ (دناءة) والغنى من سواك عَنَاءٌ، والبدلُ منك عَوَزٌ (فاقة) والعِوَضُ لَفَاءٌ (خِسة). وما هذه البراءة ممن يتولّأك؟ والعيلُ عَمَّنْ لا يميلُ عنك، وهلا كان هواك فيمن هواه فيك، ورضاك لمن رضاه لك».

ويظل ابن زيدون إلى نهاية الرسالة يستعطف أبا الحزم جهورا كي يرد إليه حرّيته، ويضيف إليها قصيدة استعطاف بديعة، ويختمها بقوله لجهور: «هَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ، وَأشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ، لِيَتَأْتِيَّ لَكَ الإِحْسَانُ مِنْ جِهَاتِهِ، وَتَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ مِنْ طُرُقَاتِهِ». والرسالة تكتظ بالأمثال وبالأحداث التاريخية في عهود الرسل وفي الإسلام، كما تكتظ باقتباسات من القرآن الكريم والأشعار مع حلّ كثير منها، ومع رهافة الشعور ودقة الحسّ وصفاء الذوق في انتخاب ذلك كله وفي اختيار الألفاظ والتنسيق بينها تنسيقا بديعا. ولكثرة ما في الرسالة من أمثال العرب ووقائع التاريخ والأشعار احتاجت إلى الشرح وشرحها الصفدى، وسمى شرحه «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون» ووضح من كلمة المتون التي اختارها اسما لكتابه أنه شعّر أن الرسالة تشبه المتون لكثرة ما فيها من الأمثال وغير الأمثال، مما يحتاج إلى تفسير وفضل بيان، وهي - كأختها السالفة - آية بديعة من آيات النثر الأندلسي.

رسالة ابن غرسية في الشعوبية والردود عليها

ابن غرسية^(١) هو أبو عامر أحمد بن غرسية، كان من أبناء نصارى البشكنس في شمالى إسبانيا، سبى صغيراً - كما يقول ابن سعيد - وأدبه مجاهد مولاة ملك دانية والجزر المقابلة لها في البحر المتوسط شرقى الأندلس (٤٠٥ - ٤٣٦ هـ) وكان مجاهد من فتيان المنصور بن أبي عامر الصقالبة الذين دان لهم شرقى الأندلس في أوائل عصر أمراء الطوائف أثناء الفتنة التي أطاحت بالدولة الأموية. ولما رأى براعة ابن غرسية البشكنسى في العربية والكتابة أحقه بدواوينه، وأخطأ جولدتسيهر في مقاله عن الشعوبية الإسبانية، فظن أنه كان في خدمة المعتصم ابن صَاحح التجيبى أمير المريّة (٤٤٢ - ٤٨٤ هـ). وله رسالة يذم فيها العرب ويفخر بالعجم كتب بها لا إلى أبي عبد الله بن الحداد شاعر المعتصم بن صَاحح كما ظن جولدتسيهر وبروكلمان، وإنما إلى أبي جعفر أحمد بن الجزار كما جاء عند ابن سعيد، وذكره ابن بسام باسم ابن الخراز وهو تصحيف بدليل هجاء ابن غرسية له الذى أنشده ابن سعيد في ترجمته إذ هجاه بأنه سليل أسرة كانت تحترف الجزارة. ويقول ابن بسام إنه خاطب برسالته الأديب أب جعفر بن الجزار معاتباً له لتركه مدح مجاهد (الصقليى أمير دانية) واقتصاره على مدائح ابن صَاحح التجيبى (العربى) الذى كان أميراً للمرية في حياة مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ هـ وهو معن بن صَاحح مؤسس دولة الصمادية بالمرية (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) لا ابنه المعتصم كما ظن ابن سعيد ومن ظن ظنه من المستشرقين. والرسالة تشغل في الذخيرة نحو تسع صفحات، ونقتطف من فقرها قوله:

«سلام عليك ذا الرَوِيِّ المَرَوِيِّ الموقوفَ قريضه على حَلَّةِ بَجَانةِ أُرشِ اليمَنِ^(٢)،
بزهيد الثمن.. ولو أن القوم خلطوك بالآل، لما ألجأوك إلى الخَبِطِ فى الآل^(٣)، مَهْ، مَهْ^(٤)»

عبد السلام هرون وبها ملخص لمقال جولدتسيهر المذكور. وراجع في أبي جعفر أحمد بن الجزار الذى كتب إليه ابن غرسية بالرسالة وأنه من أسرة كانت تحترف الجزارة المغرب ٣٥٥/٢ - ٣٥٦. (٢) ذا الروى: القصيد. حللة بجانة: سكانها وهى بجوار المرية. أُرش هنا: اقليم.
(٣) الآل الأولى: الأهل والأصل. والثانية: السراب.
(٤) مه: كَفَّ.

(١) انظر في ابن غرسية ورسالته الذخيرة ٧٠٤/٣ وما بعدها والمغرب لابن سعيد ٤٠٦/٢ ويحتمل لجولدتسيهر عن «الشعوبية عند مسلمى الأندلس في مجلة الجمعية الألمانية الشرقية المجلد ٥٣ ص ٦٠١ - ٦٢٠ (طبع لبيزج) وتاريخ الأدب الأندلسى عصر أمراء المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ١٧٠ وما بعدها وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٤١/٥ والمجموعة الثالثة من نواذر المخطوطات للأستاذ

مَنْ أَحْوجَكَ إِلَى رُكُوبِ الْمَهْمَةِ^(١) وَإِذَا يَمَّتْ بطن تَبَالَةَ تَبَّالَهُ، وَصرت ضِعْثًا عَلَى إِبَالَةَ^(٢).. وَأَحْسبُكَ أَنْ أُرزَيْتَ، وَبِهَذَا الْجِيلِ النَّجِيبِ (يقصد مجاهد أو الصقالبة) ازدريت، وما دريت أنهم الصُّهْبُ الشُّهْبُ ليسوا بعرب، ذوى أُنْتَى جُرْبٍ، بل هم القباصرة الأكَاسرة، بِهِمْ لَا رُعاة سُويْهَاتٍ وَلَا بِهِمْ^(٣)، شُغِلُوا بِالْمَادِيِّ وَالْمُرَّانِ، عَنِ رَعَى الْبُعْرَانِ^(٤)، وَبِجَلْبِ الْعَزِّ عَنِ حَلْبِ الْمَعَزِّ، جَبَابِرَةٌ قِيَّاصِرَةٌ، صُقُورَةٌ غَلِبَتْ عَلَيْهِمْ سُقُورَةٌ، صُقُورَةُ الْخُرْسَانِ^(٥)، لَكِنَّهُمْ خَطْبَةٌ بِالْخِرْصَانِ، أرومة روميَّة وجرثومة صُفْرِيَّة.. فَلَا تَهَاجِرْ بَنِي هَاجِرٍ، أَنْتُمْ أَرْقَاؤُنَا وَعَبْدَتُنَا، وَعَتَقَاؤُنَا وَحَفْدَتُنَا، مَنْنَا عَلَيْكُمْ بِالْعِتْقِ، وَأَخْرَجْنَاكُمْ مِنْ رَبِيٍّ (كرب) الرِّقِّ، وَالْحَقْنَاكُمْ بِالْأَحْرَارِ فَغَمَطْتُمْ النِّعْمَةَ، فَصَفَعْنَاكُمْ صَفْعًا، يَشَارِكُ سَفْعًا، اضْطَرَّكُمْ إِلَى سُكْنَى الْحِجَازِ وَالْجَأْكُمْ إِلَى ذَاتِ الْمَجَازِ^(٦).. وَإِذَا قَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقٍ، وَأَخَذَتْ فِي اتِّسَاقٍ، وَقَرَعَتْ الظَّنَائِبِ، وَأَشْرَعَتِ الْأَنْيَابِ، وَقَلَّصَتِ الشِّفَاهِ، وَفَعَرَ الْهُدَانُ فَاهَ، وَوَلَّى قَفَاهَ، أَلْفَيْتَهُمْ ذَمْرَةَ النَّاسِ^(٧) عِنْدَ أَحْمَرَارِ الْبَاسِ، الطُّغْنُ بِالْأَسْلِ، أَحْلَى عِنْدَهُمْ مِنَ الْعَسَلِ، تَزْدَانُ بِهِمُ الْمُحَافِلُ وَالْجُحَافِلُ، كَوَاكِبُ الْمَوَاكِبِ، قُبُولٌ، عَلَى خِيُولٍ، كَأَنَّهُمْ فَيُولٌ، نَجُومُ الرَّجْمِ مِنَ الْعَجْمِ، ضِرَاعِمَةُ الْأَجْمِ، تَبَحَّيْحَتْ عَنْهُمْ سَارَةُ الْجَمَالِ وَالْكَجَالِ، رَبَّةُ الْإِيَاةِ^(٨).. دَوَّخُوا الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، فَاسْتَوَطَنُوا مِنَ الْمَجْدِ الذَّرْوَةَ وَالْمَغَارِبِ غَنُوا بِالْإِسْتَبْرَقِ (الحرير) عَنِ الْبَيْتِ (الكساء) الْمَجْمُوعِ مِنَ النَّعِيَجَاتِ طَعَامَهُمُ الْحَنِيذُ (اللحم المشوى) لَا الْهَيْبُ (الحنظل) يُسَلُّ (شجعان) لِأَحْرَاسِ

العرب. عبدة وحفدة: عبيد وخدم. سفعا: لطمًا على الوجوه. ذات المجاز: سوق في الجاهلية كانت بقرب مكة.

(٧) قامت الحرب على ساق: اشتدت، وكذلك قول العرب قرعت الظنائب وأشرعت الأنابيب. الهدان: الجبان. ولَّى قفاه: انهزم. ذمرة: يحثون على القتال. الأسل: الرماح.

(٨) الجحافل: الجيوش الضخمة. قُبُولٌ: جمع قبيل: ملك. الرجم: الشهب: يتساقطون على الأعداء مثلها. الأجم: جمع أجمة غيل الأسد وهي الشجرة اللتفة. تبحيحت عنهم: وندتهم في عزة وسارة زوجة النبي إبراهيم أم إسحق. الإيافة هنا: الحسن.

(١) المهمة: الفلاة.

(٢) تبالة: بلدة صغيرة باليمن يشير إلى أصل الأسرة الصادحية التجبينية اليمنية. صفت على إبالة: مثل يضرب لليلة فوق الليلة.

(٣) الصهب الشهب: ذو الوجوه المشربة حمرة يريد العجم من صقالبة وغير صقالبة. بهم: بضم الباء فرسان حرب، وبفتحها صغار الغنم.

(٤) المادى: السيوف. المران: الرماح. البعران: جمع بعير.

(٥) صقورة: جمع صقر. شقورة: حمرة الخرسان: الصقالبة. كانوا يلقبون أيام الدولة الأموية بالخرسان لعجمة لسانهم، ويقول إنهم فصاح بالخرسان أى الرماح.

(٦) هاجر زوجة إبراهيم: أم النبي إسحاق أصل

مُسَلِّ (جريد النخل) ولاغراسُ فُسل (صغار النخل).. فكُفَّ أيها الشَّانِ، فلهم عظيم الشَّانِ واليَدُ الطُّولِي إذ تَخَلُّصُوكُم من يد الحُبْشان.. رَسَخَتْ في المجد أصولنا وفروعنا، ومَنْ يَطُولنا، وكل الوَرَى قد شمله فضلنا وطُولنا^(١)، ذوو الآراء الفلسفية والعلوم المنطقية حَمَلَة الأسترلوميقي والجومطريقي، والعَلَمَة بالأرتماطيقي وأنولوطيقي والقَوَمَة بالموسيقى والبوطيقا^(٢)، والنَهْضَة بعُلوم الشرائع والطبائع، والمهرة في علوم الأديان والأبدان، ما شئت من تدقيق، وتحقيق، حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية لا على وصف الناقة الفَدْنِيَة (الضخمة).. فلا فخر معشر العُرَبان العِرَبان، بالقديم المَقَرَّى الأديم^(٣)، لكن الفخر بابن عَمَّنَا (يريد الرسول صلى الله عليه وسلم)، الذي بالبركة عَمَّنَا، الإِسْماعِيلِي الحَسَبِ، الإِبْرَاهِيمِي النَسَبِ الذي به إنما انتشلنا الله تعالى وإياكم من الغواية والعماية، ولا غَرَوَ أن كان منكم جِبره وسِبره، ففي الرُّغام يُلْفَى تِبْرُهُ^(٤)، وبنوه بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

«الله مما قد برآ صفوةُ
وصفوةُ الخَلْقِ بنو هاشمٍ
وصفوةُ الصَّفوةِ من بينهم
محمدُ النورُ أبو القاسمِ»

بهذا النبي الأُمِّيُّ أفاخرُ مَنْ يفخر، وأكثرُ جَمِيعٍ من تقدم وتأخر، المنيف (الرفيع) الطرفين، الشريف السَلْفِيْن، المتلقِّي بالرسالة، والمنتقى للأداء والدلالة، أصلٌ عليه عددُ الرَّمَلِ، ومَدَدُ التَّمَلِ، وكذلك أصلٌ على واصلِ جناحه، سيوفه ورماحه، صحابته الكرام، عليهم من الله أفضل السلام».

وابن غرسية يفتتح رسالته بالسخرية من أبي جعفر بن الجزار الذي يقف قريضة وشعره على نَزَلَة بجاية والمرية بإقليم اليمن في شرقي الأندلس مختصاً به عرب الأسرة الصُّادِحِيَة أمراء المرية وما والاها دون مجاهد الصقلبي ذى الأصل الشريف والنسب الرفيع، ويأخذ في التهكم بابن الجزار والتهجم على العرب، فهو قد تعلق بآل أو بسراب، وممَّ وجهه نحو تباله اليمينية، فتباً له لقد أصابه البله، وأصبحت محنته محنتين. ويعجب أن

(١) الفارب: الكاهل يريد مادون الذروة. الشان

(١) الفارب: الكاهل يريد مادون الذروة. الشان

(٣) المفرى الأديم: المعزق جلده.

الأولى: الشانء: المبيض الحاقن. الطولى: سايغة

(٤) الغواية والعماية: الضلال. جبره وسبره:

النعم. ويشير: بالحيشان إلى حكمهم اليمن فترة

حسنة وبهاؤه. الرُّغام: التراب. التبر: فتات

قبل الإسلام. يطولنا: يفوقنا. الطول: الفضل.

الذهب.

(٢) الأسترلوميقي: علم الفلك. الجومطريقي:

الهندسة. الأرتماطيقي: الرياضة. أنولوطيقي:

يزرى ابن الجزائر على مجاهد وقومه الصقالبة. ويبدو أنه كان قد هجاه، فأخذ يشيد به ويقومه الصَّهْب حمر الوجوه، ويقول إنهم ليسوا بعرب ذوى نوق جُرْب. ويضم إليهم العجم قاطبة، ويقول إنهم ملوك قياصرة وأكاسرة، فرسان لا رعاة أغنام ولا غارسو زروع يعيشون للحرب وحمل السلاح. ويستغلي ما قيل من أن هاجر أم إسماعيل كانت جارية لسارة زوجة أبيه إبراهيم، فيزعم أنهم منوا على العرب بنعمة العتق ونعمة الحرية، وأسكنوهم الحجاز إشارة إلى نزول هاجر وابنها إسماعيل بمكة. ويطنل في الحديث عن فروسية العجم ويطولتهم في الحرب وانشغالهم بالسيوف عن الملاله وربات الأقراط أو الشنوف. ويقول إن لباسهم الإسترى لا الصوف وطعامهم اللحم المشوى لا الخنظل ولا الضب، وسكناهم القصور لا الخيام وبيوت الشعر. ويفخر على العرب بأن الفرس من العجم خلصوا اليمن من يد الحبش أيام الجاهلية، كما يفخر بأمر العجم سارة ويتغنى بجهاها وكهاها. وأيضا يفخر بأن العجم أصحاب العلوم الفلسفية والفلكية والهندسية والرياضية والمنطقية والموسيقية والشعر، لا أصحاب النوق الفدنية الضخمة. وابن غرسية فى كل ذلك يستمد من أصحاب الشعوبية فى القرن الثانى والثالث بالعصر العباسى، وكانت أهم مطاعنهم على العرب - كما أوضحته فى كتاب العصر العباسى الأول - أنهم كانوا فى الجاهلية بدوا رعاة أغنام وإبل، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدنية ولا علوم، فأين هم قديما من ملك الأكاسرة والقياصرة؟ وأين هم من علوم الفرس واليونان والرومان. وكان الشعوبيون يصدرون فى ذلك عن بغض للإسلام، ولذلك اقترنت الشعوبية عند كثير منهم بالزندقة والإلحاد فى الدين الحنيف. وشعوبية ابن غرسية فى رسالته لا تقترن بالحد ولا بزندقة، ومع أنه شعوبى ذميم يعلن فى نهاية رسالته تمجيده للرسول ﷺ ولصحابته.

وليس بين أيدينا فى الأندلس أعمال صدرت عن نزعة الشعوبية سوى هذه الرسالة لابن غرسية، وحقا هناك كتاب صُنّف قبلها سُمي: «الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة». ومن المؤكد أن نزعة الشعوبية فى الأندلس كانت نزعة فردية، ولم تتحول - كما تحولت فى القرنين الثانى والثالث بالعراق - إلى نزعة اجتماعية تقوم على معاداة العرب والإسلام. ولم تكدر رسالة ابن غرسية تشعلها حتى انطفاة، بل لقد أطفأها هو نفسه فى نهاية رسالته إذ أعلن تمسكه بالدين الحنيف وإشادته بالرسول وصحابته من المهاجرين والأنصار. ومع ذلك نجد ردودا عليه، لكن لا بأبحاث مطولة تهدم الشعوبية، كما نرى عند الجاحظ وابن قتيبة مما عرضناه مفضلا فى حديثنا عن تاريخ الأدب العربى

بالعصر العباسي الثاني وإنما برسائل تنقض مزاعمه نقضا حمية للعرب والعروبة. وفي الذخيرة لابن بسام ثلاث رسائل منها رسالة لابن الدودين وثانية لعبد المنعم بن من الله القروي، وثالثة لشخص يسمى ابن عباس لم يوضح هويته ابن بسام. وظلت ردود تدبج في القرن السادس الهجري، منها رد لابن أبي الخصال باسم: «خطف البارق وقذف المارق في الرد على ابن غرسية الفاسق». وسقط هذا الرد من يد الزمن كما سقط رد الفقيه أبي مروان عبد الملك بن محمد الأوسي، ورد عبد المنعم بن الفرس، ورد عبد الحق بن فرج، ووصلنا رد أبي يحيى بن مسعدة المعاصر لعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين وكذلك رد أبي الحجاج يوسف البلوي المتوفى سنة ٦٠٤ إذ سجّله في موسوعته: ألف باء، وهو يكثر فيه من الشعر. ونقف قليلا عند الردود الثلاثة الأولى ورد أبي يحيى بن مسعدة.

وأولى الرسائل الثلاث عند ابن بسام رسالة أبي جعفر^(١) أحمد بن الدودين البننسي، ويقول ابن بسام إنه أملاها عليه بالأشبونة سنة ٤٧٧ وهو يفتتحها بسبب ابن غرسية مع تهديد شديد ومع هجاء قومه من العجم هجاء مقذعا أشد الإقذاع رادا كل مثلية للعرب في رسالة ابن غرسية إلى محمّدة لهم وكل محمّدة للعجم إلى مثلية، ومن قوله فيها:

«أخسأ أيها الجهول المارق، والمردول المنافق، ثكلتكم أمك، حبرّت بحبرك لذهاب خبرك، ومشقت^(٢) في قرطاسك لمشق رأسك، وما حقيقة جوابك على خطلي خطابك إلا سلّبك عن إهابك (جلدك) وصلّبك على بابك، وأقسم ببارئ النسم، وناشر الأمم من رفات الرمم.. لأخلدناك سمرًا غابرا، ومثلا ساترا، أو تحترّم بزّارك^(٣) وتلحق بأديارك، مالك، ومقرّ آلك، أسرتك الأردلين، وعترتك الأنذلين الصهب (الحمرة) أكلة الجيف.. وأما فحرك برّبة الإياة (سارة) فياليتها حين ولدتكم ثكلتكم، فلقد سرّبتموها عارا مجدّدا، وعصبتم بها سنارا (عارا) مخلّدا، حين خمتم^(٤) عن الكفاح، حذر الصوارم والرماح، فأسلمتم لعداتها، من بناتها، كل طفلة رداح^(٥)، جائلة الوشاح^(٦)، ذات تغرّ

(١) انظر في ترجمة ابن الدودين ورسائله الذخيرة

٧٠٣/٢ وما بعدها وراجع ترجمته في المغرب

٢٢٢/٢ ورسائله في مجموعة هرون.

(٢) مشقت: طعنت. مشق: طعن وقطع.

(٣) الزنار: حزام كان يشده النصارى في

أوساطهم تميزا لهم.

(٤) خمتم: جيتتم ونكلتم.

(٥) طفلة: ناعمة. رداح: ضخمة الردف.

(٦) جائلة الوشاح: كناية عن دقة الحصر.

كالأقاح، وِعْرَةٌ كالصباح.. ووصفك قومك بأن ليسوا حَفْرَةً أَكْرَ^(١)، ولا حَفْرَةَ عَكَرٍ^(٢)،
الله أجل الأَكْرَ أن يَحْفَرُها، والعَكَر أن يَحْفَزوها، لكنهم حَفْرَةَ جِحْشان، وحَفْرَةَ كهوفٍ
وغيران^(٣)، اتخذوها مَحْباً من قبائل الرُّبَّان، ومَلْجأ من وَقَع الصَّوارم والمُرَّان، فعل
الخِزَّان^(٤) واليرابيع والجُرِّدان. وأما وصفك قومك أنهم مُجْدٌ، نَجْدٌ، فهيهات تلك صفات
قومنا العرب أولى اللِّسَن والبيان والإِسْهاب في الصواب، والحكمة وفصل الخطاب،
أُنْدِيَتهم عِراضُ المنيَّة، وأرْدِيَتهم بِيضُ العِشْرِفيَّة، ولَبُوسهم مضاعفةُ المَازِيَّة^(٥)،
مجالسهم السُّروج، وريحانهم الوَشِيح^(٦)، مُناهم، تعجيل مَناياهم، أسودُ الأَغِيال^(٧)،
حُماة الأشبال.

والرسالة الثانية عند ابن بسام في الرد على ابن غرسية رسالة^(٨) أبي الطيب
عبد المنعم بن من الله القروي، دخل الأندلس، ودرَّس الحديث في شرقها إلى أن توفي
سنة ٤٩٣، وكان أديبا شاعرا، واطلع على رسالة ابن غرسية فاستثارتها، وكتب نقضا لها
رسالة سماها «حديقة البلاغة ودوحة البراعة، المورقة أفنانها، الثمرة أغصانها بذكر المآثر
العربية ونشر المفاخر الإسلامية والرد على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم الأعجمية» وهي
تمتد في الذخيرة إلى نحو خمس وعشرين صحيفة، ويقول له في مطالعها:

«أخبرني عنك أما كانت للعرب يدٌ تشكرها، ومِنَّةٌ تذكرها؟ أما جَبَرَتْ نَقِيصَتَكَ؟
أما رفعت حَسِيصَتَكَ؟ ألم تُرَبِّك فينا وليدا؟ ألم تتخذك بها تليدا؟^(٩) ألم تُعَن بتخريجك
وتدريجك؟ أما أنطقتك بعد العجمة؟ أما أسلقتك^(١٠) عقب اللكنة، حتى إذا اشتدَّ
كاهلك، وقوى ساعدك، كفرت نعمتها لديك، وتثرت عصمتها من بين يديك.. وهات أرنا
مفاخرَك نرك مسأخرَك، أنت صاحبُ الشَّهْبِ الصُّهْبِ أين أنت عن السُّمْرِ القُمْرِ^(١١)،
البيضِ غُرَّرا وصِفاحا^(١٢)، الدُّعْجِ عيونًا ورمَاحا، البلُجِ^(١٣) وجوها وسماحا؟ سَروا

(١) أكر: حفر.

(٢) عكر: إيل.

(٣) جحشان: جمع جحش. غيران: جمع غار.

(٤) الصوارم: السيوف. المران: الرماح. الخزان: أولاد الأرانب. الجرذان: الفئران.

(٥) المشرفية: السيوف. المازية: الدروع.

(٦) الوشيج: الرماح.

(٧) الأغيال: جمع غيل: بيت الأسد.

(٨) انظر في ترجمة ابن من الله ورسائله الذخيرة

٧٢٢/٣ - ٧٤٦ وراجع فيه الصلة: ٣٧١ وانظر في

رسائله المجموعة الثالثة من نواتر المخطوطات

لهرون.

(٩) تليدا: هنا: مقيا.

(١٠) أسلقتك: أتاحت لك السليقة العربية.

(١١) القمر جمع أقمر: المشرق الوجه.

(١٢) الصفاح: السيوف.

(١٣) البلج: المشرقون.

(أوقدوا) عليكم نارَ الحرب، بتلك الأئنيق الجُرب، فكسروا أكاسرتكم، وقصروا قياصرتكم، فسفكوا دماءهم، وأباحوا أحماءهم^(١)، وأخمدوا نارَ صولتهم، ومحو آتارَ دولتهم، وطهروا الأرضَ المقدسةَ من أنجاسكم والمسجدَ الأقصى من أرجاسكم. ويحك يمَ أثرتَ (فضلت) وبمن كاثرتَ (فخرت) أما استحييتَ مما انتحيتَ؟ هل كانت العرب إلا كنزَ عزٍّ وذُخْرَ فخر، وخبينةَ ذخرها الله إلى الوقت المحتوم ليختار منها صفيته، وميزها ليميز منها حفيته. يمشى أحدهم إلى الموت ثابتةً وطأته، فسيحةً خطوته، شديدةً سطوته، لبقًا بتصريف القنائة بنائه، بصيرا بمهج الدارعين سناؤه.. أليس شعأركم: الهرب، الهرب، هذه العرب.. وما تركوا من الأعاجم عاجما، ولا ناجما، وساروا يذبحون البرَّ ذبحا، ويسبحون البحر سبحا، حتى طرقكم طارقهم^(٢) في هذا الطرف، ورشقهم راشقهم في هذا الهدف، وملكوا أرضكم بساحتها، وأحاطوا بها من ناحيتها، سلبوها بأقطارها وحلبوها من أشطارها».

ويطيل ابن من الله في الفخر بدول العرب قبل الإسلام، وبشجاعتهم وفروسيتهم، وما يزال يتتبع مفاخر العجم عند ابن غرسية ناقضا لها حتى في العلوم. وينوه بعلم العرب في الفلك والطب وبراعتهم في الغناء والموسقى. ويضع له أمام عينيه فخر العرب برسولها محمد سيد ولد آدم الذي به بزت الأمم، ويطلب إليه أن يتوب توبة تهبه وتنجيه. والرد الثالث الذي ساقه ابن بسام يذكر أنه اقتبسه من كتاب^(٣) لابن عباس رد فيه على ابن غرسية، ولا يعرفنا بشخصية ابن عباس هذا، وحديثه يدور على الهجاء المقذع ولا يخرج عما رأينا في الرسالتين السالفتين من نقض مزاعم ابن غرسية نقضا يصيب قومه العجم في الصميم.

ومثل هذه الردود في الرد المفحم على رسالة الشعوبية لابن غرسية رسالة^(٤) أبي يحيى ابن مسعدة، وهو يستهلها بهجاء شديد فابن غرسية غثيث (لا خير فيه) آبق وقاح لثيم الجدود. وبعد قرع صفاه، وصنع قفاه، ينتقل إلى الحديث عن دين العجم وأقانيمه الثلاثة وعقيدة التثليث وينكر أن يكون إبراهيم الخليل أبا للعجم أو تكون سارة زوجته أمًا لهم

(٤) راجع في أبي يحيى بن مسعدة ورسائله

المجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات

لعبد السلام هرون.

(١) أحماء: جمع حمى.

(٢) تورية لطيفة عن طارق بن زياد فاتح

الأندلس.

(٣) انظر الذخيرة ٧٤٦/٣.

أو تكون هاجر أمةً لسارة. وينقض على ابن غرسية كل ما أشار إليه من خبر أو أسطورة تتصل بالعرب، ويشويه ويشوي العجم معه بسياط من أهاجيه، ويتهم على ما افتخر به من علوم الأعاجم، ويقول إنه كفخر الجارية يهودج سيدتها، إذ العلوم التي ذكرها إنما هي علوم اليونان والفرس والكلدان. ويتهم على موسيقاهم التي يندبون بها في نواحيهم ويقصفون عليها في أعيادهم. ويفخر بانتصار العرب على الفرس والروم في القادسية واليرموك. ويتمدح بما يجلبه العجم للعرب من القيان والدنان، كما يتمدح بشغف العرب بالمرأة وما لهم فيها من الغزل الرقيق مع ما يميزهم من الشجاعة والإقدام حتى ملكوا الأرض، وتلك منازلهم منها بكان الغرة. ويقول ابن مسعدة: كفى ابن غرسية والعجم أن في العرب رسول الله هادينا ومرشدنا سيد البشر وشفيح هذه الأمة وسفير يوم العرض وإمام أهل السموات والأرض، وبه يفاخر العرب البشر، وينظرون الشمس والقمر. ويشيد ابن مسعدة في ختام الرسالة بابن تومرت داعية الموحدين وخليفته عبد المؤمن بن علي مؤسس دولتهم في المغرب والأندلس.

وواضح - مما تقدم - أن الشعوبية في الأندلس لم تؤيدها إلا رسالة وحيدة لابن غرسية البشكنسي، وكأنها شيء عارض أو كأنها حجر ألقى في بحر لجي للعروبة، فلم تترك أثراً وراءها سوى ما كان من كثرة الردود عليها طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة، وهي كثرة تدل - دلالة بيّنة - على تعمق نزعة العروبة في الأندلس وأن الأندلسيين كانوا يستشعرونها دائماً بقوة، أما ما نقرؤه أحياناً عن عالم أندلسي أو أديب هناك من أنه كان شعوبياً فإنما كان يوصف غالباً بذلك لنزعة وطنية تجعله يشيد بأبناء وطنه لا لنزعة شعوبية معادية للعرب. وقد ظلت الأندلس بعيدة عن استشعار تلك النزعة كما ظلت بعيدة عن استشعار نزعة الزندقة والإلحاد المعادية للإسلام.

رسائل نبوية ومواعظ

(أ) رسائل نبوية

للأندلسيين كتابات كثيرة في مناقب الرسول ﷺ، على شاكلة كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض حافظ المغرب والأندلس المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ولسنا نريد الحديث عن مثل هذه الكتابات الجليلة إنما نريد أن نتحدث عن رسائل نبوية كثيرة صور فيها الأندلسيون شوقهم الحار لاكتحال عيونهم برؤية الروضة الشريفة

ضارعين إلى صاحبها عليه السلام أن يكون شفيعهم إلى غفران ربهم يوم القيامة، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. ومنذ أواخر عصر أمراء الطوائف تتكاثر الرسائل النبوية إذ أخذ الكتاب في الأندلس يستشعرون محنة بلدهم وما يتهددها من الأخطار فبثوا شكواهم إلى الرسول ﷺ في رسائل تفيض بوجد ملتهب لزيارة قبره الشريف وبتوسل ضارع لشفاعته يوم الحشر الأكبر. وأخذوا - مع تقدم الزمن - يضمّنون رسائلهم بعض الأحداث في الأندلس آملين من الرسول الغوث والعون على أعدائهم وأن تدور عليهم الدوائر. ومن طريف ما نقرأ في تلك الرسائل رسالة لأبي القاسم بن الجد المتوفى سنة ٥١٥ ومرت بنا ترجمته، وله رسالة نبوية كتبها على لسان صديق صدر من بيت الله الحرام وزيارة قبر رسوله عليه السلام، وقد امتلأ قلبه شوقاً إلى العودة لزيارة الروضة الشريفة، مؤملاً في شفاعته، والحشر في عداد زممرته وجماعته، وفيها يقول ابن الجد: (١)

«صلوات الله على خاتم الرُّسل وناهج السُّبل، وناسخ جميع المِلل.. وعليه من لطائف التسليم ما يُرَبِّي على عدد النجوم، ويُرِزِي بالمِسْكِ المختوم، وَيَقْتَضِي باتصاله رضا الحيِّ القيوم.. ولما صدرت يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأت هيبتك ومحبتك أرجاء فكري، وفضاء صَدْرِي. وغَشِيَنِي من نور برهانك ما بَهَّرَ لِي. وعمرَ قَلْبِي، لحقتني من الأسف لبعث مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أودَعَ جَوَانِحِي النهايا، وأوسَعَ جَوَارِحِي اضطراباً، وأشعرَ أُمْلِي عَوْدًا إلى محلِّك المعظَّم وإيابا، وكيف لا أحنُّ إلى قربك، وأتهالك في حُبِّك، وأعفرُ خَدِي في مقدِّسِ تَرَبِّك، وبك اقتديت فاهتديت، وكيف لا يتحرَّك نحوك نزاعِي، ويتأكَّد انقطاعِي. وبك استشفاعِي، وإنيك مفزعِي يوم الداعي، فلا تنسَ لِي - يا رسولَ الله - عِبَادَتِي بِكَ مَبَادِي، وإذكرتني في أيام العظيمة المشهود، عند حَوْضِكَ لمورود، وطَّنِّكَ الممدود، ومقامك المحمود.

رسالة تصور هذا الشوق المضطرب في قلب من مسه يسعد بزيارة الروضة الشريفة ويتمنى بنورها الباهر. وما إن يعود زوره إلى ماضيه حتى يضطرب شوقه من جده لينعم بزيارته أملاً أن يكون له حظ في شفاعته صفو الرحمن وحبيبه المصطفى من خلقه. ويذكر ابن خبير الإشبيلي في فهرسته أن لابن السيد لطفيوسى عبدالله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ رسالة كتب بها إلى قبر الرسول ﷺ، وبالمثل ذكر ابن خير أن لابن أبي الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ - ومرت ترجمته - رسالة كتب بها متوسلاً إلى قبر الرسول

(١) انظر الرسالة بترجمة ابن الجد في الذخيرة

ومعها مقطوعة شعرية، كتبها بلسان أحد الزمى (المقعدین) آملاً في شفائه، فلما وضعت عند القبر الشريف برئ المقعد بإذن الله وبركة رسوله الأمين. وتظل هذه الرسائل النبوية تكتب من الأندلس وترسل إلى الروضة النبوية طوال الحقب الأندلسية التالية، ويلقانا من كتاب هذه الرسائل ابن الجنان وسنخسه عما قليل بترجمة. وكان يعاصره أبو الحسن^(١) الجياني على بن محمد الأنصاري الذي تولى القضاء ببعض نواحي إشبيلية، واستكتبه آخر أمراء الموحدين: الرشيد (٦٢٩ - ٦٤٠ هـ) وظل يتولى الأعمال السلطانية حتى توفي سنة ٦٦٣ للهجرة، وله رسالة بارعة كتب بها إلى الروضة الشريفة وفيها يقول^(٢):

«إلى سَيِّدِ المرسلين، ورسولِ رب العالمين، الذي جُعِلَتْ له الأرض مَسْجِداً وطهوراً، وكان - ولم يزل - منتقلاً من صلب آدم نُورا.. المصطفى المختار الذي انشَقَّ له القمر، ودان له الأسود والأحمر، ولاح النور الإلهي من قَسَماته، وعَرَفَه الكهنة والأخبار قبل كونه بِسَماته، بُشِّرَى الكليم^(٣) الميمون النقيبة^(٤) والطلیعة، المشير إلى الأصنام فخرتْ صَرِيعة.. من العبد المذنب الذي تُبْطِئُه الأقدار، وعاقه الفلك المُدار، عن الحلول بمشاهدك الكريمة، والمُثول في معاهدك التي هي لِصَادِي الأمل أنقَع ديمة^(٥).. كَتَبْتُهُ، وأنا أتَنفَسُ الصُّعْدَاء^(٦)، وأناجِي بل أَعْظِيُ أهل زيارتك السعداء، ولزُفَرَاتِ تصعَّدُ وانحدار، وللعبرات تردُّد في الجفن وانهمار، وكيف أُلذِّ حياةً ولم أعبر لزيارتك سَبَباً^(٧) ولا لُجَّة، ولا أقمت على دعوى الشوق إليك بُرْهانا ولا حُجَّة، لَأَلْتِمَّ مواطبتي سَعَى فيها بالوحي الرُّوح الأمين، وتخطي عَرَصاتِها^(٨) سيِّد المرسلين كيف لي أن أَمْرُغَ الخَدَّ في عَبيير ثَرَاها، أو أبلغ الجَدَّ^(٩) الأعظم عندما أراها، اللهم ياربَّ أنجِدْ عبدك المسيء وأعنه على أداء الفريضة، وطيب قلبه بانتشاق ریح طَيِّبة^(١٠)، ولا تجعل أمله فيك ورجاءه في كرمك إلى إخفاقٍ وخيبة»

والرسالة طويلة، وقد ذكر فيها أبو الحسن الجياني طائفة من المعجزات النبوية. ويقف

-
- | | |
|---|---|
| (١) انظر في ترجمة أبي الحسن الجياني الذيل والتكملة للمراكشي (تحقيق د. إحسان عباس) | (٦) الصعداء: المشقة. يتنفس الصعداء: يتنفس نفساً ممتداً. |
| (٢) ٢٨٧/٥ وما بعدها. | (٧) السبب: الفلاة. |
| (٣) انظر الرسالة عند المراكشي ٢٨٨/٥. | (٨) عرصات: ساحاتها. |
| (٤) الكليم: موسى عليه السلام. | (٩) الجد: الحظ. |
| (٥) النقيبة: الطبع والسجية. | (١٠) طيبة: المدينة. |
| (٦) صادي: عطشان. ديمة: سحابة هائلة. | |

على باب الروضة الشريفة مسترحما لذنبه شفيعَ المذنبين يوم الهول الأكبر الذي تغذى بحبه طفلا وشابا وكهلا، وإنه ليأمل في اللقاء بحبيبه، وفي فؤاده لوعة لا تنطفئ وفي عينيه دموع لا تجف، وإنه ليتمنى لو طُيب وجناته بتراب طيبة وتحقق له هذا الأمل العظيم. ويدعو ربه ضارعا أن ينيله أداء فريضة الحج وزيارة الرسول الكريم حتى يفوز بسعادة ما تماثلها سعادة.

وتسقط حينئذ مدن الأندلس العظمى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وطليطلة وبطليوس في حجر حملة الصليب الشماليين، ونرى هذه الرسائل النبوية الموجهة إلى الروضة الشريفة تضم إلى تصوير التعلق بالرسول والشغف بزيارته والتوسل إلى شفاعته تضرعا إليه كي ينصر المسلمين في الأندلس على أعدائهم الشماليين، ومن خير ما يمثل هذه الرسائل رسالتان^(١) للسان الدين بن الخطيب كتبهما إلى الرسول عليه السلام على لسانى سلطانى الأندلس أبى الحجاج يوسف الغالب بالله (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) وابنه محمد الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) وربما كانت رسالته الأولى أروع من أختها الثانية، وقد افتتحها بقصيدة بدعية، يصور فيها الشوق الذى أضنى أبا الحجاج لزيارة قبر الرسول ﷺ، ويفخر بأن جده سعد بن عبادة كان من أنصار دينه الحنيف. ويعتذر بتقصيره عن زيارته باشتغاله بجهاد الجلائقة والقشتاليين حملة الصليب الشماليين، وتلى ذلك الرسالة، وهى طويلة، ويفتحها لسان الدين على لسان سلطانه أبى الحجاج بقوله:

«إلى رسولِ الحقِّ، إلى كافَّةِ الخلقِ، وعَمَّامِ الرحمةِ الصادقِ البرِّقِ، والحائِزِ في ميدانِ اصطفاءِ الرحمنِ قَصَبِ السَّبْقِ، خاتَمِ الأنبياءِ، وإمامِ ملائكةِ السماءِ، ومن وَجَّبتْ له النبوةِ وآدمَ بينِ الطِّينِ والماءِ.. نبيُّ الهدى الذى ختمَ بهِ الرسالةُ ربُّه، وجرى فى النفوسِ مجرى لأنفاسِ حُبِّه، الشفيعُ المشفَعُ يومَ العَرَضِ، المحمودُ فى مَلَأِ السماءِ والأرضِ.. فائدةُ الكونِ ومعناه، وسرُّ الوجودِ الذى بهرَ سَنَاهُ، مَنِ الأنوارِ من عنصرِ نورهِ مستمدَّة، والآثارُ تَخْلُقُ^(٢) وآثارُهُ مستجدَّة، مَنِ طُوى بِساطِ الوحيِ لفقده، وَسُدَّ بابُ الرسالةِ والنبوةِ من بعده».

وهذه القطعة الرائعة في تمجيد الرسول يغمسها ابن الخطيب في فكرة الحقيقة المحمدية

(١) تصدق في رسالتين الإحاطة (طبعة خان

٥٢٧ وما بعدها، وراجع في الرسالة الأولى

صحح الأعشى ١٤/٦٩٦

١٤٠٠، تحقيق: تيلي.

التي رُدَّدها بعض الصوفية ذاهبين إلى أن الروح المحمدية سبقت في الوجود صورة محمد الجسدية، وهو بذلك يسبق آدم، بل يسبق جميع الكائنات وكأنه مبدأ الرسل وخاتمهم، بل مبدأ الوجود جميعه، فكل نور في الكون مستمد من نوره ومستعار منه. ويستمر ابن الخطيب في هذا التمجيد متحدثا عن معجزات الرسول، قائلا إن الرسالة من عتيق شفاعته وعبد طاعته. ويصور تشوق أبي الحجاج إلى الاكتحال بمشهد روضته الشريفة، حتى يطفئ غلته ويسكن لوعته، ويعتذر بجهاده لحملة الصليب وما يلقى في هذا الجهاد هو وجنوده من أهوال تعوقه عن أن يشد الرحال إلى الروضة العبقرة الطاهرة، يقول:

«عافتني عن زيارتك العوائق إذ أصبحتُ بين عدوِّ تتكاثف أفواجهُ، ويحجبُ الشمسَ عند الظهيرة عَجَاجُهُ»^(١)، في طائفة من المؤمنين بك ووطنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم، واستعذبوا في مرضاة الله تعالى ومرضاتك بوسهم، يطربون من هيبة^(٢) إلى أخرى، ويتلفتون والمخاوف يُمنى ويُسرَى، ويقارعون - وهم الفئة القليلة - جموعاً كجموع قيصر وكسرى، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة الله تعالى هي العليا، فيأله من سرِّب مروع، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصبية حمر الحواصل^(٣)، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل^(٤)، والصليب قد تمطى ومد ذراعيه.. وما ضعفت البصائر ولا ساءت الظنون، وما وعد به الشهداء تعتقده القلوب حتى تكاد تراه العيون إلى أن تلقاك غدا إن شاء الله وقد أبلينا العذر، وأعملنا في سبيل الله وسيلك البيض والسمر^(٥)، وأرغمنا الكفر».

وهذه القطعة من الرسالة تصور الجهود المضنية التي كان يبذلها مسلمو الأندلس في جهاد حملة الصليب، وقد جاء وهم - كالدُرُّ عند انتشاره - من شمالي إسبانيا ومن البلدان الأوربية، يريدون أن يقتلعوهم من البقية الباقية من ديارهم. وتستبسل الفئة القليلة أمام تلك الجموع الغفيرة نحو ثلاثة قرون متطاولة، بائعة أنفسها لربها متزاحمة على حياض الاستشهاد لنصرة دينه حتى تكون كلمته هي العليا، وحملة الصليب ما ينون يغيرون وما تنى سحب سيوفهم تتجمع فوق ديارهم وأوكار أفلاذ أكبادهم، والفئة القليلة تنازهم مستميتة نزالا ضاريا وكثيرا مادقت أعناقهم دقا. والرسالة الثانية للسان الدين كتبها

(١) عجاجه: غباره.

الطيران.

(٢) هيبة: صيحة.

(٤) المناصل: جمع منصل: السيف.

(٣) حمر الحواصل: تشبيه لأطفال غرناطة بصغار

(٥) البيض: السيف. السمر: الرماح.

الطير حين تكون حمراء الحواصل ولا تستطيع

سنة ٧٧١ بلسان السلطان الغنى بالله، كما ذكرنا، وفيها يصور للرسول الكريم تنكيهه بحملة الصليب في غير موقعة يعونه وجاهه، مع الاعتذار عن شد الرحال إليه لانشغاله بجهاد الطغاة البغاة. وكانت توجه إلى الروضة الشريفة من أطراف العالم الإسلامي رسائل نبوية مماثلة لما قدمناه ممجدة له ومتشفعة إليه في الأغراض الدنيوية والأخرية، غير أنها كثرت في الأندلس لبعث الديار واتصال الحروب هناك مع أعداء الدين الحنيف، وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند ابن الجنان.

ابن^(١) الجنان

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى المعروف باسم ابن الجنان، من أهل مرسية في شرقي الأندلس نشأ بها وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات شيوخها ونهل منها كل ما استطاع من علوم دينية وآداب عربية، وفيه يقول ابن الخطيب: «كان محمد راوية ضابطا، كاتباً بليفاً وشاعراً بارعاً» ويقول الغبريني: «كان من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان فقيهاً وكاتباً بارعاً وأديباً». وكان مفرطاً في القصر حتى يظن مبصره أنه طفل ابن ثمانية أعوام. ولفضله وأدبه استكتبه المتوكل بن هود حين ملك مرسية سنة ٦٢٥. وضاق بهذا العمل فتركه وحين تمكن العدو من قبضته على مرسية، سنة ٦٤٠ خرج منها واستقر بمدينة أريولة شمالي مرسية. وسمع به ابن خلاص صاحب سبته على الزقاق، فاستدعاه، ولبى دعوته، وأكرمه وحظي عنده، ونراه يتوجه إلى مدينة بجاية بإفريقية ويستقر بها إلى أن لبى نداء ربه في عشر الخميس وستائة.

وكان ابن الجنان شاعراً مبدعاً كما كان كاتباً محسناً، ويقول ابن الخطيب «له في الزهد ومدح الرسول ﷺ بدائع، ونظم في المواعظ للمذكرين كثيراً» وأنشد المقرئ له في الجزء السابع كثيراً من مدائحه النبوية، وهو يسترسل فيها متحدثاً عن شمائل الرسول وخصاله الكريمة ومعجزاته الباهرة ونبوته وقدسيته ومرتبته العليا بين الرسل وشفاعته لأمته يوم الحشر، وينشد له المقرئ مخمسا نبويا طريفا يستهله على هذا النحو:

الله زاد محمداً تكريماً وحباً فضلاً من لُدنه عظيمًا
واختصه في المرسلين كريمة ذا راقيةً بالمؤمنين رحيمًا
صلوا عليه وسلّموا تسليماً

للغبريني ٢١٣ ونفح الطيب ٤١٥/٧ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة ابن الجنان ورسائله ومواعظه ومدائحه النبوية الإحاطة ٣٤٨/٢ وعنوان الدراية

ويضيف إلى هذا الدور في الخمس نحو ثلاثين دورا، والمخمس يسيل سلاسة وعذوبة، وأدواره تحتتم بقوله: «صلوا عليه وسلموا تسليما». ولا تقل روعة عن مدائح ابن الجنان للرسول عليه السلام رسائله ومواعظه النبوية. ومن أروعها رسالة احتفظ بها المقرئ كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلم، وفيها يقول:

«السلامُ العميمُ الكريمُ، والرحمةُ التي لا تَبْرَحُ ولا تَرِيمُ^(١)، والبركةُ التي أولها الصلاةُ وآخرها التسليمُ، على حضرةِ الرِّسالةِ العامَّةِ الدعوةِ والنبوةِ، المؤيدةِ بالعِصمةِ والأيدِ والقوةِ، ومثابةِ البرِّ والتقوى، فهي لقلوبِ الطيبينِ صفاً ومرورةً^(٢) مقررَ الأنوارِ المحمديةِ، والبركاتِ السَّرمِديَّةِ، أمتعَ اللهُ الإسلامَ والمسلمينَ بحراسةِ أضوائها، وكلاءةٍ^(٣) ظلالها العليةِ وأقيانها^(٤)، وأقر عينَ عَبْدِهَا بِلثَمِ ثَرَاهَا، والانخراطِ في سَلِكِ مَنْ يراها. السلامُ عليك يا محمد، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا أبا القاسمِ سلامَ مَنْ يمدُّ إليك يدَ الغريقِ، ويرجو الإنقاذَ ببركتك من نَكَبِ المضيقِ، ويتقطعُ أسفاً ويتنفسُ صُعداً^(٥) كلما ازدلف^(٦) إليك فريق، وعَمَرَتْ نحوك طريق، ولا يفتُرُ صلاةً عليك له لسانٌ ولا يجفُّ ريق: كتبته يارسول الله وقد رحل المجدون وأقمت، واستقام المستعدون وما استقمت، وبنى وبين لثَمِ نَرَاكِ النبويِّ، ولمَحَ سَنَاكَ المحمديِّ مفاوِزَ وكلما رُمِتَ المَتَابُ رُدِدَتْ، وكلما يَمَّمْتُ البابَ صُدِدْتُ.. وحقك وهو الحقُّ الأكيدُ والقسمُ الذي يبلغُ به المُقسمُ ما يريد، ما وَخَدْتُ^(٧) إليك ركاباً، إلا وللقلبِ إثرها التهاب، وللدمع بعدها سَحٌّ وانسكاب، وباليتنى ممن يزورك معها ولو على الوَجْتَيْنِ، ويحييك بين رَكْبِهَا ولو على المُقْلَتَيْنِ.. ثم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته عليك ياسيد الخلق، وأقربهم من الحق، ومن طَهَّرَ اللهُ تعالى مَنَواهُ وَقَدَّسَهُ، وبناه على التقوى والرضوان وأَسَّسَهُ، وآتاه من كل فضل نبوي أعلاه وأسناه وأنفسه.. كتبه عبدك المستمسك بعُرْوَتِكَ الوُثْقَى، اللانذ بحرمك الأمتع الأوقى، المتأخر جسماً المتقدم نطقاً، والسلام عليك يارسولَ اللهُ ﷺ تسليماً كثيراً ورحمة الله تعالى وبركاته».

والرسالة تموج بالعذوبة في اللفظ والصياغة، مع ما تصور من لواجع الشوق المضطرم في صدر ابن الجنان لزيارة قبر الرسول القدسي ولثم ثراه العطر والإمام بفنائه السنئ

(٤) أقيانها: ظلالها.

(١) تريم: تبرح.

(٥) يتفس صعدا: يتنفس مع مشقة ووجع.

(٢) السبي بين الصفا والمروة من شعائر الحج

(٦) ازدلف: دنا وقرب.

وفروضة والتشبيه واضح.

(٧) وخذت: أسرعت.

(٣) كلاءة: حفظ.

وإن قلبه ليتقطع أسى وإنه ليتنفس الصعداء حين يرى الحجاج الأندلسيين من دونه يسرون في قوافلهم إلى بيت الله الحرام وزيارة الرحمة المهداة للأمة الذي أرسله الله نورا وضاء للعالمين. ويفضى ابن الجنان إلى أسى ولوعة عميقين، حتى ليشعر كأن الدنيا تحولت من حوله إلى سجن رهيب وأغلال وأصفاد، فلا يستطيع فكاكا ولا لحاقا بالقوافل المتجهة إلى الأراضى المقدسة في الحجاز. ويذرف الدمع مدرارا، ويتمنى لو زار الرسول ﷺ لا على قدميه بل على وجنتيه، حتى تكتحل عيناه بسنى النور المحمدى. وروى المقرئ له موعظة بدیعة في فضل الرسول وما أنعم الله به على البشر من رسالته الزكية وما أجرى عليه من معجزات فيها الآيات الكبر والدلالات الواضحة الغرر، ويتلو المقرئ هذه الموعظة بموعظة ثانية يتحدث في نهايتها عن مصاب المسلمين بوفاة الرسول ﷺ وكيف عزهم الصبر، يقول: «وهل يسوغ الصبر الجميل في فقيد بكته الملائكة وجبريل، وكثر له في السموات السبع النحيب والعيول، وانقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتنزيل؟. ويصور ابن الجنان كيف عمَّ حينئذ الحزن والاكتئاب، وكأنما دموع الصحابة السحاب، ويقول إن الله عز شأنه سينجز وعده له بالشفاعة وقيامه المقام الموعود على الحوض يوم القيامة مناديا في الناس هلموا إلى لتطفئوا حرارة العطش الملتهب في الصدور، ويتجه ابن الجنان إلى ربه داعيا:

«اللهم اسقنا من حوضه المورود، وشرفنا بلوائه المعقود، وسفعه فينا في اليوم المشهود، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللحد، وانفعنا بحبته ومحبة آله وصحابته الرُّكع السُّجود، واجعلنا معهم في الجنة دار السلام ودار الخلود».

وهذه اللغة الصافية التي توج بالرفقة والعذوبة والتي تلذ الألسنة حين تنطق بها والأسماع حين تنصت إليها كان ابن الجنان يمتع القلوب والأفئدة.

(ب) مواعظ

كانت الأندلس - مثل غيرها من البلدان الإسلامية - تكثر فيها المواعظ الدينية شفوية ومكتوبة، وكان من أهم البواعث لذلك الخطابة في المساجد أيام الجمعة والعيدين واستشعار الخطباء هناك لخطابة الرسول والخلفاء الراشدين ومن تلاهم من جلة الخطباء والوعاظ ممن حكى الجاحظ وعظهم وخطابتهم في كتابه البيان والتبيين، وكثير هم الأندلسيون الذين تُذكر في تراجمهم أن لهم خطبا ومواعظ مدونة، وأشهر خطباء الدولة

الأموية بالأندلس ووعاظها منذر بن سعيد، وسنخسه بكلمة. وكان يحدث كثيرا أن يتأخر المطر الذي يبعث الحياة في الوديان والسهول والزروع، فكان الناس يجتمعون في المساجد لصلاة الاستسقاء، ويقف بينهم الخطيب واعظا مذكرا بنعم الله عليهم مفيضا في الحديث عن الإنابة إلى الله، داعيا الله دعاء مكررا: أن يرسل عليهم الغيث. وفي الكثرة الكثيرة من تلك الصلوات كانوا يغاثون ولا ينصرفون من المساجد إلا وأحذيتهم في أيديهم من كثرة السيول التي تدافعت من السماء. ويتوقف أصحاب كتاب التراجم مرارا وتكرارا في ترجماتهم للقضاة ممن كانت تسند إليهم خطابة الجامع الكبير، ليحدثونا عن صلاتهم مع أهل قرطبة لاستئزال الغيث، وبيننا الخطباء يلحون بالدعاء كان الناس يكثر من الضجيج والابتهاال، وتشملهم رحمة الله فتتعقد السحب وتبرق وترعد وهطل الغيث مدرارا.

وبجانب هؤلاء الخطباء الوعاظ ومواعظهم وأدعيتهم كان هناك زهاد أثرت عنهم مواعظ وأدعية كثيرة مثل أبي وهب العباسي المعاصر لمندر بن سعيد المتوفى سنة ٣٤٤ المار ذكره. ويدور بنا الزمن دورة ونصبح في عصر أمراء الطوائف، وملتقى فيه بمواعظ كتابية تحبر فيها رسائل بديعة. وهي رسائل وعظية تتقدم خطوة - إن لم تكن خطوات - نحو المتاع الروحي والشوق إلى اللقاء الرباني والانقطاع إلى النسك والعبادة للحى القيوم عن كل متاع دنيوى. ونحس كأن الأندلس أخذت تتجه بقوة إلى النزوع الصوفى على نحو ما يلقانا في رسالة كتبها الفقيه أحمد بن عيسى الإلبيرى سنة ٤١٦ إلى بعض إخوانه، وكان من أفراد الزهاد، وفيها يقول لصاحبه^(١):

«هَيَّا تَكْ يَدُ الْقُدْرَةِ هَيْئَةَ رُوحَانِيَّةٍ، وَأَحْيَاكَ رُوحُ الْقُدُسِ حَيَاةً إِلَهِيَّةً، وَأَلْبَسْتُكَ الشَّرِيعَةَ لِبَاسَ التَّقْوَى، وَرَأَسْتُكَ الطَّبِيعَةَ بِرِيشِ النَّهْيِ^(٢)، حَتَّى تَطِيرَ مَعَ الرُّوحَانِيِّينَ فِي مَجَالِ الصُّدِّيِّينَ إِلَى مَنَازِلِ الْمُقَرَّبِينَ، فَتَذُوقَ بَرْدَ عَيْشِ النَّعِيمِ، وَتَلْذَّ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الْقَيُّومِ، وَتَشْتَاقَ إِلَى لِقَاءِ الرَّبِّ الرَّحِيمِ.. وَإِنَّ اللَّهَ يَا أَخِي عِبَادًا أَقَامَ أَرْوَاحَهُمْ بِقَيُّومِيَّتِهِ عَلَى صَرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، فَمَشَتْ بِأَقْدَامِ الصَّدَقِ إِلَى الْحَقِّ، فَدَنَتْ مِنْهُ وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ عَلَى جَلَالِهِ، فِي اتِّسَاعِ كَمَالِهِ، فَضَعُفَتْ لِكَبْرِ سُلْطَانِهِ، ثُمَّ أَفَاقَتْ بِالْإِسْلَامِ وَنَطَقَتْ بِالْإِيمَانِ، وَاتَّصَلَتْ بِالْقُرْآنِ، وَعَلِمَهَا فَفَازَتْ بِالْحِكْمَةِ، وَانْقَطَعَتْ إِلَيْهِ بِالْكَلِيَّةِ، وَدَانَتْ لَهُ بِالْحَنِيفِيَّةِ،

(١) راجع في النص للخيرة ٨٥٧/١ وما بعدها. (٢) النهى: العفل.

فأواها إلى كَنَفه، ونَعَمها بطرائف تُحَفه، وأطلع لها السَّرَّ، وأكمل لها البِرَّ، فَحَيَّتْ بقربه،
وشربت بكأس حُبِّه».

والنزعة الصوفية ماثلة في الرسالة، وهي تعد مقدمة لما سيكون من ازدهار التصوف في
زمن المرابطين والموحدين إذ يظهر فيه كثرة ممن أشربوا كأس المحبة الإلهية من أمثال
ابن العريف وابن عربي والششتري، ومرت لهم في الفصل الماضي ترجمات تعرّف بمنزعتهم
الصوفية وأهم آثارهم وفيها وعظ كثير. وإذا تركنا المتصوفة ووعظهم إلى الوعظ العام
وأهله وجدنا من أدباء الأندلس الذين يجمعون بين نظم الشعر وكتابة النثر طائفة تحاكي
أبا العلاء المعري في كتابه الوعظي: «ملقى السبيل» وقد جعله على الحروف الأبجدية،
وعادة يذكر سجعات قليلة ويتلوها بأبيات بنفس معناها، وربما كان ابن أبي الخصال الذي
ترجمنا له في هذا الفصل أول من حاول محاكاته في هذا الاتجاه^(١)، وكثر بعد ذلك من
عارضوه فيه من مثل أبي القاسم السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ وسمي معارضته له باسم:
«حلية النبيل في معارضة ملقى السبيل»^(٢) وعارضه سليمان بن موسى الكلاعي المتوفى
شهيدا سنة ٦٣٤ باسم «مفاوضة القلب العليل ومنايذة الأمل الطويل بطريقة أبي العلاء
في ملقى السبيل»^(٣) وغيرهم كثير. ونستطيع أن نقول إن معارضة أبي العلاء في وعظه
بملقى السبيل كانت أشبه بجدول اثبتق من نهر الوعظ الكبير. وثلثي في عصر المرابطين
بأبي بكر الطرطوشي وسنخصه بكلمة.

وكان ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ قد أشاد في رحلته - كما مر بنا - بابن الجوزي
ومواعظه، وحملها عنه بعض الأندلسيين وأكبَّ عليها غير أديب أندلسي يحاكيها على نحو
ما يلقانا عند أبي المطرف بن عميرة المترجم له بين الكتاب والمتوفى سنة ٦٥٨ إذ يقول
المراكشي: «له فصول وعظيمة على طريقة الإمام أبي الفرج بن الجوزي» وله قوله من
عظة^(٤).

«يا أعمى الهوى غاب عنك وضح النهار، طال غيبتك عنا فأى يوم تكون في
الزوار، العمر قد مضى ولم يبق إلا القليل، وأنت تعيش بالمنى والتعليل، أين الإخوان

(٣) الذيل والتكملة للمراكشي بقية السفر الرابع
ص ٨٦.

(٤) كتاب أبي المطرف بن عميرة ص ٣٠٤.

(١) انظر تاريخ الأدب الأندلسي: عصر
المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧.

(٢) الإحاطة ٤٧٩/٣ وصحفت فيها لفظة
«ملقى».

والأتراب، طاحوا^(١) والله وأكلهم التراب، بينما البليل يغرّد إذ نَعَبَ الغراب وفجأتِ
الفجيجةُ فما لُدَّ النومُ ولا ساعُ الشرابِ».

وكان نبعاً فياضاً في الوعظ مما جعل بعض الوعاظ يستعينون به فيما يعظون به
الناس. وولتقى بكثير من المواعظ في دولة بني الأحمر بغرناطة، ومن كبار الوعاظ في
دولتهم ابن الزيات الكلاعي المالقي المتوفى سنة ٧٢٨ وله في الوعظ كتاب «شذور
الذهب في ضروب الخطب»، وروى له لسان الدين بترجمته في الإحاطة عظة ألقى الألف
من حروفها وفيها يقول:

قد نُصِحْتُمْ لو كنتم تعقلون، وهُدَيْتُمْ لو كنتم تعلمون، ونُصِرْتُمْ لو كنتم تبصرون،
وذكُرْتُمْ لو كنتم تذكرون، وظهرت لكم حقيقةُ نَشْرِكُمْ^(٢)، وبرزت لكم خبيثةُ حَشْرِكُمْ،
فلم تَرْكُضُونِ في طَلْقِ^(٣) غفلتكم، وتغفلون عن يومِ بعثكم، وللموت عليكم سيفٌ
مسلول، وحكمٌ عزم غير مفلول^(٤)، فكيف بكم يومَ يُؤَخَذُ كلُّ بدنه، ويُخبر بجميع كَسْبِه،
ويفرّق بينه وبين صحبه، ويعدم نُصْرَةَ جِزْبِه، وَيُشْغَلُ بهممه وكرْبِه، عن صَدِيقِه وتِرْبِه».

ويسترسل في مثل هذا الوعظ البسيط الذي ينزلق عن اللسان لحفته ولعدوبته، ولعله
من أجل ذلك كان مجلس وعظه يفض بالناس ويزدحمون عليه لساع مواعظه. وحرى بنا
الآن أن نقف قليلاً عند الواعظين الجليلين: منذر بن سعيد وأبي بكر الطرطوشي.

منذر بن سعيد البلوطي^(٥)

هو أبو الحكم منذر بن سعيد بن عبد الله، ولد سنة ٢٦٥ بموضع في نواحي قرطبة
يسمى فحص البلوط فنسب إليه، وأقبل منذ نعومة أظفاره على الدراسات الدينية
واللغوية وبرز فيها أقرانه بقرطبة، وفي سنة ٣٠٨ رحل إلى المشرق للحج والتلقى عن
علمائه، وعاد إلى قرطبة يحمل عن محمد بن المنذر النيسابوري كتابه الإشراف المؤلف في
اختلاف الفقهاء سمعه منه بمكة، ويحمل أيضاً كتاب معجم العين المنسوب إلى الخليل
سمعه على أبي العباس بن ولاد بمصر، غير كتب أخرى في اللغة والفقه والحديث. وأهم

٣١٩ وابن الفرضي رقم ١٤٥٢ والبنية رقم ١٣٥٦

والجندوة ٣٢٦ والمطمح ٢٧ ومعجم

الأديب ١٧٤/١٩ وإنباه الرواة ٢٢٥/٣ وأزهار

الرياض ٢٧٢/٢ ونفع الطيب (انظر الفهرس).

(١) طاحوا: هلكوا.

(٢) نَشْرِكُمْ: بعثكم.

(٣) طَلْق: شوط.

(٤) مفلول: متلوم الحد.

(٥) انظر في ترجمة منذر ومواعظه طبقات الزبيدي

من ذلك أنه حمل مذهب داود الظاهري وكتبه وظل يؤثره ويحتج لمقالته، مع أنه كان قاضيا في بعض مدن الأندلس، والقضاء فيها كان مالكيًا يلتزم القضاة فيه بمذهب مالك وفتاويه وفتاوى تلاميذه المصريين، واشتهر منذر بأنه إنما كان يأخذ بالمذهب الظاهري في نفسه فإذا جلس للحكومة والقضاء بين الناس قضى بينهم وحكم بمذهب مالك الذي استقر عليه العمل في الأندلس. وثقف في رحلته الاعتزال كما ثقف المذهب الظاهري، وكان يحتج له كما يحتج للمذهب الظاهري دون إفراط، مع الأخذ بالسنة والورع والرد على أهل الأهواء والبدع. وفي سنة ٣٣٠ أتيحت له فرصة عظيمة عندما أقيم بقصر الناصر في قرطبة حفل استقبال ضخم لسفير بيزنطة الذي جاءه يحمل إليه بعض الهدايا من لدن الإمبراطور، وتقدم ابنه وولى عهده الحكم إلى أبي علي القالي العالم اللغوي المشهور، وكان قد وفد على قرطبة ودوت شهرته في الأندلس، فسأله أن يلقي خطبة أمام أبيه يبين فيها فخامة الخلافة الأموية بالأندلس وما تهبأ للناصر من توطيد الحكم في بلده، فقام القالي وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، وأرتج عليه وانقطع عن الكلام، فلما رأى ذلك منذر - وكان حاضرا - قام فوصل افتتاحه بخطبة طويلة بليغة على غير أهبة مفتتحا لها بقوله:

«أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعائه، والصلاة والسلام على محمد صفيّه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقالًا، وليس بعد الحق إلا الضلال، فافقهوا عني بأفندتكم، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت.. وإني أذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافته أمير المؤمنين التي لمت سعتكم، وأمنت سر بكم».

ومضى يتحدث عن تلافى الناصر للفتن التي كانت عمت آفاق الأندلس، وفصل القول في انتصاراته وفتوحاته وعدالته وما حظيت به الدولة لعهد من مكانة جعلت الروم يخطبون مودتها. وينصح الناس بالتزام الطاعة لخليفتهم وابن عم نبيهم الناصر، ويحث خطبته بالحمد لله والاستغفار. وبهرت الخطبة المجتمعين وخرجوا يتحدثون عن بلاغة منذر وحسن بيانه وثبات جنانه، وأعجب به الناصر إعجابا شديدا، فولاه الصلاة والخطابة بمسجده الجامع في مدينته الزهراء التي بناها بجوار قرطبة، ثم ولاه قضاء الجماعة، فأصبح قاضي القضاة في الأندلس جميعا، وظل على ذلك في حكم الناصر وحكم ابنه الحكم إلى أن توفي سنة ٣٥٥. وكان الناصر قد مضى في بناء مدينته الزهراء وتأنق فيها

ما وسعه التأنيق على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع، فرأى منذر أن يتناولوه في خطبة الجمعة بالموعظة الحسنة رجاء إنابته ورجوعه عن هذا السرف المفرط.

وابتداً منذر موعظته بقول الله تعالى شأنه: ﴿أَتَيْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ^(١) آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ^(٢) لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ثم قال: ولا تقولوا: ﴿سِوَاءَ عَلَيْنَا أُوْعِظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ ﴿فَمَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ وما زال يصل ذلك بكلام مؤثر في ذم تشييد البنيان وزخرفته والإسراف في الإنفاق عليه، واستشهد بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ومضى منذر يدعو إلى الزهد في الدار القانية والإعراض عنها وطلب ما عند الله من فراديس الجنان وأسهب في ذلك حتى تأثر المستمعون وضجوا بالبكاء، ودعوا الله تائبين مستغفرين وبكى الناصر واستعاذ من سخط الله وغضبه. ولمنذر مصنفات من أهمها: «أحكام القرآن» وكان شاعراً، أما العظات فلعل واعظاً في وطنه لم يبلغ فيها مبلغه في زمنه، وكانت له خطب مجموعة ومتداولة في الأندلس تحمل وعظاً كثيراً، ومن عظاته قوله:

«حتى متي وإلى متى أعظُّ غيري ولا أتعظُّ وأزجره ولا أزدجر، أدلُّ على الطريق المستدلين، وأبقي مقيماً مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين ﴿إن هي إلا فتنتك تضلُّ بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾. اللهم فرغني لما خلقتني له، ولا تسغلني بما تكفلت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك ولا تعذبني وأنا أستغفرك يا أرحم الراحمين».

أبو ^(٣) بكر الطرطوشي

هو أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الطرطوشي الأندلسي ولد في سنة ٤٥١ بطرطوشة في أعلى الشرق من الأندلس على البحر المتوسط، ويعرف بابن أبي رندقة، ويبدو أنها كنية شهر بها فيما بعد، وقد تخرج على يد أبي الوليد الباجي بسرقسطة، أحد

٥١٧ وبغية الملتمس رقم ٢٩٥ والمغرب ٢/٤٢٤
وابن خلكان ٤/١٦٢ والديباج المذهب ٢٧٦ وعبر
الذهبي ٤/٤٨ وأزهار الرياض ٣/١٦٢ والسنن
٤/٦٢ وحسن المحاضرة ١/١٩٢.

(١) ريع: المرتفع من الأرض وكان الناصر قد بنى
الزهراء بضاحية قرطبة على جبل العروس.
(٢) مصانع: مبان من القصور والحصون.
(٣) انظر في ترجمة الطرطوشي ومواعظه الصلة

كبار المالكية في أواخر عصر أمراء الطوائف إن لم يكن أكبرهم، وقد أخذ عنه مسائل الخلاف وغيره من كتبه الكثيرة وأجاز له روايتها عنه. ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ و حجَّ ودخل بغداد والبصرة، وسمع من جلة الشيوخ في البلدتين، وسكن الشام مدة ودرَّس بها، ثم سكن مصر واستقر بثمر الإسكندرية إلى أن توفي بها سنة ٥٢٠هـ. وكان ورعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا منها باليسير، ودخل على الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين (٤٨٧-٥١٥هـ) فوعظه حتى بكى، وكان مما وعظه به:

«إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك فاتق الله فيما خوَّلك من هذه الأمة، فإن الله - عز وجل - سائلك عن النقيير^(١) والقطمير^(٢) والفتيل، واعلم أن الله - عز وجل - آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحدأفيرها فسخر له الإنس والجن والشياطين والطيور والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء^(٣) حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال عز من قائل: ﴿هذا عطاؤنا فأمئن أو أمسك بغير حساب﴾ فما عد ذلك نعمة كما عدتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون ذلك استدراجا من الله عز وجل، فقال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلونني أشكر أم أكفر﴾ فافتح الباب، وسهل الحجاب وأنصر المظلوم».

وللطروشى مؤلفات مختلفة منها الكتاب الكبير في مسائل الخلاف وكتاب مختصر تفسير الثعالبي وكتاب بدع الأمور ومحدثاتها وكتاب شرح رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي، وأشهر كتبه كتاب سراج الملوك الذي ألفه للمأمون البطانحي وزير الفاطميين بعد الأفضل بن بدر الجمالي (٥١٥-٥١٩هـ) وهو وعظ للملوك والحكام وبيان لما ينبغي أن يتحلوا به من الأخلاق والسياسة الرشيدة في الحكم، ويبين في مقدمته منهجه فيه وغايته قائلا:

«جمعت محاسن ما انطوى عليه سير ملوك بست من الأمم، وهم العرب والفرس والروم والهند والسند والسندهند، فنظمت ما ألفت في كتبهم من الحكمة البالغة والسير المستحسنة والكليات اللطيفة والظريفة المألوفة. إلى ما رأيت وجمعت من سير الأنبياء عليهم السلام وآثار الأولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادير الخلفاء وما انطوى

(١) النقيير: مانقر في نواة النمر، والقطمير:

القشرة الرقيقة على النواة، الفتيل: الخيط في شق

النواة والمراد أنه يُسأل عن أصغر الأشياء.

(٢) رخاء: لبنه.

عليه القرآن العزيز الذي هو بحر العلوم وينبوع الحكم ومعدهن السياسات ومغاص الجواهر المكتونات.. الهادى من الضلالة والحاوى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة».

وقد جعل الطرطوشى الكتاب فى أربعة وستين بابا خصّ أواها بمواعظ الملوك وثانيها بمقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين. وتتوالى الأبواب فى الخصال التى ينبغى أن يتصف بها الحكام والقضاة وغيرهم ممن يلون شئون الناس، ومن قوله فى الباب الأول واعظا للملوك:

«اعتبر بمن مضى من الملوك والأقبال، وخلا من الأمم والأجيال، وكيف بسطت لهم الدنيا وأيسنت لهم الآجال، وانفسح لهم فى المنى والآمال، وأميدوا بالآلات والعدد والأموال، كيف طحنهم بكلّ كليله المنون^(١)، واختدعهم بزخرفه الدهر الخثون، وأسكنوا بعد سعة القصور بين الجنادل والصخور.. أما ترى الدنيا تقبل إقبال الطالب، وإدبارها فجيعه، ولذاتها فانية، وتبعاتها باقية، فاعتنم غفوة الزمان، وانتهز فرصة الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزوّد من يومك لغدك، ولا تنافس أهل الدنيا فى خفض عيشهم ولين رياشهم^(٢) ولكن انظر إلى سرعة طعنهم وسوء منقلبهم»

ولم يكد يترك الطرطوشى خبرا أو عظة للرسول عليه السلام والرسول الكرام والخلفاء الراشدين ومن عاصروهم وجاءوا بعدهم من الزهاد والأثقياء البررة والعباد والصالحين الأطهار إلا دوتها فى كتابه مع ما ساقه فى تضعيفه من عظاته التى توج بها صفحاته. وهو بحق فى الذروة من الوعظ والإرشاد للناس جميعا حكاما وغير حكام.

٤

أعمال نثرية

تميز الأندلس بنفوذها إلى أعمال نثرية بديعة سقط كثير منها من يد الزمن، وبقيت منها إلى اليوم بقية رائعة، بين اعترافات عاطفية كما فى طوق الحمامة لابن حزم، وكتابات تاريخية كما فى المقتبس لابن حيان والذخيرة لابن بسام، ومذكرات لسيرة ذاتية كما فى مذكرات عبد الله بن بلقين أمير غرناطة، وقصص خيالية فلسفية كقصة حى بن يقطان لابن طفيل، وحرى بنا أن نلم بهذه الأعمال فى كلمات مجملة.

(١) الكلكل: الصدر والمراد الثقل. المنون: (٢) الرياش: الأثاث الفاخر.

طوق الحمامة لابن حزم

ابن حزم^(١) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، من أسرة كانت تنتسب إلى جد فارسي من موالى بنى أمية وزعم ابن حبان أن أسرته إسبانية من عجم لبلّة وأنها حديثة العهد بالإسلام، فجده الأدنى أول من أسلم من آبائه. ويبدو أنه لم يعرف جذور أسرته معرفة دقيقة، إذ تجمع كتب التراجم على سلسلة من النسب له، يتصل فيها أجداد مسلمون حتى ينتهوا به إلى جد فارسي أعلى كان مولى ليزيد بن أبي سفيان، ويقول صاحب المعجب إنه قرأ هذه السلسلة بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه، ونصّ ابن حزم على نسبه الفارسية وولائه لبني أمية قائلاً:

سَمَّا بِي سَاسَانُ وَدَارَا وَبَعْدَهُمْ قُرَيْشُ الْعَلَا أَعْيَاصُهَا وَالْعَنَابِسُ

وهو في الشطر الأول ينسب نفسه إلى دارا وملوك الفرس الساسانيين، وفي الشطر الثاني ينتمي بالولاء إلى بنى أمية، وكان لأمية ستة أبناء من العنابسة وخمسة من الأعياص. وسنعرف عما قليل عز ابن حزم كيف كان يأخذ نفسه بالصدق والتدين العميق، مع ما يضاف إلى ذلك من أنه لا يوجد أي مبرر لكي يرجح نسبه إلى عجم الفرس على نسبه إلى عجم الإيبان، مع ما ضم إلى ذلك من اعترافه بالولاء لبني أمية، وظل مشايخا لهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته، وربما كان ذلك ما أثار ابن حبان ضده، محاولاً أن يخلعه من ولائه وولاء أبيه للأمويين.

ومقدماته لما نشر من رسائله وكتاب ابن حزم: حياته وعصره لمحمد أبي زهرة ودراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة للدكتور الطاهر مكّي (طبع دارالمعارف) وابن حزم صورة أندلسية للدكتور الحاجري وابن حزم الأندلسي: حياته وأدبه للدكتور عبدالكريم خليفة. وفي كتاب طوق الحمامة انظر مقدمته في تحقيق الدكتور الطاهر مكّي (طبع دارالمعارف) وعرضه فيها لآراء المستشرقين وما ذكره في هوامش تحقيقه للكتاب من تأثيرات موضوعاته في الأدب الإسباني. وانظر كتاب ألوان للدكتور طه حسين (الطبعة السادسة في دار المعارف) ص ٩٩ وما بعدها.

(١) انظر في ترجمة ابن حزم ودراسته الحميدى في الجذوة ص ٢٩٠ والذخيرة ١٦٧/١ والمطمح ص ٥٥ والبيغة للضبي ص ٤٠٣ والصلة ٤٠٨ والمعجب ٩٣ وطبقات الأمم لصاعد ص ١١٧ والمغرب ٣٥٤/١ ومعجم الأدياء ٢٣٥/١٢ والقفطي في تاريخ الحكماء ص ٢٣٢ وابن خلكان ٣٢٥/٣ والذهبي في تذكرة الحفاظ ٣٤١/٣ وعبر الذهبي ٢٣٩/٣ وابن شاعر في الفوات ٢٧١/٢ والشفرات ٢٩٩/٣. وكتبت عن ابن حزم دراسات كثيرة، وراجع فيه تاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ص ١٤، ٧٤ - ٧٧، ٢١٣ - ٢٣٩، ٤٢٦ وكتابات د. إحسان عباس في تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة ص ٢٤٥ - ٢٦٤

وكانت أسرة ابن حزم تعيش في قرية تملكها تسمى مُنت ليشم من قرى مدينة لُبلة على بعد خمسين كيلو متراً غربى إشبيلية، وبها وُلد أبوه أحمد، ورحل منها مبكراً إلى قرطبة، ليحرز لنفسه ما استطاع من الثقافة، وسرعان ما لمع بين أقرانه بقدرته الأدبية وبلاغته ومعرفته بالتاريخ. وتعرّف عليه ابن أبى عامر حاجب الخليفة المؤيد أثناء الطلب والتلمذة، وكان يعجب به، فاتخذهُ وزيراً له سنة ٣٨١ مما جعله يسكن في الجانب الشرقى من قرطبة بناحية الزاهرة مدينة أبى عامر وبجمع قصوره. وأقصاه فترة عن وزارته للنظر في كُور غربى الأندلس، ثم أعاده إلى الوزارة. وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه حين مغيبه عن قرطبة، ووزر من بعده لابنه عبد الملك المظفر. ورزقه الله بابنه على سنة ٣٨٤ ووكّل تربيته في صباه إلى جوارى قصره وكنّ على حظ كبير من الثقافة الأدبية - شأن أمثاله من الجوارى في قرطبة ومدن الأندلس - وفي ذلك يقول ابن حزم في كتابه «الطوق»: «لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى، لأنى رُبيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حدّ الشباب وحين أبقل وجهى (نبت الشعر فيه) وهنّ علّمتنى القرآن وروّيتنى كثيراً من الأشعار ودربّتني في الخط». وجعلته هذه النشأة يستشعر مبكراً عاطفة الحب لمن كن في سنه من الجوارى، ويقول في الطوق إنه أحب حينئذ جارية شقراء فبا استحسّن بعدها سوداء الشعر أبداً. وظل يختلط بهؤلاء الجوارى ويعيش معهن كما يقول إلى حد الشباب وحتى أصبح يافعا في سن الثانية عشرة أو بعدها بقليل إذ يذكر أن أباه اصطحبه إلى مجلس الحاجب المظفر بن المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٦. ولم يلبث أن أخذ يتلمذ للشيخ وفي مقدمتهم ابن الجسور المتوفى سنة ٤٠٠ وعنه أخذ الحديث النبوى وتاريخ الطبرى وكان لا يزال في سن مبكرة. وكثيراً ما كان يرافق أباه في مجلس وزارته ويستمع إلى مادحيه من الشعراء ويحفظ بعض أشعارهم، وكان أبوه لا يزال يسكن الجانب الشرقى من قرطبة، حتى إذا بدأت الفتنة الكبرى سنة ٣٩٩ رأى أن يتحول عن دوره المحدث في هذا الجانب إلى دورهم القديمة في الجانب الغربى من قرطبة، وكان الخليفة المؤيد هشام قد عُزل وأعيد سريعا، فاتهمه بمساعدته للتائرين ضده واعتقل وأغرّم إغراما ماليا فادحا، وتوفى سنة ٤٠٢.

وظل الفتى على في هذه الأثناء يتابع دروسه على الشيخ وقراءاته. ويتزوج من جارية له كَلَف بها تسمى نُعما كانت غاية في الحسن خَلقا وخلقا، ولم يلبث القدر أن فجعه فيها وهو دون العشرين فالتاع لوعة شديدة، حتى ليقول إنه أقام بعدها سبعة أشهر لا يتجرد

عن ثيابه حزنا عليها ولا تفتّر له دمعة، ويقول إنه لم يطب له عيش بعدها. وكانت أحواله المادية قد تبادت في السوء بعد وفاة أبيه ففارق قرطبة سنة ٤٠٤ إلى المرية عند حاكمها خيران أحد فتيان المنصور بن أبي عامر، ووشى به إليه فاعتقله أشهرا ثم ردّ إليه حريته فبارح المرية إلى حصن القصر وظل به أشهرا وغادره إلى بلنسية وأميرها مبارك والمظفر من فتيان العامرين، إذ سمع أنها يشايغان أمويا بايعاه بالخلافة وتلقب بالمرتضى، فأسرع إليها، ولم يلبث أن زحف معها بالمرتضى إلى غرناطة للاستيلاء عليها سنة ٤٠٩ والانتقاض منها على قرطبة التي كانت قد أصبحت في قبضة القاسم بن حمود. ولم يتحقق الحلم، فقد هُزم المظفر ومبارك وقتل المرتضى. وعاد ابن حزم إلى قرطبة، ورأى دورهم وأكثر دور الأمويين والعامرين أصبحت أطلالا دائرة فبكاها طويلا، وتفرغ لالتهام العلوم من لغوية ودينية وفلسفية. وفي سنة ٤١٤ تولى زمام الخلافة صديقه المستظهر الأموي فاتخذه وزيرا له مع خذنه ابن شهيد، وسرعان ما يقتل المستظهر بعد نحو شهر ونصف من خلافته، ويقتل الخليفة الجديد المستكفي ابن حزم فترة، وتردّ إليه سريعا حريته.

وعرف ابن حزم أنه لم يخلق للسياسة، ففارقها إلى غير مآب، وانقضّ على المعارف من كل لون انقضاض الوحش على فريسته، بحيث أصبح أكبر عقل مفكر أهدها عصر أمراء الطوائف إلى الإسلام والعروبة، وفيه يقول ابن حيان: «كان حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة» ويقول ابن بشكوال في كتابه الصلة: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار» ويقول ابنه الفضل: إن مجموع مؤلفاته في الفقه والحديث والأصول والتاريخ والنحل والملل والنسب والأدب والرد على معارضيه نحو أربعائة مجلد في قريب من ثمانين ألف ورقة. وبدأ حياته مالكيا ثم انتقل إلى مذهب الشافعي فترة ثم تركه في أوائل الثلاثينيات من عمره إلى مذهب داود الظاهري، وتنقل في مدن الأندلس يناضل عنه ويكتب فيه بحيث أصبح إمامه الحقيقي، كما كان يناضل عن الإسلام أرباب الملل من اليهود والنصارى. وتتعدد مؤلفاته تعددا واسعا، منها في الفقه كتاب الإبطال في مناقشة الأصول الخمسة عند الشافعية والحنفية وهي القياس والرأى والتعليل والاستحسان والتقليد محاولا نصرة مذهب الظاهري، وكتاب الإيصال في فقه الحديث وفيه يورد أقوال الصحابة والتابعين في مسائل الفقه مع بيان الحجّة لكل رأى،

وكتاب المحلّي في المذهب الشافعي، وكتاب مراتب الإجماع، وكتاب حجّة الوداع. ومنها في التاريخ جوامع السيرة النبوية وكتاب جمهرة الأنساب ورسالة نقط العروس ورسالة فضل الأندلس وهي تسجل ما لعلماؤها وأدائها من مصنّفات وأعمال. ومنها في المنطق كتاب التقريب لحدوده. ومنها في تاريخ الأديان كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وهو به يعد واضع علم المقارنة بين الأديان الذي لم يعرفه الغرب إلا في منتصف القرن التاسع عشر، وفيه يبين بأدلة دامغة كيف حرّفت الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى مبطلا لآرائهم العقيدية، ويعرض في تفصيل لأركان العقيدة الدينية القويمة (عقيدة الإسلام) من التوحيد والإيمان والوعد والوعيد والقدر والإمامة، مما انتفع به فيها بعد توماس الإكويني في كتابه خلاصة علوم الدين. ومن كتبه النفيسة في الأصول كتابه الإحكام في أصول الأحكام» ومرّ بنا في الفصل الثاني أنه أشار في مقدمته إلى القرابة اللغوية بين العربية والسريانية والعبرية وأن العربية الشالية العدنانية لغة مضر وربيعة تخالف العربية الجنوبية لغة حمير اليمنية. وبذلك يعد - كما أسلفنا - واضع الأساس لعلم فقه اللغة المقارن في العربية كما وضع علم الأديان المقارن قبل أن تعرفها أوربا بقرون. ومن المؤكد أن كتبه كانت في مقدمة الكتب التي عنيت مدرسة طليطلة منذ القرن الثالث عشر الميلادي بترجمتها إلى اللاتينية. وله رسائل كثيرة نشر منها الدكتور إحسان عباس طائفة، ومن أهم رسائله رسالته في الأخلاق والسير ومداراة النفوس، وقد حققها الدكتور الطاهر مكى ونشرها بدار المعارف، وبها مبادئ تتصل بسيرته وسيرة الناس في عصره، وفيها يصور الفضائل والذائل الخلقية مضيّفا إليها بعض اعترافات في تواضع وإخلاص، ويبدو أنها مما ترجم من آثاره إلى اللاتينية، إذ نجد على مثالها أو قريبا منها مقالات في الأخلاق ليكون المعروف بصلته بترجمات طليطلة. وظل ابن حزم يطوف بمدن الأندلس ناشرا علمه ومذهبه الظاهري في الفقه، وله مناظرة مشهورة مع الفقيه المالكي أبي الوليد الباحي في جزيرة ميورقة سنة ٤٥٢. وكان فقهاء المالكية لا يزالون ينفرون من كتبه، مما جعل المعتضد بن عباد أمير إشبيلية يأمر بحرق طائفة منها لقصر نظره. ورأى بأخرة العودة إلى قرية آبائه منت ليشم، ويبدو أنه كان يعود إليها قبل ذلك كثيرا وبها توفي سنة ٤٥٦.

وكتابه طوق الحمامة في الألفة والألاف ألفه في سكناه بشاطبة سنة ٤١٨ أو ٤١٩ وموضوعه دراسة الحب العذري ويستهل حديثه فيه بأن الحب ظاهرة إنسانية لم يسلم منها حاكم ولا محكوم، ويعرفه بأنه اتصال بين أجزاء النفوس في الطبيعة الإنسانية في أصل

عنصرها الرفيع ويريد به عالم النفوس العلوى قبل حلول النفوس في الأجساد في عالم الأرض السفلى. ويحدث هذا الاتصال حين يكون بين النفوس اثتلاف ومشاكله فيكون الحب، أما إذا كان بينها انفصال وتباين فيكون البغض. والحب بذلك إنما يكون بين النفوس لا بين الأجسام. ويوزع ابن حزم كتابه على ثلاثين بابا، منها عشرة في أصول الحب وعلاماته وصوره كمن أحب في النوم أو بالوصف أو من نظرة واحدة أو مع المطاولة أو مع التعريض بالقول أو مع الإشارة بالعين أو بالمراسلة أو بالسفير والرسول. ومنها اثنا عشر بابا في أعراض الحب المحمود والمذموم، وهى أبواب الصديق المساعد والوصل وطى السر والكشف أو الإذاعة والطاعة والمخالفة وحب صفة في المحبوبة والقناعة والوفاء والغدر والضنا والموت. ومنها ستة أبواب في آفات الحب، وهى أبواب العاذل والرفيق والواشى والهجر والبين والسلو، ثم بابان في قبح المعصية وفضل التعفف. وجميع هذه الأبواب تُعْرَضُ لا في كلام نظرى بل من خلال الواقع والتجربة والمشاهدة أو بعبارة أدق من خلال اعترافات صريحة منتهى الصراحة لابن حزم ومعاصريه عن الحب دون أى مواربة أو خجل يجلبان الحقيقة، فالحقيقة دائمة مكشوفة كالشمس. وفي تضاعيف ذلك ما لا يكاد يحصى من حقائق النفس في الحب وترهاتها، مع أشعار لابن حزم تصور تلك الحقائق. وكأنه كان يريد بالكتاب تربية الفتاة والفتى بالأندلس موطنه ليكون حبهما حبا نقياً بريئاً من كل دنس. ومن اعترافاته عن نفسه في الحب قوله في باب السلو:

«وإني لأخبرك عنى أنى ألفتُ فى أيام صباى ألفةً المحبة جاريةً نشأتُ فى دارنا، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما، وكانت غايةً فى حُسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخَفَرها ودماثتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، فقيدة الدَّام^(١)، قليلة الكلام، غضيضة البصر، شديدة الحذر، نقيَّةً من العيوب، دائمة القطوب^(٢)، حُلوة الإعراض، مطبوعة الانقباض.. لا تقف المطامع عليها، ولا معرَّس^(٣) للأمل لديها.. على أنها كانت تُحسِنُ العود إحسانا جيدا، فجنَّحتُ إليها، وأحببتُها حبا مفرطا شديدا، فسعيتُ عامين أو نحوهما - أن تجيبني بكلمة، وأسمع من فمها لفظة، غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع - بأبلغ السعى، فما وصلتُ إلى شىء من ذلك البتة فلهدى بِمُصْطَنَع^(٤) كان فى دارنا.. تجمعتُ فيه دَخَلتُنَا^(٥) ودَخَلتُ أختي: من النساء ونساء فتياننا ومن لاث^(٦) بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله، فلبثتُ صدرا من

(١) الدام: العيب. (٢) معرَّس: مكان. (٣) الدخلة: من يكثر دخولهم على قوم منهم أو (٤) القطوب: العبوس. (٥) مصطنع: وليمة. (٦) لاث: اختلط.

النهار ثم تنقلن إلى قَصْبَةٍ^(١) كانت في دارنا مُشرفة على بستان الدار، ويُطَّلَعُ منها على قرطبة وفحوصها^(٢) مفتحة الأبواب، فصرنَ ينظرنَ من خلال الشراحيب^(٣) وأنا بينهن. وإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه، أنسًا بقربها، متعرِّضًا للدنوِّ منها، فما هى إلا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب وتقصده غيره مع لُطْفِ الحركة. فأتعمدُ أنا القصدَ إلى الباب الذى صارت إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال^(٤) إلى غيره. وكانت قد علمتُ كَلْفِي بها، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهن كن عددا كثيرا، وكن ينتقلن من باب إلى باب بسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطَّلَعُ من غيرها عليها. واعلم أن قيافة^(٥) النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج^(٦) فى الآنار. ثم نزلن إلى البستان، فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيداتها فى سماع غنائها، فأمرتها، فأخذت العودَ، وسوتَه بِخَفَرٍ وَخَجَلٍ لا عهد لى بمثله، وإن الشيء ليتضاعف حسنه فى عين مُستحسنة، ثم اندفعتُ تغنى بأبيات للعباس بن الأحنف.. ولعمري لكأن المضرابَ كان يقع على قلبى، وما نسيت ذلك اليوم، ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا».

وعضى ابن حزم فيذكر أن خطوبَ الفتنة الكبرى بقرطبة فرقت بينه وبين هذه الجارية إلى أن رآها بعد بضع سنوات فى جنازة لبعض أهله باكية نادية، فأثارت فيه وجدا دفيناً وحرکت ساكنا وذكرته عهداً قديماً وحُبًّا تليداً ودهراً ماضياً وجددت أحزانه، وما كان نسي، وزاد الشجا وتوقدت اللوعة. واضطُرَّ إلى فراق قرطبة سنة ٤٠٤ فغابت عن بصره نحو خمسة أعوام، وعاد فنزل على بعض أهله فرآها وما كاد يميِّزها فقد غاض الحسن وذهبت نضارتها لفقدها الصيانة التى كانت لها فى قَصْرِ أبيه وأيام عِزِّه، ويقول إنه مع ذلك لو أنالته أقلَّ وَصَلُ وأنست له بعض الأنس لجُنَّ طرباً أو لمات فرحاً، غير أن هذا النفار منها هو الذى أتاح له الصبر والسُّلوى مع ما ظل يطوى فى نفسه من عذاب حبه وآلامه.

ويمثل هذا التصوير الواقعى القصصى الصريح المرسل فى غير تكلف لسجع أو غير سجع يتحدث ابن حزم عن الحب العذرى العفيف وتجاربه فيه وتجارب معاصره وما له

(١) قصة: غرفة أو غرف مشرفة فى الدار.

(٢) فحوص قرطبة: ضواحيها

(٣) شراحيب: قوائم.

(٤) الزوال: التحول.

(٥) القيافة: المعرفة القائمة على التتبع.

(٦) مدلج فى الآنار هنا: متعمق فى تتبع الآنار.

من سلطان على النفوس وما يثير فيها من آلام وشكوك، وما له من ضحايا، وما يحدث فيه من العتاب والخصام والصلح والتواعد على اللقاء ومن الهجر والخداع والغدر والسلوان إلى غير ذلك مما يتعثر أهل الهوى في شبابه. وفي حديثه عن السعادة بالوصل يقول إنه «الحياة المجددة» ويقول الدكتور الطاهر مكى في هامش تحقيقه للكتاب إن هذه العبارة لفتت عامة المستشرقين لأنها تتطابق مع نفس العنوان الذى اختاره دانتى الإيطالى (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) لكتابه La Vita Nova الرائع، وهو على غرار طوق الحمامة، طاقة طريفة من أقاصيص الحب ومقطعات الشعر والتحليل النفسى الخلقى مما يؤكد معرفته بالطوق. ولا يشك آسبن بلاسيوس - كما ذكر بالثيا - في معرفة دانتى بالتراث الأدبى الأندلسى، ويشير الدكتور الطاهر مكى أيضاً فى هوامش الكتاب إلى تأثير بعض موضوعاته فى الروايات الإسبانية. ويذكر ابن حزم قصة فى باب «الفتنوع من المحبوب بأى شىء» عن امرأة فى صقلية شاهدت شاباً فى غاية الجمال بأحد المتنزهات، فسارت خلفه تنظر إليه، فلما بعد أتت إلى المكان الذى أثر فيه مشيه وجعلت تقبل الأرض فى مواقع قدميه، ويقول بالثيا إن شاعرهم الإسبانى المبدع «ماتياس» حاكى هذه القصة بنفس الصنيع. ويبدو أنه كان لطوق الحمامة ترجمة لاتينية مبكرة وأخرى إلى الإسبانية.

كتابة التاريخ والتراجم الأدبية

(أ) المقتبس لابن حيان

هو أبو مروان^(١) حيان بن خلف بن حيان، وقد وزر خلف للمنصور بن أبى عامر (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) وبعد وفاته وزر لابنه المظفر عبد الملك (٣٩٢ - ٣٩٩ هـ) وظل بقرطبة طوال اندلاع فتنتها (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ). وتوفى سنة ٤٢٧ هـ. ورزق بابنه حيان سنة ٣٧٧ وعنى بتربيته، ويذكر ابن بشكوال فى كتابه الصلة من شيوخه ثلاثة هم الفقيه المحدث عمر بن نايل واللغوى النحوى ابن أبى الحباب والعالم اللغوى المشهور صاعد البغدادى وجميعهم توفوا بين سنتى ٤٠٠ و٤٠٣ للهجرة، مما يدل على أن ابن حيان اكتملت له ثقافته وهو فى نحو العشرين، وكان منهوما بقراءة الكتب فعكف عليها يستوعبها وخاصة

وابنه محمد (طبع بيروت) وتاريخ الفكر الأندلسى
لبالثيا ص ٢٠٨ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين فى
الأندلس للدكتور حسين مؤنس (طبع مدريد)
ص ١٠١.

(١) انظر فى ابن حيان وترجمته اللخيرة ٥٧٣/١
والجذوة: ١٨٨ والبغية رقم ٦٧٩ والصلة رقم ٣٤٢
وراجع دراسة د. محمود مكى فى مقدمة نشره لقطعة
المقتبس الخاصة بعبد الرحمن بن الحكم الرضى

كتب التاريخ. وظل بعد وفاة أبيه لا يبرح قرطبة حتى وفاته سنة ٤٦٩ وليس بين أيدينا ما يدل على أنه عمل في دواوين الدولة حتى نهاية عهد أبي الحزم جهور سنة ٤٣٥. ويبدو أنه كان له ولأبيه من قبله ما كفل لها الحياة الكريمة، ونرى أبا الوليد حين يخلف أباه جهورا يلحقه بدواوينه ويفرض له راتباً واسعاً. وذكر مترجموه أنه لقب بلقب صاحب الشرطة، واستظهر الدكتور محمود مكى أن يكون هذا اللقب أسبق عليه رسمياً فقط دون أن يتولى القيام على الشرطة بقرطبة. وحين قسم أبو الوليد بن جهور الحكم في إمارته قرطبة بين ولديه عبد الملك وعبد الرحمن، وجعل لعبد الملك أمر قرطبة نفسها، وكان سىء التدبير حاصره المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، مما جعله يستنجد بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، وانتهاز المعتمد الفرصة فاستولى على تلك الإمارة سنة ٤٦٣ ونفى منها أبا الوليد وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن كما مر بنا في غير هذا الموضوع، ونرى ابن حيان يهنئه بهذا الفتح، كما نراه يوثق علاقته بأبي بكر بن زيدون وزير المعتمد، وفي الذخيرة رسالة له يشكره فيها على ما أرسله إليه من القمح والزيت والدهن، وظلت العلاقة وثيقة بينها إلى وفاة ابن حيان. ويذكر له الدكتور محمود مكى ثلاثة كتب تاريخية بجانب المقتبس هي:

- ١ - أخبار الدولة العامرية: دولة المنصور وابنيه المظفر عبد الملك والناصر.
- ٢ - كتاب المتين وابتدئ بتاريخ الفتنة سنة ٣٩٩ إلى نحو سنة ٤٦٣.
- ٣ - وكتاب البطشة الكبرى وهو في خلع المعتمد بن عباد لأبي الوليد بن جهور عن قرطبة ونفيه مع ولديه عبد الملك وعبد الرحمن إلى جزيرة شلطيش في الجنوب الغربي للأندلس.

ونظن ظناً أن أخبار الدولة العامرية لم تكن كتاباً مستقلاً عن كتاب المتين، بل كانت أجزاءه الأولى، وبالمثل كتاب البطشة الكبرى كان جزءاً في كتاب المتين، إذ يقال إنه كان في ستين مجلدة. وكان ابن حيان إنما كان له في رأينا كتابان في تاريخ الأندلس كتاب المقتبس وكتاب المتين، وقد سقط كتاب المتين من يد الزمن بسبب ضخامة حجمه، وفي كتاب الذخيرة والجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى والمغرب لابن سعيد وكتب ابن الأبار نقول منه كثيرة. وبقيت من المقتبس خمس قطع أو قل خمسة أجزاء: جزء يضم إمارة الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦هـ) وشطراً من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) وقد تملكه المستشرق بروغنسال ورجع إليه مراراً في كتابه «تاريخ

إسبانيا الإسلامية» ومصير هذا الجزء بعد موت يروغنسال غير معروف. وجزء ثان يضم بقية إمارة عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد (٢٣٨ - ٢٧٤هـ) نشره الدكتور محمود مكى بيروت. وجزء ثالث يضم إمارة عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) نشره الراهب ملتشور أنطونيا بباريس، ويعيد نشره الآن الدكتور مكى. وجزء رابع نُشر بمدر يد باسم الجزء الخامس نشره شالميتا مستعينا بكورينطى وصيح، ويضم الشطر الأكبر من خلافة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ). ثم جزء فى أحداث خمس سنوات من خلافة المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) نشره بيروت الدكتور عبد الرحمن الحجى. ويتميز ابن حيان فى المقتبس بأنه يضم فى تاريخ كل حاكم أموى إلى الأحداث المرتبة على السنوات معلومات مهمة عن شخصية الحاكم والأحوال الاجتماعية والعمرائية والاقتصادية فى عهده مع تراجم مفصلة للوزراء فى أيامه وللقواد والقضاة والعلماء والكتاب والشعراء. وبذلك يجمع المقتبس تاريخ الأندلس الثقافى والاجتماعى والعمرائى والاقتصادى إلى تاريخها السياسى. ونذكر قطعة من حديث ابن حيان فى الجزء الخاص بالناصر عن غزوته لمدينة بنبلونة قاعدة مملكة نبارة فى بلاد البشكنس.

«فى سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة غزّا الخليفة الناصر لدين الله إلى دار الحرب - دمرها الله - غزوته المعروفة ببَنْبُلُونَةَ: بلد أعداء الله الكفرة البشكنس، وسلك فى سفره هذا طريق الشرق، وتمنع من النزول إليه والغزومعه محمد بن عبد الرحمن، وكان بمدينة العسكر من أحواز^(١) بَلَنْسِيَّة، فنازل حصونه ووطئ بساطه وأوقع به.. ودخل بجموعه بلاد المشركين ببَنْبُلُونَةَ بأنفذ عزمٍ وأؤكد حزمٍ وأقوى نية فى الانتقام لله تعالى ولدينه من الأرجاس^(٢) الكفرة واحتل من أول بلدهم حصن قلهرّة، وكان العليج شانجه^(٣) أميرهم - لعنه الله - قد أخلاه فأمر بهدمه وإحراق جميع ما فيه. ثم انتقل منه إلى موضع يُعرف بقنطرة البّة وكانت حوله حصون منيعة قد أخلاها الكفرة، وخلفوا فى بسانطها^(٤) جميع أمتعتهم وأطعمتهم، إذ أعجلوا عن انتقالها ولجأ علوج منهم بأهليهم وأولادهم إلى ثلاثة غيران^(٥) فى شفير جرف^(٦) على النهر، فلم يزل المسلمون

(١) أحواز: نواحي.

(٢) الأرجاس جمع رجم: القدر.

(٣) العليج: الكافر الفظ، وشانجه: حاكم

البشكنس (٢٩٣-٣١٤هـ).

(٤) بسانطها: أراضيها المسوطة.

(٥) غيران جمع غار: المنخفض من الأرض.

(٦) شفير: جانب. جرف: شق الوادى.

يَتَوَقَّلُونَ^(١) إِلَيْهِمْ فِيهَا، وَيَتَسَوَّرُونَ^(٢) عَلَيْهِمْ مِنْ أَعَالِيهَا، حَتَّىٰ فَتَحَ اللَّهُ تِلْكَ الْغَيْرَانَ عَلَيْهِمْ، فَقَتَلُوا الْعُلُوجَ وَسَبَّوْا الذَّرَارَىٰ وَغَنَمُوا الْأَمْتَعَةَ، وَهُدِمَتِ حِصُونُ الْكُفْرَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي تِلْكَ الْجَهَةِ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهَا صَخْرَةٌ قَائِمَةٌ. ثُمَّ تَنَقَّلَ النَّاصِرُ لِدَيْنِ اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْمَحِلَّةِ^(٣) بَعْدَ أَنْ أَقَامَ فِيهَا يَوْمًا إِلَىٰ حِصْنِ فَالْجِشِّ فَاضْرَمَتْ نَارًا أَرْبَابُضَهُ^(٤) وَاسْتَقْصَبَتْ زُرُوعَهُ وَنَعِمَهُ بِالنَّسْفِ وَالِاسْتِئْصَالِ.. ثُمَّ اسْتَعَزَّمَ عَلَى الْإِغَالِ فِي بِلَدِ الْكُفْرَةِ وَالِاقْتِحَامِ لِسَرَوَاتِهِ^(٥) وَالتَّوَصَّلِ إِلَىٰ مَوْضِعِ قَرَارِهِمْ وَمَجْتَمَعِ كِفَارِهِمْ وَنِكَايَتِهِمْ فِي عَقْرِ^(٦) دَارِهِمْ وَمَكَانِ أَمْنِهِمْ.. وَأَمَرَ بِتَعْيِينِ الْكُتَّابِ وَتَرْتِيبِ الْمَقَاتِبِ^(٧) وَشَكِّ الْعَسْكَرِ^(٨).. وَارْتَحَلَ النَّاصِرُ لِدَيْنِ اللَّهِ بَيْنَ أَجْبَلِ^(٩) شَامِخَةَ، وَشَوَاهِقِ مَنْقَطَعَةٍ، وَالْجَبُوشِ لَا تَمْرٌ بِمَوْضِعِ إِلَّا اصْطَلَمَتْهُ^(١٠) وَنَسَفَتْ زُرُوعَهُ، وَأَفْسَدَتْ مَا لَمْ يَسْتَوْفِ أَكْلَهُ وَهُدِمَتْ قُرَاهُ وَحُصُونُهُ، إِلَىٰ أَنْ بَلَغَ مَدِينَةَ بَنْبُلُونَةَ الَّتِي إِلَيْهَا يُنْسَبُ الْإِقْلِيمُ، فَأَصَابَهَا خَالِيَةٌ مُقْفِرَةٌ، فَدَخَلَهَا النَّاصِرُ لِدَيْنِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَجَالَ فِي سَاحَاتِهَا وَأَمَرَ بِهَدْمِ جَمِيعِ مَبَانِيهَا وَتَخْرِيبِ كَنِيسَةِ الْكُفْرَةِ الْمَعْظَمَةِ وَمَوْضِعِ بَيْعَتِهِمْ^(١١) وَمَكَانِ مَنْسِكِهِمْ فَجُمِعَتْ الْأَيْدِي عَلَيْهِا، حَتَّىٰ جُعِلَتْ قَاعًا صَفْصَفًا^(١٢) وَتَنَقَّلَ النَّاصِرُ لِدَيْنِ اللَّهِ، وَكَانَ فِي مَمْرِهِ فَجْحٌ^(١٣) ضَيْقِ الْمَسَالِكِ وَعَرٌّ الْمَجَازِ.. وَتَظَاهَرَ^(١٤) أَعْدَاءُ اللَّهِ لِأَهْلِ السَّاقَةِ^(١٥) مُتَسَنِّمِينَ^(١٦) فِي جَبَلِ شَاهِقٍ، مَلْتَمِسِينَ الْفُرْصَةَ، فَنَهَضَتْ الْخَيْلُ إِلَيْهِمْ سَرِيعًا، فَكَشَفْتَهُمْ وَهَزَمْتَهُمْ، وَقَتَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَانْقَشَعُوا^(١٧) مُدْبِرِينَ لِاتْنِينَ لَا يَلُوُونَ وَلَا يَعْرِجُونَ، وَتَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ بِعِزَّةِ الْقَهْرِ وَسُورَةِ^(١٨) النَّصْرِ..

وهذا الأسلوب الأدبي الخافق بالحيوية البارع في تصوير المواقع الحربية يمضى ابن حيان في المقتبس وغيره من كتبه التاريخية، وكأنه يستمد من معين لغوى وأدبي لا ينضب،

- | | |
|---|---------------------------------|
| (١) يتوقلون إليهم: يأتونهم من الأعلى. | (١٠) اصطلمته: استأصلته. |
| (٢) يتسورون: يتسلقون. | (١١) بيعتهم بكسر الباء: معبدهم. |
| (٣) المحلة: الموضع. | (١٢) صفصفا: لا نبات فيه. |
| (٤) الأرباض جمع ربض: ما حول الحصن أو المدينة. | (١٣) فجح: طريق. |
| (٥) سروات البلاد: أوساطها وأعاليتها. | (١٤) تظاهر: تجمّع. |
| (٦) عقر دارهم: وسطها. | (١٥) الساقاة: مؤخرة الجيش. |
| (٧) المقاتب جمع مقتب: جماعة الفرسان. | (١٦) متسنمين: محتلين ومختفين. |
| (٨) شك العسكر: حمله للسلح. | (١٧) انقشعوا: انسحبوا وتفرقوا. |
| (٩) أجبل: جمع جبل. | (١٨) سورة هنا: مجد. |

معين يرفده بكل ما يريد من كلم ومن صور دالة بحيث يستوى له نسق أسلوب محكم بألفاظه التي يرصفها في يُسّر متلاحقة بجزالتها ورسالتها ونصاعتها وأى نِصاعة؟ لكأنما كانت الألفاظ مخبئة في أكامها اللغوية الأدبية، حتى جاء ابن حيان، فتفتحت له أكامها وانقادت إليه مهينة له هذه الروعة في اختيارها ونسج تعبيراتها مع الرونق الذي يلذ العقل والشعور، وهو رونق لا يستعين عليه بشيء من تزاويق المحسنات البديعية التي أخذ يصطنعها بعض كتاب عصره، ولا شيء من السجع إلا ما جاء عفوا، مثله في ذلك مثل ابن شهيد وابن حزم ولا إفراط في السرد التاريخي ولا تفریط، بل سرد مقتصد يؤدي المعاني بدقة، مع إحكام التصوير النفسى والاجتماعى لمن يترجم لهم من الأمراء والوزراء والقضاة وأصحاب المناصب الرفيعة والنساء والجوارى. ودائما يذكر بجانب محاسن الشخصية ومناقبها ما قد سُجِّلَ عليها من معاييب ومساوئ. وكثيرا ما يسوق قصصا ممتعة تتم ملامح الشخصية أو تخفف عن القارئ جفاف التاريخ على نحو ما يلقانا في الصفحات الأولى من الجزء الخاص بالناصر وحديثه في مطلعته عن حطّيته مرجان أم ولى عهده المستنصر وكيف سلّبتُه من ابنة عمه الحرّة وأوقعتها في شباك سُخْطه يدهانها ومكرها حتى منتهى حياتها. وهى قصة طريفة بما تصور من مكر النساء وكَيْدِهْنِ وما يتخذن لذلك من بعض الحيل الخادعة. وفي الحق أن كتابات ابن حيان في المقتبس وغيره طرازٌ من الكتابة التاريخية الأدبية لا مثيل له قبله ولا بعده.

(ب) الذخيرة لابن بسام

هو أبو الحسن علي^(١) بن بسام التغلبى الشنترينى من شَنَتَرين في أقصى الغرب على نهر تاجه بالقرب من مصبه في المحيط الأطلسى عند أشبونة، وُلِدَ بها قبيل سنة ٤٦٠ لأسرة على شيء من اليسار، وعُنى بتربيته أبوه، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، ونراه في صحبة مَنْ ببلدته من الأدباء وَمَنْ يحيطون بالمتوكل أمير بطليوس عاصمة إقليمه

وفي أثناء تحريره لها ٤٥٢/٢ و ٧٨٧/٣ و ٧/٤ وانظر إحكام صنعة الكلام للكلاعى (تحقيق رضوان الداية) ص ١٣٣ إذ يذكر إرسال ابن خفاجة له طائفة كبيرة من شعره ونثره. وقد حقق الدكتور إحسان عباس الذخيرة ونشرها نشرة علمية محققة في ثمانية أجزاء.

(١) انظر في ابن بسام وترجمته رايات المرزبن لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٤٥ وكتابه المغرب ٤١٧/١ ومعجم الأدباء ٢٧٥/١٢ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٠٨/٦ ومقدمته لكتابه الذخيرة وراجعه في محاورته مع ابن عبدون ١٤٤/١ وفي لقائه لابن الدودين ٧٠٢/٣ وفي عمله بدواوين إشبيلية ٢٠/٤ وفي ابتداء تأليفه للذخيرة ٦٥٤/٣

والوافدين عليه الملمين به مثل الشاعر ابن عبدون، وله معهم مطارحات. وينزل أشبونه سنة ٤٧٧ ويلتقى بأديبها ابن الدودين ويكتب عنه طائفة من نظمه ونثره. مما يدل على أنه أخذ يشغف بالتعرف على أدباء موطنه منذ شبابه وتدوين بعض أشعارهم ورسائلهم. وأكثر نصارى الشمال من الإغارة على بلدته، مما جعله يهاجر منها - كما ذكر في مقدمته للذخيرة - مروّع السّرب، بعد أن استنفد الطريف والتّلاذ، مما اضطره إلى التّقلب في البلاد. ولم يتجه إلى عاصمة إقليمه بطليوس، وإنما اتجه إلى إشبيلية عاصمة بني عباد، وبها كان أكبر حشد حافل بالأندلس حينئذ من الكتاب والشعراء، ويقول ابن سعيد في كتابه الرايات إنه اتخذها موطناً له، ويذكر ابن بسام إنه خدم في بعض أعمالها السلطانية، ونعله بدأ ذلك بأخرة من عهد المعتمد بن عباد. ولم يلبث أن أظله فيها عهد المرابطين وأميرها ابن أخى يوسف بن تاشفين الذى مهد له سلطانه على الأندلس: سير بن أبى بكر، وقد ظل يلى إشبيلية - فيما يقال - سبعة وعشرين عاماً. ويشيد ابن بسام في مقدمته للذخيرة بعهده وبما أسبغ عليه وعلى الأدباء من العطاء الوفير، ولم يسمّه، ولكن من الواضح أن هذا الثناء المستطاب على من خلف في حكم إشبيلية والبلاد إنما يريد به سير بن أبى بكر. ويقول إنه قدّم إلى حضرته الذخيرة مطرّزاً لها باسمه حتى تجوب به الآفاق. ويبدو أنه كان يترك إشبيلية فترات، ثم يعود إليها من حين إلى حين كما يبدو أنه استغنى من الأعمال السلطانية منذ أخذ يجمع عزمه على تحرير الذخيرة مكتفياً بما كان يغدقه عليه الكتاب والشعراء ممن يريدون أن يحفظوا بشرف ذكرهم فيها وما وفره من بيع نسخها أو إهدائها لهواة الأدب ومحبيه، ولا شك في أن سير بن أبى بكر أعطاه في نسخته مبلغاً ضخماً من المال، أكبر الظن أنه كفل له عيشة طيبة إلى أن توفى سنة ٥٤٢ للهجرة.

وكتاب الذخيرة حققه الدكتور إحسان عباس في ثمانية مجلدات، وقد ترجم فيه ابن بسام لشعراء عصر أمراء الطوائف وأوائل عصر المرابطين وكتّابها ترجمات ضافية، وسفّع ذلك بأخبار سياسية واجتماعية عن الأمراء والحكام وأهل الأندلس ومعاركهم مع نصارى الشمال. وقسم الكتاب أربعة أقسام: قسم لقرطبة وما بصاقبها من مَوْسطة الأندلس، وقسم لإشبيلية وأهل الجانب الغربى حتى ساحل البحر المحيط، وقسم لأهل الجانب الشرقى من دانية وبلنسية إلى الثغر الأعلى، ثم قسم رابع خاص بالوافدين على جزيرة الأندلس من المشرق والبلاد المغربية. وهو حين يعرض كاتباً أو شاعراً أو أميراً أو وزيراً لا يكتفى بكلمات مجمّلة أو مقتطفات شعرية ونثرية قليلة بل يعتمد إلى التفصيل وذكر الدقائق مستعيناً بمؤرخ عصر الطوائف ابن حيان في كتابه المتين وبقدرة تحليلية

وبيانية على حشد كل ما يجلو ملامح من يتحدث عنهم من الأدباء ورجال السياسة والحكم، وهو بذلك يختلف اختلافاً بينا عن الثعالبي في يتيمة والعباد الأصبهاني في خريدته، إذ لا يرصف حشوداً من الثناء والإطراء لا تكشف شخصية من يكتب عنه كما يصنعان، بل يجلو شخصيته جلاء تاماً، على الرغم من أنه يعتمد في كتابه على السجع مثلها، غير أنه سجع لا يستر حقائق الشخصية، بل يعرضها في ضياء غامر، ولنضرب لذلك مثلاً، هو ترجمته للشاعر أبي عبد الله بن الحداد الذي مرت ترجمته بين شعراء المديح وهو يفتتحها على هذه الشاكلة^(١):

«كان أبو عبد الله هذا شمسَ ظهيرةٍ، وبحرَ خَبرٍ وبسيرةٍ، وديوانَ تعاليمٍ مشهورةٍ، وضح في طريق المعارف وضوح الصُّبحِ المتهلِّلِ، وضربَ فيها بقُدحِ ابنِ مُقبلٍ^(٢) إلى جلالَةِ مَقطَعٍ، وأصالةِ مُنزَعٍ، ترى العلمَ يَنبُثُ على أشعاره، ويتبينُ في منازعه وآثاره، وله في العَروضِ تَأليفٌ، وتصنيفٌ مشهورٌ معروفٌ، مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية، والآراء الخليلية، وردَّ فيه على السَّرْقُسطِيِّ المنبوز بالحمار^(٣)، ونقض كلامه فيما تكلم عليه من الأَشطار. وأصل أبي عبد الله من وادي آش إلا أنه استوطن المَريَّةَ أكثرَ عمره، وفي بني صُمادحٍ معظمُ شعره، ومع ذلك طُولِبَ عندهم هنالك، ولِحَقِّ بنِغَرِ بنِي هود، وله فيهم أيضاً غيرُ ما قصيدٍ، وهو القائل بعد خروجه من المَريَّةِ من قطعةِ فلسفية:

لَزِمْتُ قَنَاعَتِي وَقَعَدْتُ عَنْهُمْ فَلَسْتُ أَرَى الْوَزِيرَ وَلَا الْأَسِيرَا
وَكُنْتُ سَمِيرَ أَشْعَارِي سَفَاهَا فَعَدْتُ لِفَلْسَفِيَّاتِي سَمِيرَا

وكان قد مُنيَ في صباه بصبيَّةٍ نصرانيةٍ ذهبتْ بلُبه كلَّ مذهبٍ، وركبَ إليها أصعبَ مَرَكَبٍ، فصرفَ نحوها وَجَهَ رِضَاهُ، وحكَّما في رأيه وهواه، وكان يسمِّيها نُويرَةَ كما فَعَلَ الشعراءُ الظرفاءُ قديماً في الكناية عن أحبِّه، وتغيير اسمٍ من علقوه. وقد كتبت في هذا الفصل بعض ما قاله فيها من مُلحِه، ورائق أوصافه ومِدجِه، وبعض سائر شعره، بعد تقديم فصول من نثره ما يُقرُّ بتفضيله، ويشهد له بجملته الاحسان وتفصيله».

والتعريف بابن الحداد مثل بقية الذخيرة مسجوع، والسجع فيها دائماً لا بينهم شخصيات الشعراء والكتاب بل يوضحها توضيحاً تاماً على نحو ما نرى الآن في السجع

(١) الذخيرة ٦٩١/١.

(٢) هو سعيد بن محزون وانظره في المجدوة ٢١٦.

والذيل والتكملة ٤٠/٥.

(٣) قدح بن صمدح سبغ فالتزم من سهام الميسر.

الذي قَدَّم به ابنُ الحداد، إذ يجلو ملاحظه وثقافته جلاء تاما، فهو عربي الأصل من قيس، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل وتم عن ذلك أشعاره، وله في علم العروض كتاب ردّ فيه على الفيلسوف السرقسطى الملقب بالحبار محتجا للخليل بن أحمد واضع هذا العلم بما ذكره عن الأعاريض المهملة وقد ألمنا بذلك في ترجمة ابن الحداد. ويذكر أن مسقط رأسه مدينة وادي آش إلى الشمال الشرقي من غرناطة وأنه استوطن المرية، وعاش بها سنوات متوالية يمدح بني صاهد أمراءها، وأنه حدث ما عكر صفو علاقته بأمرها المعتصم وسيذكر فيما بعد بالترجمة أنه اعتقل أخاه سنة ٤٦١. ويقول إنه ولي وجهه إلى بني هود بسرقسطة، ويذكر فيما بعد بالترجمة أنه عاد ثانية إلى المرية «وحسن بعدُ بها منّواه، وأكرمه المعتصم وأجزل قِراه» وظل بالمرية إلى أن توفي بها سنة ٤٨٠. ويعرض علينا في الترجمة قطعة كبيرة من نثره ورسائله، ثم يعرض علينا طرائف من شعره، ويفتطف من غزله بُنْويرةَ قطعة بديعة ويقول إن اسمها الحقيقي جميلة، وكان أهلها سموها باسم عربي، ثم يذكر مقتطفات من مدائحه في المعتصم بن صاهد منذ سنة ٤٥٥، ولا يتجلى لنا ذوقه الأدبي في جمال اختياراته من شعر ابن الحداد فحسب، بل أيضا تتجلى لنا قدرته النقدية إذ يرُدُّ بيتا لابن الحداد إلى أصله عند المعري، ويقول إن النابغة الذبياني سبق المعري إلى معناه وإن عبد الجليل بن وهبون الشاعر يشترك مع ابن الحداد فيه ويذكر لأبي وجزة السعدي الأموي بيتا يتعلق بالمعنى. وينشد لابن الحداد قصيدة ثانية ويلاحظ صلة بين بيت له وبيتين للمتنبي ويذكر أن المتنبي ألم في بيتيه بيتين لمسلم بن الوليد وأن مسلما مسوق في بيتيه بيتين للمعري. وتلقانا مثل هذه التعليقات النقدية في الذخيره مرارا وتكرارا. وأشار ابن الحداد في مدحة للمعتصم إلى قصة القارظين في الجاهلية فاستطرد ابن بسام يقصها استرواحا للقارئ. وبذلك تكاملت ترجمة ابن الحداد سواء في سيرته وحبه في مطالع شبابه لثويرة أو في ثقافته أو في نثره أو في شعره وطرائفه وبدائعه في مديح المعتصم والمقتدر بن هود.

ويقول ابن بسام في القسم الأول بحديثه عن أشعار بني الطنبلي (٥٤٤/١) إنه صان كتابه عن ذكر الهجاء المقذع إلا أن يكون من مליح التعريض، وكأنه أراد به منحى أخلاقيا وإن لم يطبقه بدقة أحيانا. ويمتزج هذا المنحى عنده بمنحى ديني إذ نراه في القسم الثاني بترجمته للشاعر ابن وهبون (٤٧٨/٢) يحمل على الشعر الفلسفي المتأثر بمنزع المتنبي وأبي العلاء، وهو تشدد أكثر مما ينبغي. وبحق حمل في القسم الأول بترجمة الوزير ابن الشياخ (٨٤١/١) على الاستعارات البعيدة التي يمجها الذوق كأن يجعل شاعر

للكلام كَيْسًا يَحُلُّ عَقْدَهُ، وَيَجْعَلُ شَاعِرَ تَانَ لِلْبُلُوَى بَرَّصًا وَيَجْعَلُ شَاعِرَ ثَالِثٍ لِلْمَهَابَةِ فَأَسَا. وكان له ذوق أدبي مصفى أحال به الذخيرة إلى متحف رائع يوجع بالاستعارات والأخيلة المبتكرة ولمع البديع الرائعة بل إنه يوجع بفرائد لا تحصى للأندلسيين من الشعر والنثر، ويكفى أنهم يبلغون في الكتاب أكثر من تسعين بين شاعر وكاتب، ولم يكد ابن بسام يترك لأحدهم عملاً أدبياً أبدع فيه إلا عرضه حتى يصور بدقة ما ذكره في مقدمة الكتاب من تفوق الأندلس في الأدب وأنها منه في الأفق الأعلى.

وفي الحق أنه لولا الذخيرة لظل الأدب الأندلسي بروائعه الباهرة شعراً ونثراً محجوباً عن الباحثين ولما استطاع أحد أن يكتب تاريخه. وذكر ابن بسام في بعض الصحف أنه ابتداءً تحرير الذخيرة بقرطبة سنة ٤٩٣ وقال إنه كان لا يزال معنياً بتحريرها سنة ٥٠٠ وأنه بدأ الكتابة في قسمها الرابع سنة ٥٠٢ ويبدو أنه كان لا يزال يعيد النظر في بعض فصولها، إذ نراه في ترجمته للكاتب ابن أبي الخصال يذكر أنه لم يجد لديه في سنة ٥٠٣ شيئاً من ترسله، فسأل بعض إخوانه أن يخاطبه ليرسل إليه بعض نماذج من أدبه. وبدون ريب اقتضت الذخيرة من ابن بسام جهوداً مضيئة في سنين متطاولة، وهى جهود تنوء بها العصبية أولو القوة.

مذكرات عبد الله بن بلقين

هو عبد الله^(١) بن بلقين بن حبوس بن ماكسن بن زيرى الصنهاجى القيروانى آخر أمراء بنى زيرى لعهد الطوائف. شاد لهم هذه الإمارة بغرناطة والبيارة زاوى بن زيرى فى زمن الفتنة، وظل يلى شئونها حتى سنة ٤١٠ وخلفه ابن أخيه حبوس بن ماكسن حتى سنة ٤٢٩ وقام عليها بعده ابنه باديس حتى وفاته سنة ٤٦٥ وورثها بعده ابن أخيه عبد الله بن بلقين وهو فى الثامنة من عمره، وحاز حظاً من العربية والثقافة غير أنه لم يكن على نصيب من السياسة والمهارة فى تدبير الحكم، فاتخذ وزراء أغماراً غير مجربين مثل سباحة الصنهاجى، ويقول ابن الصيرفى المؤرخ إنه كان جبانا هيابة مغمذ السيف، فكان طبيعياً أن ترتعد فرائضه كلما ذكر ألفونس السادس أمير قشتالة، وقد فرض عليه

وتاريخ ابن خلدون ١٦١/٤ والبيان المغرب لابن عذارى. ومذكرات الأمير عبد الله منشورة بدار المعارف فى القاهرة.

(١) انظر فى عبد الله بن بلقين المغرب ١٠٨/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبعة بروفسال) وما بعدها والإحاطة ٣٧٩/٣

عشرة آلاف دينار يدفعها سنويا. وكان طبيعيا أن يهمل لعبور يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بجنوده إلى الأندلس ومواقفته ألفونس في الزلافة وسحقه لجيشه سحقا كاد لا يبقى منه ولا ينذر. وعاد يوسف إلى المغرب، وعاد أمراء الأندلس إلى المنافسات فيما بينهم ومدُّ أيديهم إلى ألفونس السادس، كل يستعديه على أخيه، واستغاث الفقهاء في الأندلس ثانية بيوسف. وأخذ المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وعبد الله بن بلقين وغيرها يحاولون استصراخ ألفونس خشية أن يفكر يوسف في عزلهم وضم الأندلس إلى سلطانه. وعرف يوسف ما يبيتون وخشي على الأندلس من الضياع، فعبر إليها سنة ٤٨٣ وبدأ بغرناطة وأميرها عبد الله بن بلقين، وكان لا يزال يعد جيشه للقاء يوسف كما كان يفاوض ألفونس ويرسل إليه هدايا نفيسة ويطمعه بأموال كثيرة ليمد له يد العون، ونصحته خلاصه أن يلتقى ابن تاشفين وكان قد أصبح على مسافة فرسخين من غرناطة، فلقيه مترجلا مرحبا سائلا العفو، فأمنه على نفسه وأهله وطيب خاطره، وصودر كل ما كان بالقصر وكل ما ملك عبد الله وأمه من أموال. وأمر يوسف بتوزيع كل ذلك على قواده ولم يستأثر منه بشيء. ونفى عبد الله إلى المغرب الأقصى مع مشيعين يؤنسونه في الطريق ويتكفلون أموره، وكتب إليه يوسف: «لا أنساك ما بقيت» وأنزله بأغيات، وأسعفه - كما يقول ابن الخطيب - في رغباته، فعاش معيشة كريمة، ورزق ولدين وبتنا، وترك لهم - حين توفي - مالا جما.

وكتب عبد الله في أثناء منفاه بأغيات كتابا باسم «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى في غرناطة» وكانت قد حُفظت منه نسخة تنقص بعض الأوراق، فنشرها المستشرق بروفسال باسم «مذكرات الأمير عبد الله». وهو في الفصول الأولى من الكتاب يحكى مَقْدَم بنى زيرى الإفريقيين أو التونسيين إلى الأندلس وتأسيس زاوى بن زيرى لإمارتهم في غرناطة وتدير حبوس بن ماكسن بعده في تنظيم حكمها وإدارته وميراث ابنه باديس الإمارة بعده واستيلاءه على مالقة وتفويضه شئون الحكم إلى وزيره اليهودى ابن النغيلة وازدياد نفوذ النساء في القصر ومؤامرات ابن النغيلة وإفساده الحكم وقتل صنهاجة له واستيلاء باديس على جيان. ثم تتعاقب ثمانية فصول في الحديث عن إمارته، وفيها يتحول الكتاب إلى مذكرات حقيقية، مستهلا لها بالحديث عن أحداث الأندلس وتمزقها أمام ألفونس السادس وغاراته المتلاحقة على غرناطة وغيرها مما أدى إلى استيلائه على طليطلة سنة ٤٧٨ ثم ما كان من استصراخ الأمراء والسفارات لابن تاشفين وعبوره إلى الأندلس واشتراك الأمير عبد الله في موقعة الزلافة معه مجاهدا بجاله

وجنوده، ورجوع يوسف إلى المغرب واضطراره إلى العودة، ومبارحة الأندلس وعودة أمرائها إلى الخلاف. ويحاول أن يبرر نقضه لما عاهد عليه ابن تاشفين وأخذه في اختزان الأقوات وبناء الأسوار وإعلاء الأبراج استعداداً لمنازلته وحربه، والسوءة الكبرى أنه عقد معاهدة مع ألفونس السادس التزم فيها بأداء الجزية له سنوياً، ويقول إن ابن تاشفين علم بجميع ما صنع، فأرسل إليه يهدده وكتب إليه عبد الله يبرر مسلكه، ويعرض بعض الأحداث في إمارته وبعض الشئون الشخصية والأحوال الاجتماعية. ويفصل الحديث في عبور ابن تاشفين إلى الأندلس سنة ٤٨٣ للمّ شعثها ويصور متول جيشه أمام غرناطة وأحوالها وانصراف الناس والجنود عنه واضطراره إلى التسليم وما كان من نفيه إلى المغرب الأقصى ومن عزل بقية أمراء الطوائف. وينهى المذكرات بطائفة من تأملاته وأحاديث عن نفسه وعن أولاده. والمذكرات طرفة نفيسة بما تصور من الانحلال السياسي والاجتماعي والأخلاقي في الأندلس زمن أمراء الطوائف مما أدى إلى سقوط طليطلة في حجر ألفونس السادس وخنوع أمرائها له وانعكاس الموقف السياسي والحربي فلم يعد نصارى الشمال يؤدون الجزية لحكام الأندلس كما كان الشأن في العصر الأموي، بل أصبح حكام الأندلس وأمرؤها يؤدون الجزية لألفونس، وأوشكت الأندلس جميعها أن تسقط في حجره لولا أن تداركها ابن تاشفين فقلّم أظفار ألفونس في الزلافة وردّه إلى وكره خاسئاً مدحوراً. ولا تصور المذكرات الانحلال الذي عمّ الأندلس فحسب. بل تصور أيضاً غرناطة وجميع أحوالها في عهد بني زيري وخاصة في عهد أميرها عبد الله، كما تصور فساد حكمه ومنازعاته مع جيرانه ومحاولاته في التواطؤ المزمى مع ألفونس السادس أمير قشتالة عدوه ضد ابن تاشفين منقذ الأندلس من براثنه. وعبنا يحاول تبرير فساد سياسته التي أدت إلى ضياع إمارته وعزله، ونفيه إلى أغمات. ومع نفاسة هذه المذكرات عبثت بها يد بروفسال محققها إذ لم يكن يحسن العربية فامتألت بتصحيقات لا تكاد في أحوال كثيرة توجد بينها مسافات في السطور والكلمات. ونسوق من المذكرات قطعة من حديث عبد الله عن أهل غرناطة حين اقترب منها ابن تاشفين وانفضاض كل من فيها من الجنود والناس عنه حتى العبيد من الصقالبة وغيرهم وحتى الخدم من النساء والغلمان، يقول^(١):

«أما الجنود من البربر فكانوا مغتبتين بهم (بالمغاربة) طامعين في الزيادة على أيديهم

(١) المذكرات ص ١٥ وصححنا النصّ في غير

للجنسية، واتفق رأيهم على أن لا يلقوه بِجَحْدٍ^(١) وقداموا كتبهم بالطاعة، وراجعهم عليها، بعدهم بأن يبيحهم في أماكنهم على أفضل ما كانوا عليه.. وأما مَنْ كان من التجار وأهل البلد فكانوا على نية أنهم مع من انتصر ولا طاقة لهم بالحرب، ولا هم أهلها، وأكثرهم خرج من البلدة يقول: «لأى وجه نَحْتَمَل الحصار؟ تاجر هنا أو صانع، كما في غيرها. وأما الرعية فبئح بئح، ذلك ما كانت تبغى طمعا منها في الحرية وأنها لا يلزمها غيرُ الزكاة والعُشْرِ. وأما العبيد والصقالبة، فالعبيد الأعلاج (الأفظاظ) أول من عصا، رجوا أن يكونوا عنده في أعلى مرتبة. حتى الخدم من النساء والحِصيان كل طامع في إقبال الدنيا عليه والمخروج عن ثقاف (قيد) القصر إلى راحة التسريح والاستهتار بالرجال وما أشبه ذلك. وجعفر الخصيّ منهم ولبيب كانا زعيمى المداخلة ورأسا الفتك، يقولان: «نحن لا ولد لنا ولا تالد^(٢)» فعلى أى شيء نصير^(٣) إلى القتال؟ وما عسى نطمع إن نصّر إليه؟ هل تحصل لنا سلطنة أو قيادة أو قضاء أو فقه؟ إنما نحن بمنزلة العيال، من سبق^(٤) استمتع بنا وكنا عنده من جملة الفيء، نُرَزَقُ كسائر الكسب، فلا نضيع، تعالوا بنا نقدّم لأنفسنا، ووردت عليهم كتب أمير المسلمين بالإنزالات القويّة والمناقيل والمراتب العالية، يعدهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم^(٥) له.»

وعبد الله يقول إن جيشه وهو من البربر اغتبط بالمرايطين لأنهم بربر مغاربة مثله، ولما رجوا من زيادة رواتبهم، لذلك قرروا أن لا يلقوا ابن تاشفين بإنكار لصنيعه وما كان من إنقاذه للأندلس، وأرسلوا إليه يعلنون طاعتهم، فكتب إليهم برضاه عنهم وأنه مبيحهم في أماكنهم وزائدهم في رواتبهم. وأما التجار والصناع فهم مع من انتصر، وأما الرعية فابتهجت بمقدم ابن تاشفين، لما كان يثقل عليهم عبد الله من ضرائب متنوعة تارة باسم ألفونس السادس وتارة باسم حاجة الجيش والدولة بجانب زكاة العين وعشر الزرع. وفعلا بمجرد أن استسلم عبد الله لابن تاشفين أسقط عن الرعية تلك الضرائب مكتفيا بزكاة العين وعُشْرِ الزرع، وانفض عن عبد الله سريعا العبيد والصقالبة آملين أن يجدوا عند ابن تاشفين مرتبة أعلى، ومثلهم الخدم من النساء والحِصيان طامعين في إقبال الدنيا عليهم. ويصور موقف الحِصيان على لسان حِصيين كبيرين، قالا إننا لا نعد أنفسنا شيئا إنما نحن لمن غلب، وأرسلها وأضر بها الكتيب إلى ابن تاشفين، وردّ عليهم بأنه

(١) في الأصل: بجحد: نكران للحق.

(٢) في الأصل: تلد. والتالد: القديم. والموروث من المال.

(٣) يريدون نصير.

(٤) في الأصل: سبق.

(٥) في الأصل: إسلامهم.

سيعطيهم ما أملوه من مئاقيل الدراهم والرواتب والمراتب العالية. وهكذا تلفت عبد الله حوله فلم يجد له ناصرا، مما جعله يسارع إلى تسليم نفسه لابن تاشفين. والمذكرات تلمح على هذه الشاكلة في لغة بسيطة لا سجع فيها ولا تكلف إلا ما دخلها من تصحيقات، ويقول محققها إنه نقلها عن نسخة محفوظة بجامع القرويين بفاس، وحرى أن يعيد نشرها محقق من أبناء الضاد يتقن العربية وقراءة خطها الأندلسي.

قصة^(١) حى بن يقظان لابن طفيل

مر بنا في الفصل الثاني تعريف قصير بابن طفيل بين فلاسفة الأندلس مع ذكر أهم المصادر لترجمته، وهو في الذروة من الفكر الأندلسي، عاش في القرن السادس الهجري (٥٠٦ - ٥٨١ هـ) ونريد الآن أن نفضل الحديث في قصة أدبية فلسفية قيّمة له هي قصة حى بن يقظان، وهي قصة فلسفية صوفية تثبت أنه لا تقاطع بين العقل والشرعية أو الفلسفة والدين، وهو فيها يحكى بالتفصيل قصة حى ونسأته في جزيرة مهجورة من جزر الهند تحت خط الاستواء، ويقول إنه اختلف في تكوينه، فقيل إنه تولد - دون أم وأب - من طينة تخمّرت بالجزيرة على مر السنين، وقيل إنه ابن أميرة جميلة كانت شقيقة لملك يمتلئ بالغيرة والأنفة منعها من الزواج بحجة أنه لا يجد لها زوجا كُفناً، فتزوجت سرا من قريب لها يسمى «يقظان»، وحملت منه بجنين، ولما وضعته خشيت أن ينكشف سرها، فوضعتة في تابوت أحكمت إغلاقه، واستودعته أمواج اليم، فألقت به في تلك الجزيرة وسمعت صياحه طيبة فقدت وليدها، فعطفت عليه، وظلت ترضعه وصارت له كأمه، وغما الطفل العريان وأخذ يتحول تدريجيا إلى معرفة كل ما حوله. وتنقل به ابن طفيل من المهد إلى الصبا إلى الشباب، وهو يلاحظ ويجرب ويتأمل، نافذا إلى كل المعارف، من خلال فكر مستبصر. وما إن يصل إلى سن الثلاثين حتى يحيط بالطبيعة من حوله، وحتى يستغلها لغذائه ولكل حاجاته بدءا بتحريك يديه واستخدامها وستر سوءته ومعرفة الصيد، والنار واستخدامها في إنضاج السمك واللحم، واتخاذ المخزن لحفظ ما يفضل من غذائه، والتفت إلى فرق ما بين النبات والحيوان في الحركة وارتفاع الهواء

وإيران ص ٦٤٤ وما بعدها وانظر في قصة حى بن يقظان لابن طفيل وترجماتها بروكلمان وبالنينا ص ٣٤٨ و ٦٠١ ومقدمات أحمد أمين لطبعة دار المعارف وكتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ص ٩٩ وما بعدها.

(١) طبعت قصة حى بن يقظان بمصر مرارا وفي دمشق وآخر طبعاتها بالقاهرة طبعة دار المعارف سنة ١٩٥٩ ومعها نفس القصة لابن سينا وللسهروردي وانظر فيها كتابنا عصر الدول والإمارات الجزء الخاص بالجزيرة العربية والعراق

واللهيب إلى أعلى وانحدار الماء إلى أسفل، ولاحظ أن كل ما في الطبيعة خاضع لقانون الكون والفساد، وعرف أرفع حقائق الطبيعة. وطال به التأمل في ملكوت السموات والأرض، وهدهد تفكيره إلى أن كل ما في الوجود لا بد له من خالق لا يستغنى عنه، وأحس حاجته إلى مشاهدته وما ينبغي أن يكون عليه من طهارة جسده وصفاء نفسه حتى يتحد به. وتعبّد لذلك في غار الأيام ذوات العدد وصام أربعين يوما. وظل يستغرق في تأملاته منفصلا عن العالم الخارجى وعن جسده وحواسه حتى غاب عن كل ما حوله غيبات متصلة، وأصبح لا يحس شيئا سوى واجب الوجود، وكأنما فنى فيه عن ذاته، فليس في الوجود إلا الواحد الأحد، وكأنما هما شيء واحد أو كأنما ذاته هي ذات الحق. وكان يفيق من حاله تلك المتصلة بالعالم الإلهى البرئى من المادة ويعود إلى العالم الحسى مرارا وتكرارا، وأحس أنها عالمان مختلفان تمام الاختلاف: عالم يقوم على الكشف والتذوق ويصيب الإنسان فيه ما يشبه السكر والإغماء، وعالم يقوم على المنطق والعقل والمحسوسات المادية.

وحين بلغ خمسين عاما من عمره نزل جزيرته من جزيرة مجاورة رجل تقى يسمى أبسال وصلته - كما وصل أهلها - تعاليم النبوة، وتعرف على «حى» وعلمه اللغة والكلام، وعجب أن وجد في الطريق الفلسفى الذى سلكه «حى» تعليلا علويا لرحلة العقل من عالم الحس إلى عالم الدين الروحى الذى اعتقده ولجميع الأديان المنزلة، وعرض عليه أن يأخذه إلى جزيرته التى يحكمها صديقه سلامان حتى يرى أهلها ما اكتشف من الحقائق العليا، وقبّل عرضه ونزل معه تلك الجزيرة وأخذ يحدث أهلها عن العالم الإلهى الذى يتحد فيه الإنسان بربه ولا يرى فى ذاته ولا فى الوجود سواه، غير أن الناس لم يفهموا ما يتحدث عنه، وكلما زاد فى الحديث ازدادوا نبواً ونفارا، إذ تهالكوا على الشهوات وجمع حطام الدنيا، وأصبحت لا تنجع فيهم الموعظة ولا الكلمة الطيبة، فقد أهنهم عن ذكر الله تعالى الدنيا، مما جعل مخاطبتهم عن طريق التذوق الروحى لا تمكن، فحسبهم ما تخاطبهم به شرائعهم حتى يستقيم معاشهم، لذلك اعتذر «حى» لسلامان وأصحابه عما تكلم به معهم، ونصحهم بالتمسك بديانات آبائهم وأعمالها الظاهرة فإن ما وراءها من الاتصال بالعالم الإلهى والذات الإلهية فوق حاجتهم ومداركهم. وقرر مع صاحبه أبسال العودة إلى الجزيرة المهجورة لينعما فيها بحياة المكاشفة الإلهية. ونقطت من القصة قطعة يصور فيها «حى» أنه ما زال يحاول الاتصال بواجب الوجود معرضا عن جميع المحسوسات، مستغرقا فى مشاهدته، واستطاع بجهاده أن تغيب عنه جميع

الذوات إلا ذاته فإنه كان لا يزال يشعر بها، وكان يدرك في وضوح أن هذا الشعور شوبٌ يشوب المشاهدة الإلهية المحضة، وما زال يجاهد في الاتحاد بربه يقول:

«ما زال يطلبُ الفناءَ عن نفسه والإخلاصَ في مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلك، وغابت عن ذكره وفكره السمواتُ والأرضُ وما بينهما وجميعُ الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميعُ القوى المفارقة للمواد والتي هي الذوات العارفة بالموجود، وغابت ذاته في جملة تلك الذوات وتلاشى الكلُّ واضمحلُّ وصار هباءً منثوراً ولم يَبْقَ إلا الواحدُ الحقُّ الموجودُ الثابتُ الوجود، واستغرق في حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطرَ على قلب بشر. ولا تعلقُ قلبك بوصف أمرٍ لم يخطر على قلب بشر فإن كثيراً من الأمور التي قد تخطر على قلوب البشر يندُرُ وصفها فكيف بأمرٍ لا سبيل إلى خطوره على القلب ولا هو من عالمه ولا من طوره.. ومن رامَ التعبيرَ عن تلك الحال فقد رام مستحيلاً. وأقول إنه لما فتى عن ذاته ولم ير في الوجود إلا الواحدَ الحيَّ القيومَ وشاهد ما شاهد، ثم عادَ إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسُّكر فخطر بباله أنه لا ذاتَ له يغير بها ذاتَ الحقِّ تعالى وأنَّ حقيقة ذاته هي ذات الحق وأن الشيء الذي كان يظنُّ أولاً أنه ذاته المغايرة لذات الحق ليس شيئاً في الحقيقة، بل ليس شيء إلا ذاتَ الحقِّ، وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها، فإنه وإن نُسبَ إلى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو في الحقيقة شيئاً سوى نور الشمس، وإن زال ذلك الجسم زال نوره وبقي نورُ الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه لما قد كان بان له من أن ذاتَ الحق عز وجل لا تتكرر بوجه من الوجوه».

وابن طفيل في هذه القطعة من قصته يصور تصويراً رائعاً شعور المتصوفة بانمحاءهم في ربهم وفنائهم فيه. ولروعة القصة ترجمت إلى اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة، ومن أقدم ترجماتها ترجمة بوكوك لها في أوكسفورد إلى اللاتينية بعنوان الفيلسوف الذي علم نفسه بنفسه مع نصها العربي سنة ١٦٧١ وترجمت إلى الهولندية سنة ١٦٧٢ وترجمها أوكللي إلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨ وعلى ضوئها كتب دانييل ديفو قصته: «روبنسن كروزو». وترجمها إلى الألمانية إنجهورن سنة ١٧٨٢ وترجمها بونس بويجس إلى الأسبانية سنة ١٩٠٠ وترجمها بتروف إلى الروسية سنة ١٩٢٠ وترجمها بالنشيا إلى الإسبانية سنة ١٩٣٤ وأعاد ترجمتها سنة ١٩٤٨ وترجمها إلى الفرنسية ليون جوتيه سنة ١٩٠٠ ثم أعاد ترجمتها سنة ١٩٣٦ وزعم المستشرق الإسباني المعاصر غرسية غوميس في بحث نشره

عن القصة بمدير يد سنة ١٩٢٦ أنه وجد بمكتبة الإسكوريال في مخطوط موريسكى يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادي قصة بعنوان قصة الصنم والملك وابنته، وزعم أنها كانت شائعة بين الموريسكيين (بقية المسلمين في الأندلس) ورأى أنها تلتقى بقصة حى بن يقظان وبالفصول الأولى من قصة الكريتيكون لجراثيان اليسوعى الأرجونى التى نشرت فى منتصف القرن السابع عشر، فقد وجد قصة الصنم تقول إن الأميرة بنت الملك حُجرت عن الناس فى مَحْبَس لتنجو من طالع سىء، واستسلمت فى مَحْبَسها لابن الوزير وحملت منه ووضعت وليدها فى صندوق من الخشب وألقت به فى اليم، فحملته الأمواج إلى جزيرة نما فيها واهتدى ببصيرته إلى بدائع خلق الله، وبدلا من أن يقول إن القصة الموريسكية وقصة جراثيان استضاءتا بقصة ابن طفيل السابقة لهما بأربعة قرون أوتزيد زعم زعما غريبا هو أن ابن طفيل كان قد عرف أصل القصة الموريسكية عند أجداد الموريسكيين المسلمين من معاصريه، وأنها ألهمته حينئذ قصته: حى بن يقظان. وكل ذلك لينفى عن ابن طفيل أصالته فى قصته العالمية الفريدة، وقد نقض رأيه جوتيه فى ترجمته المجددة لقصة حى بن يقظان سنة ١٩٣٦ قائلا بحق: إنه لا علاقة بين مضمون قصة حى بن يقظان والقصة الموريسكية. وقد افترض غرسية أن القصة لم تعرف فى المحيط الإيبانى إلا بعد ترجمتها إلى اللاتينية فى القرن السابع عشر! وكان ينبغى أن ينبه ما بينها وبين قصة الكريتيكون المطبوعة فى القرن السابع عشر من تشابه إلى أن الأقرب إلى المنطق وطبائع الأشياء أن تكون قصة حى بن يقظان مما ترجمته مدرسة طليطلة إلى القشتالية أو الإيبانية القديمة فى القرن الثالث عشر الميلادى أو قبله أو لعلها ترجمت قديما إلى اللاتينية، وعلى ضوء إحدى الترجمتين كتبت قصة الكريتيكون. وأيضا كان جديرا بغرسية أن يصل بين قصة ابن طفيل وقصتى ابن سينا اللتين أشار إليهما ابن طفيل فى مقدمته لقصته وهما قصة حى بن يقظان وقصة سلامان وأبسال وما تصوران من غلبة العقل على القوى البدنية وغلبة الذات الإلهية على العلل الكونية، ويؤكد هذه الصلة أن شخصيات أبسال وسلامان وحى بن يقظان عند ابن سينا هى نفس شخصيات قصة حى بن يقظان عند ابن طفيل. وأكثر من ذلك يشير ابن طفيل فى مقدمة قصته صراحة أنه يتابع ابن سينا فى نزعة الصوفية التى بثها فى كتابه أسرار الحكمة المشرقية التى تقابل الحكمة اليونانية. وأيضا فإنه تابع ابن باجة - الذى نوه به مع ابن سينا فى مقدمة القصة - فى كتابه تدير المتوحد الذى يتحد فيه - كما مر بنا فى الفصل الثانى - عقل الفيلسوف بالعقل العلوى الفعال مباشرة واصلا بذلك ابن باجة بين الفلسفة والدين، ولكن دون نزوع إلى التصوف كما يقول ابن طفيل فى مقدمته للقصة.

ولا علاقة أى علاقة بين قصة ابن طفيل ومذهب الأفلاطونية الحديثة كما ظن بالثنيا وغيره، وأيضاً لا علاقة بين يقظان فى القصة والمسيح، فيقظان ليس هو الله ولا حى ابن الله كما ظن بالثنيا ظناً مخبطاً، ومعاذ الله أن نصل بين قصة ابن طفيل والمسيحية بأى وجه من الوجوه، والقصة تزخر بالآيات والتعبيرات القرآنية والروح الإسلامية الصوفية. وكان حرياً بفرسية وغيره أن يردوا عناصر الإطار فى القصة إلى ما ذكره ابن طفيل نفسه من أنه استوحى فكرة ميلاد «حى» بدون أم ولا أب فى إحدى جزر الهند مما جاء عند المسعودى من أن بين تلك الجزر جزيرة يتولد فيها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساء. أما تصوره بأن طينا تخمر وتخلق منه «حى» فقد استوحى فيه مثل قوله تعالى عن أصل خلق الإنسان من طين: (ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين). وأما على التقدير الثانى وهو أنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة يملكها رجل شديد الأنفة والغيرة وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعصلها ومنعها من الأزواج إذ لم يجد لها كُفْتًا، وكان له قريب يسمى «يقظان» فتزوجها سرا وحملت منه ووضعت طفلاً، ولما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعت فى تابوت أحكمت زمه (إغلاقه) وخرجت به فى أول الليل إلى ساحل البحر وقذفت به فى اليم فحملته أمواجه إلى ساحل تلك الجزيرة فإن ابن طفيل يستلهم القسم الأول من هذا الخبر للمولود مما رددته بعض كتب التاريخ العربى من خبر هرون الرشيد مع أخته العباسة ووزيره جعفر بن يحيى البرمكى من أنه كان لا يستطيع الصبر عن لقائها، فقال لجعفر أزوجها لك ليحل لك النظر إليها ولا تقربها، فقال: نعم. فزوجها منه، وكانا يحضران معاً، وكان الرشيد يتركها فحملت العباسة من جعفر، وخافت الرشيد فسيرت ابنها مع حواضن إلى مكة. والصلة واضحة بين ميلاد حى سراً من أخت الملك وميلاد ابن العباسة سرا من أخيها الرشيد ومحاولة كل منهما تهريب مولودها، واستلهم ابن طفيل فى وضع أم حى له فى تابوت والقذف به فى يَم نقلته أمواجه إلى جزيرة ما جاء فى القرآن الكريم عن أم موسى حين وضعت وخافت عليه من فرعون ومَلته أن يقتلوه - وكانوا يقتلون أبناء اليهود الذكور ويستحيون بناتهم الإناث فأوحى الله إليها - كما جاء فى سورة طه - ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ ونفس الصيغة القرآنية نجدها عند ابن طفيل حين يقول عن أم حى: «وضعت ابنها فى تابوت ثم قذفت به فى اليم فاحتمله إلى ساحل الجزيرة» وهو تطابق واضح مع العبارة القرآنية. وبذلك كله يتضح أن عناصر الإطار القصصى فى قصة حى بن يقظان عناصر عربية إسلامية صوفية خالصة.

المقامات والرحلات

(أ) المقامات

فن المقامات من أهم فنون النثر العربي، وقد ابتكره بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨-٣٩٨هـ) نافذاً فيه إلى أقاصيص نصور الأدباء السيارين المسمين في عصره بالساسانيين المحترفين للكُذبة أو الشحاذة الأدبية متخذاً له أدبياً شحاذاً، أو متسولاً كبيراً، هو أبو الفتح الإسكندري، ومعه راويته عيسى بن هشام. وبديع الزمان يصور حيل أبي الفتح في استخلاص الأموال والمطاعم من أيدي الناس بفصاحته وخلاصة منطقته في أسلوب قصصي يشيع فيه الحوار. وطارث شهرة مقامات البديع في العالم العربي ونزلت قرطبة فيما نزلت من بلدانه، ونرى ابن شهيد المار بنا يستوحى - كما ذكرنا - من إحدى مقامات البديع، وهي المقامة الإبلسية، رسالته التوابع والزوابع التي بناها على لقائه في وادي الجن للشياطين الشعراء والكتاب، ولقى بينهم شيطان بديع الزمان. وليس ذلك فحسب فإننا نراه - كما مرّ بنا - يحاكيه في وصفه للحلواء ببعض مقاماته كما يحاكيه في وصفه الرائع للماء. ويعرض علينا ابن بسام في ذخيرته ثلاث مقامات، غير أنها ليست مقامات بالمعنى الذي أراد بديع الزمان إذ لا تقوم على الكذبة والشحاذة الأدبية، وإنما تصف موضوعاً أو موضوعات، وهي أشبه بالرسائل منها بالمقامات.

وأولى المقامات الثلاث مقامة أبي حفص^(١) عمر بن الشهيد الذي لقيه الحميدى في المرية سنة ٤٤٠ وهو من شعراء أميرها المعتصم بن صهاح (٤٣٩-٤٨٤هـ) ومقامته أشبه بوصف رحلة له وصفاً أدبياً طريفاً، فيه غير قليل من الدعابة، وقد استهلها بنعى حال الكتابة في عصره وأنها أصبحت صنعة ممتهنة. ويكتفى ابن بسام بعرض فصول منها، وفي أحد الفصول يصف ابن الشهيد الربيع وصياح الديك في السحر، وفي فصل ثان يصف منزل بدوى دخله مع صحبه «فهش البدوى وبش، وكنس منزله ورش، وصير عياله

المجدوة للحميدى ص ٢٨٣ والبغية ص ٣٩٤
والمغرب ٢/٢٠٩.

(١) انظر في أبي حفص بن الشهيد ومقامته
الذخيرة ١/٦٧٠ وما بعدها، وراجع في ترجمته

إلى ناحية، وجمع أطفاله في زاوية». ويتحدث عن أثار بيته حديثاً فكها، ويقول إنه حاول أن يكرمهم فدعا صبيانه ليمسكوا بديك هَرَم، ويستغيث بهم الديك ويتشفع - في حوار طويل - بهرمه وأنه أصبح لضعفه ونحوه أشبه بالأدوية منه بالأغذية، ويرقون له. ويقدم إليهم البدوى بعض أطفاله معتذراً ويقبلون عُذْرَه ويرحلون سحراً عنه. وينزل مع صحبه قرية مسيحية سمعوا فيها صوت الناقوس والموابدِير راعهم ما فيه من شمس وأقمار ولا سيوف إلا من مُقْلٍ ولا تُرُوسٍ إلا من خَجَلٍ، فنزلوا فيه وشربوا من الدنان ما أسكرهم ثم شدوا الجياد عنه رَكُضاً فمروا بكنيسة متهدمة ويبكى ابن الشهيد أطلالها وما كان فيها. ويفضى مع صحبه إلى مروج بها قطعان من السائمة، ويصيدون كثيراً من طير البرك، وينقش على مرمرية بيضاء مقطوعة شعرية يصور فيها البرك ومياهها وما صادوه من طيرها. ويستأنفون السَّيرَ ليلاً، ويلقاهم شابُّ فارسٍ ممتطياً جواداً ومُتَقَلِّداً حُساماً، آيِقٌ من أهل حصن لنصارى مرَّوا به، معلنا إليهم أنه عَبْدُ الصَّلِيبِ وَقَرَعِ الناقوسَ إلى أن أسعده الله بهداية الإسلام، ويشهد أن الله إِلَهُ واحد، ليس له وَلَدٌ ولا والد. وبذلك تنتهى المقامة وهى أشبه بنزهة متعددة المشاهد.

والمقامة الثانية عند ابن بسام مقامة أبى الوليد^(١) محمد بن عبد العزيز المعلم أحد وزراء المعتضد أمير إشبيلية وكتابه، وقد انتقى منها ابن بسام فصولاً وأولها يستهله ابن المعلم بالحنين إلى ماضٍ نعم فيه برفاهية العيش، ثم دار به الدهر من نعيم إلى شظف شديد، وما يلبث أن يقول إن البشير قرع بابه حاملاً إليه كتاباً من أمير، فلبَّاه، حتى إذا مثل بين يديه أسمعه مدحة فيه ثم تلاها بنثر مُفْرَطٍ في الثناء عليه من مثل قوله: «هو الإمام الطاهر، والكوكب الزَّاهر، والأسدُ الخادِرُ^(٢)، والبحرُ الرَّاخِرُ، أوهبُ الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجرائر.. أعطرُ من العنبر، فى كلِّ مِنبر، وأفوح من المسك الذكيّ، فى كلِّ نِدَى» ومضى فى مثل هذا الثناء حتى استطير الأمير فرحاً، وأزدهى مَرِحاً، وقام إليه فقبَّل بين عينيه. وبذلك تنتهى المقامة، وهى أشبه برسالة فى مدح أمير، وربما كتب بها إلى المعتضد أميره.

والمقامة الثالثة عند ابن بسام مقامة أبى محمد^(٣) بن مالك القرطبي، وقد ساق فى

(٢) الخادر: المقيم بعينه.

(٣) انظر فى أبى محمد بن مالك ومقامته الذخيرة

٧٣٩/١ وما بعدها وراجع فى ترجمته القلائد ١٧٠.

(١) انظر فى ابن المعلم ومقامته الذخيرة ١١٢/٢

وراجع الجذوة ص ٦٥ والبيغة ص ٩٤ والمغرب

١١٢/١.

ذخيرته بعض فصولها، وابن مالك يديرها على مديح المعتصم بن صباح أمير المرية ويُغرق في مديحه إغراقاً شديداً، ونراه يُطيل في وصف فتوحه وانتصاراته في الحروب ووصف جيشه وأسلحته من الدروع والسيوف والرماح والخيل مظهراً في هذا الوصف غير قليل من البراعة، ولا يزال ينثر عليه ثناءه من مثل قوله: «جَدْبُ وِربيعِ مُعْرِقٍ، وليل ونهار مشرق، فيه الصَّابُ والعَسَلُ والسَّهْلُ والجَبَلُ، ثالثُ القمرين وسِراجُ الخافقين^(١)»، وعماد الثقلين، المعتصم بالله ذو الرياستين». ويشكو للمعتصم عوز أهله وضيقة ذات يده، وأنه لولا ما يقبده من أفرخ كزغب القطة لتقدم في صفوف جُنده تارة محارباً وتارة خطيباً محمّساً أو مُهادِناً. وبذلك تنتهي المقامة، وهي أشبه بقصيدة مدح طويلة دبجها في المعتصم بن صباح

وعلى هذا النحو نقتد المقامة التي تقوم على الكُذبة والشحاذة الأدبية في عصر أمراء الطوائف، ويظهر الحريري (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) ويؤلف مقاماته في أواخر القرن الخامس وسرعان ما تُدوى شهرتها في العالم العربي ويؤمّه الرواة من كل مكان يأخذونها عنه، وأمّه من الأندلس في فواتح القرن السادس الهجري أبو^(٢) القاسم عيسى بن جهور القرطبي وأحمد بن محمد بن خلف الشاطبي وأبو الحجاج يوسف القضاعي البُلنيسيّ والحسن بن علي البَطْلَيْوسيّ، وجميعهم حملوا مقاماته إلى الأندلس وأخذها عنهم تلاميذ كثيرون ومضوا بدورهم يدرسونها لطلابهم، وأخذ نفر من دارسيها هناك يتجرّد لشرحها، منهم عبد^(٣) الله بن ميمون العبدي القرطبي المتوفى سنة ٥٦٧، ومنهم أبو العباس^(٤) أحمد الشريشي المتوفى سنة ٦١٩ وقد صنع لها ثلاثة شروح: كبير طبع بمصر مرارا في جزئين، ثم أوسط وأصغر. ومعروف أن مقامات الحريري تقوم - مثل مقامات يديع الزمان - على الطريقة الساسانية أو الشحاذة الأدبية، وقد بلغ الحريري بفنّها الذروة.

وإذا رجعنا إلى ما أثر من مقامات عند الأندلسيين بعد مدارستهم لمقامات الحريري وجدنا المقامات تأخذ نهجين: نهجها المار في القرن الخامس الهجري القائم على الوصل بينها وبين أغراض الشعر من مديح وغيره وكذلك بينها وبين أغراض الرسائل من وصف بعض المشاهد والبلدان. ونهج جديد يستوحى الحريري في مقاماته الساسانية القائمة على

(٣) انظر ترجمة العبدي في المغرب ١/١١١.

(٤) راجع في الشريشي التكملة ١١١ والنفع

١١٥/٢ والمنهل الصافي ١/٣٥٤.

(١) الخافقان: المشرق والمغرب، والتقلان: الإنس

والجن.

(٢) انظر في ترجمة أبي القاسم بن جهور وزملانه

التكملة رقم ٣٥ ورقم ٧٢٧ ورقم ٢٠٧٦.

الكُتبية والشحاذة الأدبية، ومن النهج الأول المقامة الدَّوْحِيَّة لمحمد^(١) بن عياض اللَّبْلِيِّ المتوفى سنة ٥٥٠ وموضوعها الغزل، وذكر ابن سعيد في المغرب فاتحتها، والمقامة العِيَاضِيَّة لمحارب^(٢) بن محمد بن محارب الوادى آشى المتوفى سنة ٥٥٣ وهى فى مديح القاضى عياض، ومقامة فى هجاء بعض أعيان مالقة لعل^(٣) بن جامع الأوسى، والمقامة النَّخْلِيَّة لأبى الحسن النباهى المالمقى المتوفى بأخرة من القرن الثامن وهى مفاخرة بين النخلة والكرمة. ولللسان الدين بن الخطيب مقامة فى السياسة، وهى أشبه برسالة أو مبحث فيها ينبغى أن يكون الحاكم عليه من نشر العدل فى رعيته وتعهده المجاهدين فى سبيل الله وأن لا يعولوا فى كسبهم إلا على مغائهم كالجوارح لا تَطْعَمُ إلا من صيدها وما يقع فى مخالبتها، ويلمُّ بسياسة العمال فى ولاياتهم وأن تقوم على الحق ودَحْض الباطل، وكل ذلك على لسان شَيْخِ فارسي ناصح لهرود الرشيد ويوصيه بعمارة البلدان والتمسك بالشرية. والرسالة حرية بأن تقرن برسائل السياسة عند ابن المقفع. ولللسان الدين غير مقامة فى وصف رحلات له فى بلدان الأندلس والمغرب الأقصى، وهى أشبه بالرحلات منها بالمقامات ولذلك سنتحدث عنها بين رحلات الأندلسيين. وحوالى منتصف القرن التاسع الهجرى يشتهر - فى أيام الأندلس الأخيرة - عمر الزُّجَال، وقد روى له المقرئ مقامتين أولاهما مقدمة لقصيدة هزلية طويلة، وثانيتها فى أمر الوباء الذى ألم بغرناطة زمن أميرها الغنى بالله، وهو فيها ينكر على قصر الحمراء بغرناطة إبقاء فيه على السلطان مع نفشى الوباء، ويقول إنه ينبغى أن يتحول عنه إلى مالقة التى كانت تتبع حينئذ غرناطة.

ونترك هذه المقامات التى تستوحى مقامات عصر أمراء الطوائف الشبيهة بالرسائل الأدبية إلى مقامات الكدية والشحاذة الأدبية التى تستوحى الحريرى فى مقاماته أو أقاصيصه الساسانية التى رواها الحارث بن همام عن بطلها أبى زيد السروجى. وأول ما يلقانا من ذلك المقامات اللزومية للسرقتسى، وهى خمسون مقامة، وسنخصها بحديث مستقل. وكان يعاصره الكاتب أبو عبدالله بن أبى الخصال الذى مرت ترجمته والمتوفى سنة ٥٤٠ وله مقامة^(٤) ساسانية جعل بطلها نفس بطل مقامات الحريرى: أبأ زيد السروجى، كما جعل الراوى لها نفس راوية تلك المقامات: الحارث بن همام. وتبدأ المقامة

(١) انظر ترجمة ابن عياض فى المغرب ١/٣٤٤

الأول من السفر الخامس ص ٢٠٢.

والتكملة ص ٢٣٣.

(٤) انظر فى مقامة ابن أبى الخصال تاريخ الأدب

(٢) التكملة ص ٤٠٧.

الأندلسى: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور

(٣) راجع ترجمته فى الذيل والتكملة: القسم

إحسان عباس ص ٣١٦.

بمنظر في الريف والناس مجتمعون حول أبي زيد السروجي، وهو يستحنيهم على الجود والسخاء وهم يحذفونه بالدرهم، وهو يتلقف ولا يتوقف. وعرفه الحارث ونصحه أن يبيت بمنزله خشية اللصوص ويلبى دعوته، ويطعم عنده الطعام المرى، حتى إذا أصبح الحارث وجده غادر المنزل تاركا له رقعة فيها ثلاث قصائد. وبيحث عنه ويعرف أنه ذهب إلى حانة. وتطيل المقامة في وصف الخمر والشاربين ومن في الحانة من الجوارى والغلمان. ويقضى البطل وروايته فيها يوماً هنيئاً، وتنتهي المقامة بمقطوعة شعرية.

وتوه كتب التراجم بمقامات لغير أديب، ولكن لا ندرى هل هي كمقامات عصر أمراء الطوائف أو هي تستلهم الحريري في مقاماته الساسانية، ومن أهم المقامات التي استلهمته مقامة العيد لعبد^(١) الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي المتوفى سنة ٧٥٠ وهو من أهل مدينة بليش، وكانت مجاورة لمالقة، وهي مقامة خاطب فيها الرئيس أبا سعيد بن نصر يستجديه أضحية، وهو فيها يحكى قصة ساساني من أهل الكدية أو الشحاذة الأدبية، ويستهلها بأن الرجل دخل داره ليتناول شيئاً من الطعام فقالت له زوجته لم جئت؟ لا طعام لك عندي إلا إذا صنعت ما صنعه زوج الجارة إذ فكر في العيد وأنت قد نسيت، فقال لها: صدقت وسأخرج الآن لأبحث لك عما ذكرت، وأخذت تقول له إنك لن تأتي بشيء وأخذت تهون من شأنه، ولما كان يجد من خوفها - كما يقول - ما يجد صفار الغنم من الذئب عداً يطوف السكك والشوارع ويجوب الآفاق، ويسأل الرفاق، ويخترق الأسواق، إلى أن مرَّ بقصاب (جزار) وبين يديه عنز، وسأله أن يبيعه منه ويمهله في الثمن، وباعه له مؤجلاً بعشرين ديناراً، وانحدر معه لدكان موثق يكتب لها عقد البيع. وعاد مع الجزار فلم يجد العنز، وكان قد سرده، فأخذ ينادى في الأسواق والأزقة من رأى عنزاً، وإذا برجل فخار خرج من دهليز يصيح أين صاحب هذا العنز، والعنز يدور في الدهليز ويحطم ما بقى من الطواجن والقذور. وطلبه المحتسب (شرطي السوق) وصاحب الدهليز أمامه يبكي، ولم يعف عنه إلا بعد أن أدى عنه جيرانه ما أفسده عنزه. وتوجه به مع الحمال إلى داره ولم تبق في الرقاق عجوز إلا وصلت لتراه، وتسأله بكم اشتراه، والأولاد يدورون به، أما ربة البيت، فبادرت زوجها تقول: «ليس في البيت خل ولا زيت، ومتى تفرح زوجتك، والعنز أضحيتك، واقلة سعدتها، وأخلف وعدها، وما حبستك عن الكباش السنان» وتأخذ في وصف الكبش السمين الذي كانت تريده، فيقول لها: وأين توجد هذه الصفة، يا قليلة

(١) راجع في ترجمة عبد الله الأزدي ومقامته وما بعدها.

الإحاطة في أخبار غرناطة (تحقيق عنان) ٤٢١/٣

المعرفة، فتقول له عند مولانا وأوانا الرئيس الأعلى، ويفيض في مديح الرئيس أبي سعيد بن نصر.

والمقامة مسجوعة سَجْعًا عذبا، وهى تصوّر جوانب كثيرة من المجتمع الغرناطى، تصوّر ربة البيت وما تكلف به زوجها من مطالب فوق طاقته حتى إذا أحضر لها ما تريد عادت فأزرت به، وتصور القصاب في زيه وقد شدّ في وسطه مئزرة وقصّر ثوبه وكشف عن ساقيه وشمّر ساعديه، وتصور جشعه في البيع. وترينا نظام التوثيق وكتابة العقود في الأندلس وما كان يشيع هناك من صناعة الفخار، والمحتسب ومن يساعده من الأمانة ورجال الشرطة، والعجائز وتطفلهن، والأولاد والتفافهم حول كل ما يرون. وهى مقامة بديعة.

المقامات اللزومية للسرّسطى

هو أبو الطاهر^(١) محمد بن يوسف التميمى السرّسطى الإشتراكونى نسبة إلى إشتراكونه: حصن من أعمال تطيلة في الثغر الأعلى. ويبدو أنه نشأ في سرقسطة، ولذلك نسب إليها وقيل إنه من أهلها. ويقول ابن بشكوال إنه سكن قرطبة، ولا نعرف بالضبط هل سكنها بعد أخذ النصارى لسرقسطة سنة ٥١٢ أو قبل ذلك وأكبر الظن أنه بارح سرقسطة مبكرا للقاء الشيوخ الناهيين في الأندلس، إذ تذكر كتب التراجم أنه أخذ عن ابن السيد البطليوسى بيلنسية وعن أبي بكر بن العربي بإشبيلية وعن أبي على الصدفى بمرسية سنة ٥٠٨ وعن أبي محمد الرّكلى بشاطبة، واستقر بقرطبة وتصدر فيها لإقراء الأدب واللغة. ونوهت كتب التراجم بأستاذيته لكثيرين من علماء الأندلس في العربية في مقدمتهم ابن مضاء صاحب كتاب الرد على النحاة. ولم تذكر كتب التراجم تاريخ مولد السرّسطى وذكرت أنه توفى بقرطبة سنة ٥٣٨ للهجرة. ومن آثاره كتاب المسلسل في غريب لغة العرب وهو منشور بالقاهرة، ومقاماته اللزومية أروع آثاره، ومن أروع ما قدمت الأندلس للأدب العربى من أعمال أدبية.

الطوائف المرابطين ص ٣١٧. وقد نشر مقاماته نشرة علمية محققة الدكتور بدر أحمد ضيف في الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الإسكندرية).

(١) انظر في أبي الطاهر السرّسطى الصلة لابن بشكوال رقم ١١٧٥ والتكملة لابن الأبار رقم ٥٥٤ ومعجمه ص ١٤٤ وما بعدها والإحاطة ٥٢١/٢ وتاريخ الأدب الأندلسى: عصر أمراء

وقد وضع السرقسطى مقاماته في محاذاة مقامات الحريري وعلى غرارها من اتخاذ بطل لها من أبطال الشحادة الأدبية هو الشيخ أبو حبيب في محاذاة بطل مقامات الحريري: أبي زيد السروجي واتخذ له راوية هو السائب بن تمام في محاذاة راوية مقامات الحريري: الحارث بن همام. وذكر مع السائب في تسع مقامات راوية يحدث عنه هو المنذر بن حمام. وجعل السرقسطى مقاماته خمسين بعدد مقامات الحريري وبنهاها مثله على عَرَضِ حَيْلِ شحاذ أدبي كبير هو الشيخ أبو حبيب ويرقمها مثله من المقامة الأولى إلى المقامة الخمسين، غير أنه يختلف عن الحريري في أنه لا يعطى لكل مقامة لقباً خاصاً بها يميزها ما عدا أربع عشرة منها فقط هي التي ميزها بالألقاب. والشيخ أبو حبيب سدوسى من عمان وكثيراً ما يظهر في ثياب خَلَقَة وأسْهال، منكرًا لشخصه على طريقة الحريري. وهو دائماً واعظ يزهد الناس في الحياة ويحثهم على عَوْنِهِ لما يرون من سوء حاله، ويُلْقُونَ إليه بالدرهم والدنانير، أو يبذلون له المآكل والطعام، متخذاً دائماً حيلة أو موقفاً، به يستدرّ عطفهم. وكثيراً ما يشترك معه في الموقف أو الحيلة راويته السائب أو ابنه حبيب أو ابنته التي يتخذ منها جارية يبيعها ويأخذ ثمنها، ثم يتضح أنها حُرَّة، فيظفر بالثمن، وترُدُّ إليها حريتها، حيلة من حيله.

ومقامات السرقسطى مبنية على السجع مثل مقامات الحريري، غير أنه اقتدى فيه بأبي العلاء المعري فالترم في نسجه مالا يلزم من تعدد قوافي السجع أو نهاياته مشروطاً على نفسه أن تكون من حرفين أو أكثر. ولا يكتفى بتصعيب الممرات إلى سجعته في بعض مقاماته، إذ نراه في المقامة السادسة عشرة يشترط على نفسه أن تتوالى سجعته ثلاثية ولذلك سبأها المثلثة مفتتحاً لها بقوله: «أقمت في غَزَنَةَ^(١)، فترشفت من مائها أى مزنة، وتوطأت من أكتافها كل سهلة وحزنة» وسمى ناليتها المرصعة لأنه لم يكتف في سجعته بالاتفاق في حرف واحد بل التزم فيها حرفين أو أكثر كقوله في مطلعها: «حننت إلى الوطن المحبوب، ونزعت إلى العطن^(٢) المشبوب، حيث مآرب الشباب وملاعب الأحياب» وسمى الثامنة عشرة المدبجة، لأنه جعل الكلمات في كل سجعته تتقابل في نهاياتها وتتبادل، على شاكلة قوله في وعظها: «وسامك^(٣) الساء ورافعها، وماسك الدماء ودافعها، إنك في حبايل الرزايا المضطرب، ومن مناهل المنايا لمقرب». واشترط على نفسه في المقامة الثانية والثلاثين أن يختتم كل سجعته بحرف الهمزة ولذلك سبأها

(١) غزنة: مدينة في أفغانستان.

(٢) العطن: رافع.

(٣) سامك: رافع.

الهزمية، واختتم سجعات المقامة الثالثة والثلاثين بحرف الباء ولذلك سماها البائية، وسمى الرابعة والثلاثين الجيمية لاختتامه سجعاتها بحرف الجيم والخامسة والثلاثين الدالية لاختتام السجعات بحرف الدال. وبالمثل صنع نفس الصنيع في السادسة والثلاثين فاختم سجعاتها بالنون وسماها النونية. ونحس غير قليل من التكلف في هذه المقامات الخمس لبناء السجعات فيها على حرف واحد. وكذلك الشأن في المقامات الأربع التالية وأولها وثانيتها على نسق الحروف الهجائية وثالثتها ورابعتها على نسق حروف أبجد المعروفة، ولكن من الحق أن سجعاته في المقامات الأخرى تشيع فيها العذوبة والسهولة والقدرة على التفنن في الوعظ والوصف ونسج الكلام.

ويتنقل السرقسطى ببطل مقاماته بين بلدان كثيرة فيما عدا المقامتين الثلاثين والخمسين، فقد استعرض في أولهما على لسان البطل مميزات أبنه الشعراء في الجاهلية وعصر المخضرمين والعصرين: الأموى والعباسى، وخصّ الثانية - وهى المقامة الخمسون - بالحوار فى النظم والنثر بين ابن البطل حبيب وابن ثان لم يظهر إلا فى هذه المقامة اسمه غريب، وبينما ينتصر للشعر ينتصر غريب للنثر، حتى إذا اشتد بينهما الخصام، تدخل بينهما أبوهما الشيخ أبو حبيب للوثام، مبينا أن لكل من الشعر والنثر مجاله، والإحسان أنواع وضروب، حتى إذا اقتنع المتحاوران بكلامه أوصاهما - كما أوصى الحريرى ابنه فى مقامته الأخيرة - أن يقوما على حرفة الكدية وأن لا يصطحبا إلا الجواد ولا يرحلا إلا بزاد. ومثل هاتين المقامتين فى العناية بموضوع محدد المقامة التاسعة عشرة، وهى فى وصف الخمر وحاناتها. ودائما ينتقل الشيخ أبو حبيب فى مقاماته من بلد إلى بلد فى العالم الإسلامى منكراً لشخصه متحولاً من حيلة إلى حيلة ومن صيد إلى صيد، وفى كل صيد وحيلة يعرفه السائب بعينه ويكشف حقيقته وسره. ولم ينزل فى الأندلس سوى جزيرة طريف ونزل فى المغرب طنجة والقيروان، ونزل فى مصر الإسكندرية ودمياط وفى الشام فلسطين وحلب. ونزل فى أنحاء كثيرة من الجزيرة العربية مثل عدن والشحر وطُفَّار وزَبيد والبحرين واليامة، ونزل بالعراق فى بغداد وواسط والأنبار والرَّقَّة وحرَّان، ونزل بإيران فى الأهواز وأصبهان والرَّيِّ ومَرو، وتوغل فى بلاد الترك إلى الكَرَج ووصول وغزَّنة. ولا يكتفى السرقسطى بإنزال بطله فى البلدان الإسلامىة والضرب فى الصحارى والقفار، إذ رأى أن يخوض به البحار وأن يضم إلى رحلاته البرية كما صنع الحريرى رحلات بحرية تأثر فيها بما كتبه أصحاب تلك الرحلات، على نحو ما يلقانا فى المقامة الرابعة والأربعين وسماها العنقاوية نسبة إلى

العَنْقَاءُ أَنْتَى الرَّخِّ، وهما طائران خرافيان يتردد ذكرهما في أحاديث بَحَّارَةِ الْعَرَبِ عن رحلاتهم في أعماق البحار والمحيطات مبالغين في وصف ضخامتها وقوتها المخارقة وحملها لمن تحطمت سفنهم إلى البرِّ والبلاد المأهولة، على نحو ما نقرأ عند الرَّبَّانِ بُزْرُكِ بْنِ شَهْرِيَّارٍ مِنْ بَحَّارَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ فِي كِتَابِهِ: «عجائب الهند: برّه وبحره وجزائره» إذ يقول إن الرَّخَّ أَنْقَذَ سَبْعَةَ عَشْرَةَ سَفِينَتَهُمْ فِي جَزِيرَةٍ بِقَرْبِ الْهِنْدِ وَيُرْوَى عَنْ بَعْضِ الْمَلَّاحِينَ أَنَّهُ رَأَى رَيْشَةً مِنْ رَيْشِهِ تَسَعُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ قَرْبَةً مِنْ قَرْبِ الْمَاءِ! كَمَا يَذْكَرُ أَنَّ بَحَّارَةً وَقَعَ فِي سَفِينَتِهِمْ عَيْبٌ اضْطَرَّهُمْ أَنْ يَقْدُمُوا بِهَا إِلَى جَزِيرَةٍ صَغِيرَةٍ رَأَوْهَا فِي طَرِيقِهِمْ، فَزَلُّوا بِهَا وَأَصْلَحُوا. عَيْبٌ سَفِينَتِهِمْ وَعَنْ لَهُمْ أَنْ يَوْقِدُوا نَارًا لِبَعْضِ أَغْرَاضِهِمْ، فَأَحْسُوا الْجَزِيرَةَ تَتَحَرَّكُ مِنْ تَحْتِهِمْ، فَأَسْرَعُوا بِالنَّزُولِ إِلَى سَفِينَتِهِمْ، وَتَوَلَّتْهُمْ الدَّهْشَةُ، إِذْ رَأَوْا الْجَزِيرَةَ تَعْوِضُ فِي الْمَاءِ وَعَرَفُوا أَنَّهَا سُلْحَفَاءُ كَانَتْ طَافِيَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَأَحْسَتْ النَّارَ فَنَاصَتْ. وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذِهِ السُّلْحَفَاءَ الضَّخْمَةَ الْخَرَّافِيَّةَ وَالرَّخَّ الْخَرَّافِيَّ قَبْلَهَا لِأَنَّ مِنْ يَقْرَأُ مَقَامَةَ السَّرْقَسْطِيِّ الْعَنْقَاوِيَّةَ لَا يَشْكُ فِي أَنَّهُ قَرَأَ كِتَابَ بُزْرُكِ بْنِ شَهْرِيَّارٍ، وَأَنَّهُ اسْتَمَدَّ مِنْهُ حِينَ جَعَلَ بَطْلَ مَقَامَتِهِ وَرَاوَيْتَهُ يَلْجِجَانُ فِي رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ، «وَيَخْرُجَانُ إِلَى جَزِيرَةٍ عَرِيضَةٍ وَأَرْضُ أَرِيضَةٍ^(١)، وَلَا أَلْبَابَ وَلَا أَفْكَارَ، وَلَا عَرَفَانَ وَلَا إِنْكَارَ، إِلَى أَنْ اسْتَيْقَظَا مِنْ تِلْكَ الْغَمْرَاتِ، وَصَحَّوْا مِنْ تِلْكَ السُّكْرَاتِ، فَعَلِمَا أَنَّ الْجَزِيرَةَ حَيَوَانَ بَحْرِيٍّ أَصْحَرَ^(٢)، ثُمَّ أُبْجِرَ، وَشَمَسَ، ثُمَّ قَمَسَ^(٣) فِي الْمَاءِ وَانْقَمَسَ» وَالسَّرْقَسْطِيُّ يَشِيرُ بِهَذَا الْوَصْفِ لِلْحَيَوَانَ إِلَى أَنَّهُ سُلْحَفَاءُ، فَإِنَّهَا حَيَوَانَ بَحْرِيٍّ بَرِيٍّ إِذَا نَزَلَ إِلَى الْمَاءِ قَصْدًا لِلِاسْتِرَاحَةِ مِنْ طَوْلِ الْمَقَامِ فِي الْبَرِّ. طَافَا عَلَى وَجْهِهِ. وَمَا يَلْبِثُ السَّرْقَسْطِيُّ أَنْ يَقُولَ إِنَّ بَطْلَ الْمَقَامَةِ وَرَاوَيْتَهُ «أَطْلَّتْهَا ظُلَّةٌ ظَلِيلَةٌ وَسَحَابَةٌ بَلِيلَةٌ». وَتَهْبِطُ السَّحَابَةُ إِلَى الْأَرْضِ وَإِذَا هِيَ الرَّخُّ فَرَّخَ الْعَنْقَاءَ، وَيَطِيلُ السَّرْقَسْطِيُّ فِي وَصْفِهِ وَكَيْفِ تَعْلُقَا بِأَطْرَافِ رَيْشِهِ يَقُولُ السَّائِبُ الرَّاوِي:

«ثُمَّ لَمَّا صَدَعَ الْفَجْرَ وَوَضَّحَ، وَاخْضَلَّ^(٤) النَّوْدَى وَنَضَّحَ، سَارَ فِي الْهَوَاءِ سَيْرًا رَفِيقًا^(٥)، وَجَعَلَ السَّحَابَ يَسَايِرُنَا رَفِيقًا، تَخْفُقُ تَحْتَنَا الْبُرُوقُ، وَتَتَطَّلَعُ إِلَيْنَا الْمَغَارِبُ وَالشُّرُوقُ، إِلَى أَنْ فَارَقْتَنَا الْبِحَارَ، وَعَلِمْنَا أَنَّهُ الْإِصْحَارُ^(٦)، وَلَمَّا يَحْنُ مِنْ لَيْلِنَا

(٤) اخضل: ابتل.

(١) أريضة: حسنة المرأى.

(٥) رفيقا: ليئا متندا. رفيقا التالية: صاحبا.

(٢) أصحر: برز في الصحراء أو الأرض.

(٦) الإصحار: يريد الأرض.

(٣) شمس: نفر. قمس في الماء: غاص.

الإسحار^(١). ثم أخذ في الانصباب إلى أرض ذات أشجار وأنهار، ورياض موقنة وأزهار، فخيرنا أنها من أرياف النيل وشطوطه، ومجاريه وخطوطه، فحمدنا الله على نعمائه، وتقلبنا بين أرضه وسمائه».

ولا يلبث الشيخ أبو حبيب أن يعظ الناس ويرفده بالصَّلَات الحَفِيَّة، والهبات الحَفِيَّة وهو دائما يضمن مقاماته مواعظ خلقية وينهى المقامة بشعر، وقد يُكثِر منه في تضاعيفها. ويعود السرقسطى في المقامة السابعة والأربعين إلى الحديث عن رحلة في جزائر الهند لبطل مقاماته وراويته، غير أن الراوى لا يُفَضِّي فيها إلى وصف تلك الجزائر ولا إلى شيء من العجائب البحرية هناك إذ شُغِلَ عن ذلك بقضاء ليلة ماجنة مع البطل في مجلس غناء. وكأنما كان السرقسطى مطلعاً على شيء من الغيب، إذ جعل البطل في المقامة الحادية والأربعين يتعشش من دُبِّ يُراقصه ويؤمر عليه ويلاعبه، ومعروف أن رمز مَدْرِيد في عصرنا إنما هو الدب. وفي الحق أن المقامات اللزومية للسرقسطى أروع المقامات الأندلسية التي حاكت مقامات الحريرى بعده، وكانت حرة بأن يتجردها شارح مثل الشريشى مواظنه، وكأنما ينطبق عليه المثل: لا يطرب الزامر أهل بلده.

وحرى بنا أن نعرف أنه كان للمقامات تأثير واضح في الأدب الإسباني إذ نشأ على غرارها في منتصف القرن السادس عشر الميلادى لون من الفن القصصى ازدهر خلال القرن التالى يصف حياة المُشْرَدِين والمتسولين ويقوم على الشحاذة أو الكُدْبَة، سُمِّيَتْ أقاصيصه باسم «الأقاصيص البيكارسية» وسُمِّيَ بطلها باسم «البيكارو» ودائماً نشأته متواضعة ويعانى من آلام المسغبة والبطالة، فيتخذ التسول حرفة له يكسب بها قوته مستخدماً في ذلك حيلة والأعيب شتى تماماً كالشيخ أبى زيد السروجى في مقامات الحريرى وكالشيخ أبى حبيب في مقامات السرقسطى، مع صبغ كلامه مثلها بصبغة وعظمية خلقية^(٢).

(ب) الرحلات

لعل مسيرة قوافل الأندلسيين إلى مكة سنويا لأداء فريضة الحج وزيارة القبر النبوى الشريف هى التى جعلتهم يولعون بالرحلة والأسفار فى العالم الإسلامى وما وراءه من

والإسلام فى النهضة الأوربية ص ٨٨ وما بعدها.

(١) الإسحار: السير فى السحر.

(٢) انظر فى ذلك د. مكى فى كتاب أثر العرب

بلدان وشعوب في آسيا وأوروبا وخاصة في أنحائها الشرقية لاكتشاف المجهول من تلك الشعوب وما بديارهم من ظواهر كونية. وأيضا فإن تعدد مراكز الثقافة في العالم العربي وفي الأندلس نفسها منذ عصر أمراء الطوائف حَبَّبَ الرحلة إلى المشغوفين بالعلم والعلماء، على نحو ما نجد في عصرنا عند شبابنا العلميين من شغفهم بالرحلة إلى الغرب للتزود منه في جميع ضروب العلم والمعرفة. ولا ننسى للسفارات الخارجية التي كان يرسل بها حكام الأندلس وخاصة في عصر أمراء الطوائف إلى إخوانهم من الأمراء في الأندلس أو إلى نصارى الشمال أو إلى حكام إفريقيا ومصر والشام، وحتى في أيام الأندلس الأخيرة إلى الدولة العثمانية. وكثرت الرحلات والسفارات الداخلية زمن أمراء الطوائف للتشاور في أمر خطير من أمور السياسة والحكم كما كثرت رحلات حكام غرناطة والمغرب لتفقد شئون البلاد والرعية. ومن السفارات الداخلية سفارة الكاتب محمد^(١) بن مسلم الداني عن إقبال الدولة على بن مجاهد إلى بعض أمراء الطوائف من مثل المعتصم بن صُباح أمير المرية والمعتضد أمير إشبيلية حين نازعه المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) أمير سرقسطة في أحد الحصون، فكتب إلى أغلب قائد ابن مجاهد وواليه على ميورقة يصف له أحداث سفارته في رسالة طويلة سماها «طَيِّ المراحل» قال ابن بسام إنه اقتضب من فضولها لطولها ما يدل على براعة كاتبها، وبلغ ما اقتضبه منها نحو عشرين صحيفة. وفي فواتحها يتحدث محمد بن مسلم عن صداقته لأغلب وشوقه للقائه، ويذكر دعوة إقبال الدولة لإخوانه من أمراء الطوائف لإنجاده، ونداءه عليهم لإمداده فاستغشوا بأكامهم وجعلوا أصابعهم في آذانهم. ويقتطف ابن بسام من رسالته قطعا بديعة في وصف الطبيعة، وأخرى في وصف ما كان ينغمس فيه أمراء الطوائف من ترف بالغ، إذ بنوا - من عرق الرعية - القصور المشيدة، وألحقوا بها حدائق بهيجة، ويصور كيف كان يطفأ عليهم بصخاف من فضة وذهب، وحين يتوضئون تخبثهم طِساس^(٢) من التبر وأباريق رُصِّعت بالدر. وللشراب حجر خاصة وكان الأطباق فيها مُقل الجفون مُلئت من قُرَّة العيون وكان الكئوس مرأشف الحور تُمرَّج بحباب الثغور. ومن تصويره لقرطبة حين مرَّ بها ورأى ما نزل بها من الدمار والذل والهوان قوله: «كثيرا ما كنت أقترحُ إتيانها وإن كانت على هَرَم، وأتمنئُ وقفَةً فيها ولو على قَدَم،

(١) انظر في الداني الذخيرة ٤٢٧/٣ والمغرب (٢) طساس: جمع طست.

وأرغب [في] زيارتها ولو لِمَأمًا، وأودُّ رؤيتها ولو مَنَامًا، لألمح دَارَ الخِلافةِ، وأرى بَيْتَ الرِّياسةِ، وجعلتُ أسلكُ في منازلِ المدينةِ، وأنظرُ في تلكِ المشابهةِ المُبِينةِ، فإذا رُسُومها قائمةُ الأعلامِ، ونُصُبُها ماثلةُ الشَّكلِ والقيامِ.. ووقفتُ بالقصرِ العروانيِّ وانتَبذتُ إلى المُنْتزَهَةِ العَبْدِ الرَّحْمَانِيِّ^(١)، فإذا الثَّلَاثُ الأَثَافِيَّ^(٢) والديارُ البِلاقيَّةُ^(٣)، وقيلَ هنا كانتِ قصورهم وهناك هي قبورهم، قد صارت معاقلهم ترابًا، ومساكنهم يَبَابًا^(٤)».

ويطيل في تصوير مجد قرطبة أيام بني أمية ويبكيها بكاء مؤثرا ويصور جامعها وقبابه ومقصورتها الفخمة وزخارفها البديعة، والمحراب والمصحف العثماني بجانبه، وكأنا بيده ريشة يرسم بها لوحات بديعة. ويختم الدائي رسالته بزيارته للمعتضد في إشبيلية وبيان مدى ترحيبه به وما أعقد عليه من التحف والطرف.

ويتكاثر الرحالة الأندلسيون منذ القرن السادس الهجري ومن أهمهم أبو حامد^(٥) الغرناطي (٤٧٤ - ٥٦٤ هـ) شغف بالرحلة وتجوُّل في إفريقيا وزار صقلية سنة ٥١١ ومنها رحل إلى مصر وزار الشام والعراق، وتحول إلى نواحي البحر الأسود (بحر الخزر) وتوغل في بلاد الصقالبة والبلغار وعلى ضفاف نهر الفولجا، وصعد إلى أقصى الشمال في روسيا، وسجل مشاهداته في كتابه «تحفة الألباب ونخبة الأعجاب» وله كتاب سماه «تحفة الكبار في أسفار البحار» ونشر سيزاردوبلر بمدريد ما شاهده في شرقي أوروبا، وهو يكثر فيه من ذكر الخوارق والعجائب الجغرافية، غير أن به من حين إلى حين بعض حقائق ومشاهد بديعة كمشهد الزحلوة يتزحلق بها الناس على الثلج في روسيا يقول:

«الطريق هناك في أرض لا يفارقها الثلج أبدا، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً (زحلوة) ينحتونها، طول كل لوح باع وعرضه شبر، ومقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله، وفيه ثقب، وشدوا فيه سيورا

فيران لتحقيق كتابه تحفة الألباب ومقدمة سيزار دوبلر لتحقيقه قطعة من كتابه «المغرب عن بعض عجائب المغرب» وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي تعريف الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم (طبع لجنة التأليف) ص ٢٩٥ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين لمونس ص ٣٠٣ وكتابتنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٥١ وما بعدها وبالتالي ص ٣١٢.

(١) نسبة إلى عبد الرحمن بن الناصر أهم حكام البيت الأموي بقرطبة.

(٢) الأثافي: جمع أنفية، والثلاث الأثافي: ثلاثة أحجار توضع عليها القدر، وكانت القبائل تتركها وراءها حين ترحل عن الديار.

(٣) البلاقع: المقفرة.

(٤) يبابا: خرابا.

(٥) انظر في أبي حامد ورحلته مقدمة جبريل

من جلود قوية يشدونها على أرجلهم. ويقرن [الرجل] بين اللوحين اللذين يكونان في رَجْلَيْهِ بشندال (حبل) طويل مثل عنان الفرس، يمسكه في يده الشمال، وفي يده اليمنى عَصًا بطوله، وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة. ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج. ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة. فيذهب على ذلك الثلج بسرعة، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحدا أن يمشى هناك البتة، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبّد البتة، وأى حيوان يمشى عليه يَفُوص في ذلك الثلج فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب، فإنها تمشى عليه بخفة وسرعة». وهي صورة من الترحلق قديمة شبيهة أدق الشبه بصورة الترحلق الحديث الذي تُعقد له المسابقات سنويا في البلاد الأوربية.

وتلتقى بعد أبي حامد الغرناطي من رحالة الأندلس بابن جبير، وسنفرد له مع رحلته كلمة، ويلقانا من رحالة العصر الغرناطي القاضي أبو البقاء^(١) البلوى خالد بن عيسى وسمى رحلته «تاج المفرق في تحلية علماء إفريقيا والمشرق» وقد لقي فيها كثيرين من العلماء وروى عنهم، بدأها في ١٨ من صفر سنة ٧٣٠ وظل يلتقى العلماء سنوات ويأخذ عنهم، ونزل تونس وعينته أميرها كاتباً في ديوانه زمناً يسيراً، ثم عاد إلى بلده فعين بها قاضياً. ويقول لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة إنه حجّ وقيد عن العلماء، ورحلته في سفر وصف فيه البلاد ومن لقي بفصول، جلب أكثرها من كتابات العباد الأصهباني وصفوان بن إدريس. ولاين جابر الوادي آشى الذي مرت ترجمته في الفصل الماضي رحلة دون فيها ما اكتسبه من الفوائد الأدبية أثناء أسفاره الطويلة.

ويلقانا ابن^(٢) الحاج النميري المولود سنة ٧١٣ لأسرة كريمة وقد عنى أبوه بتريته حتى إذا كانت سنة ٧٣٤ عين كاتباً في ديوان أبي الحجاج يوسف الأول أمير غرناطة، وفي سنة ٧٣٧ رحل لأداء فريضة الحج، ونزل في عودته بقسنطينة سنة ٧٣٩ وخدم أمراءها الحفصيين، ثم تركهم وخدم أبا الحسن المريني حتى سنة ٧٤٧ إذ رأى العودة إلى أداء

ص ١٤ والمنهل الصافي لابن تغرى بردى ٦٦/١
وجذوة الاقتباس لابن القاضي ص ٨٧ ونثر
فوائد الجمان لابن الأهر ص ١١٣ ونفع الطيب
١٠٩/٧ ورحلة: «فيض العباب» حققها الدكتور
محمد بن شقرون ونشرها في الرباط.

(١) انظر في أبي البقاء ورحلته الإحاطة ٥٠٠/١
ونيل الابتهاج (طبع فاس) ص ٩٩ والكتيبة
الكامنة ص ١٣٤.

(٢) راجع في ابن الحاج النميري الإحاطة
٣٤٢/١ والكتيبة الكامنة ص ٢٦٠ ونيل الابتهاج

فريضة الحج وعاد فخدم الحفصيين سنة ٧٥٠ وبعد سنتين اعتزل للعبادة بتلمسان وأُجبر في سنة ٧٥٧ على خدمة السلطان أبي عنان وجعله رئيس ديوان الكتبة. وأُفلت عند موته وعاد إلى غرناطة فُعِين قاضياً إلى وفاته بعد سنة ٧٧٤ وكان شاعراً مجيداً في الشعر الغنائي والتعليمي. ويقول ابن الخطيب في الإحاطة له رحلة «فيض العُباب وإحالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب» وقد حققها ونشرها بالرباط - كما ذكرنا في الهامش - الدكتور محمد بن شقرون، ووضع بين يديها مقدمة قيمة. وهي في وصف رحلة السلطان أبي عنان المريني من فاس إلى سَلا والعودة منها ثم إلى قسنطينة والزاب والعودة منها عن طريق الصحراء. والرحلة وثيقة تاريخية مهمة عن فتح بني مرين لقسنطينة وعنابة وتونس وبيعة البلدان المغربية لأبي عنان، وقد كتبها ابن الحاج بأسلوب أدبي التزم فيه السجع وبعض المحسنات البديعية مع العناية باستخدام التورية والتصنع للمصطلحات العلمية وبعض الألفاظ الغريبة مما أشاع غير قليل من التكلف في صياغة الرحلة.

ولصديقه ابن الخطيب معاصره الذي مرت ترجمته بين كتاب الرسائل الديوانية رحلات بديعة في بلدان الأندلس والمغرب، وأول ما نقف عنده رحلته^(١) مع أميره أبي الحجاج يوسف الأول في تفقده لبعض الثغور الشرقية لإمارته سهاها: «خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف» وقد سار موكب أبي الحجاج فيها تلقاء الشمال الشرقي من العاصمة غرناطة إلى وادي آش فالبيرة. ويعود الموكب من طريق آخر مارا بثغر المَريّة على البحر المتوسط. وكانت زيارات الأمير أبي الحجاج لها ولغيرها من المدن أشبه باستعراضات عسكرية، يشترك فيها جند الأمير مع أهل البلدة إذ كانت بلاد الإمارة الغرناطية أشبه برباطات حربية، فكل من فيها حاملو سلاح. ويقول ابن الخطيب إن النساء في هذه الاستعراضات كن كثيرات، وكن يحمين الرجال ويحيين الرجال، ونظن ظنا أن كثيرات منهن كن سافرات إذ عرفت الأندلس - كما مر في غير هذا الموضع - السفور مبكراً.

ولابن الخطيب رحلة ثانية سهاها «معيار الاختيار في ذكر الأحوال والديار» ويسميتها مقامة وليست مقامة بل رحلة كسابقتها وصَفَ فيها أربعاً وثلاثين مدينة من مدن إمارة

(١) انظر في هذه الرحلة وتاليها كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. مختار العبادي.

غرناطة وبعض مدن المغرب الأقصى مثل مكناسة. والمقامة مسجوعة مثل سابقتها، وتصور في تلك المدن عمرانها ونشاطها الثقافي وكل ما بها من صور الحياة، مع ذكر محاسن كل مدينة وما قد يكون فيها من مساوئ. وله رحلة طويلة لم يكتبها سجعا مثل الرحلتين السالفتين بل كتبها مرسله غير مسجوعة، وصف فيها المغرب الأقصى ومدنه سهاها «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» وكانت في أربعة أجزاء، سقط منها ثلاثة من يد الزمن وبقي الجزء^(١) الثاني وهو يفتح هذا الجزء بالصعود إلى جبل هنتانة بمنطقة أطلس ويزور هناك قبر السلطان أبي الحسن المريني ويفيض في الحديث عن أحوال قبيلة هنتانة. ويزور أغمات وقبر المعتمد بن عباد بها ويحیی بقصيدة ويلم بمراكش وغيرها من المدن في طريقه إلى مدينة سلا على المحيط، ويذكر كل ما في تلك المدن من مساجد ومكتبات ومدارس. ورحلات ابن الخطيب عامة تكتظ ببيان أحوال المدن الأندلسية والمغربية الاجتماعية والثقافية.

ونلتقى بأخرة من زمن دولة بني الأحمر في غرناطة بالقلصادى على بن محمد القرشى البسطى (٨١٥ - ٨٩١ هـ.) الذى مر ذكره في الفصل الثانى بين علماء الرياضة، وله رحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، سهاها: «تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب» حققها وقدم لها ونشرها بتونس الأستاذ محمد أبو الأجفان، وهو لا يتوسع - باستثناء مكة ومناسك الحج - في وصف البلدان التى نزلها ذهابا وإيابا فى رحلته إلى الحجاز، بل يلتم بها فى إيجاز شديد، ليحدثنا عن الشيوخ الذين تتلمذ لهم فيها، وخاصة فى تلمسان وتونس والقاهرة، ويبلغون عنده ثلاثة وثلاثين شيخا. والكتاب أشبه بكتب الفهرسة والبرامج منه بكتب الرحلات، وهى كتب اشتهرت بها الأندلس من قديم، وفيها يذكر مؤلفوها شيوخهم وما سمعوه منهم وأخذوه عنهم من مؤلفات. وحرى بنا الآن أن نتحدث عن رحلة ابن جبیر.

(١) نشر هذا الجزء د. مختار العبادى بالقاهرة.

رحلة ابن جبير

هو محمد^(١) بن أحمد بن جبير الكنانى البلبسى المشهور باسم ابن جبير، أصل أسرته من مدينة شاطبة، وُلد ببلنسية سنة ٥٣٩ وقيل سنة ٥٤٠ وسمع في نشأته من أبيه وعلماء موطنه وأكبَّ على دراسة الفقه، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وطمح إلى العمل في الدواوين، وألحقه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن حاكم غرناطة لأبيه عبد المؤمن ثم لأخيه يوسف حتى وفاته سنة ٥٧٢. وكان عثمان شغوفا بالأدب، وخفَّ على نفسه ابن جبير فكان يحضره مجالس شرايه وعيَّنا حاول أن يقنعه بالشراب معه، إذ كان يعافه تدينا، وذات يوم أقسم عليه ليشربنَّ سبعا، ونزل مضطرا عند إرادته وشرب سبع كتوس، فملأ أبا سعيد الكأس دنانير سبع مرات وصبَّ ذلك في حجره، فحملها إلى منزله، وصمم أن يجعل كفارة شربه الخمر الحجَّ بتلك الدنانير، حتى إذا كانت سنة ٥٧٨ باع ملكا له تزوَّد به للحج، وفصل من غرناطة في شوال، وركب البحر في سفينة لبعض أهل جنوة قاصدا إلى الإسكندرية ونزل بها واتجه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر، ومنها إلى عيذاب حيث عبر البحر الأحمر إلى جدة، وقصد من فوره مكة، وأدى فريضة الحج، وزار القبر الشريف بالمدينة، ثم اتجه إلى الكوفة ببغداد فالموصل وبلدانه. وهو في كل تلك البلدان يمكث بعض الوقت ويدوِّن ما شاهده فيها من مساجد ومدارس وغرائب، ونزل الشام وكان لحملة الصليب فيها مستعمرات، فجاس خلال ديارهم وسجَّل كثيرا من أحوالهم. وركب البحر المتوسط من عكا على سفينة مسيحية عائدا إلى موطنه. وألّت السفينة بصقلية فنزل فيها وتجوَّل في بلادها، ورجع إلى السفينة، ونزل منها في قرطاجنة بساحل الأندلس في ١٥ من المحرم سنة ٥٨١

ورحلة ابن جبير تقصُّ ما شاهده في البلدان التي زارها ونزل بها في صورة مذكرات يومية، ومع كل بلدة وكل مشهد التاريخ باليوم والشهر، ويبدو أنه كتبها في أوراق منفصلة، وكان الموت عاجله قبل أن يجمعها نهائيا، فجمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وأثر من نشرها في العصر الحديث

ص ٢٩٩ وبالنبيا ص ٣١٦ ودائرة المعارف الإسلامية في ابن جبير وكتابتنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٧٠-٩٤. والرحلة طبعت مرارا في ليدن والقاهرة.

(١) انظر في ترجمة ابن جبير ورحلته المغرب ٢/٣٨٤ والإحاطة ٢/٢٣٠ ومقدمة رايت لتحقيقه لرحلته بلندن ومقدمة دى خويه لطبعها في ليدن وكتاب د. مؤنس ص ٤٣٧ وكراتشكوفسكى

من المستشرقين والعرب أن يطلقوا عليها اسم «رحلة ابن جبير». وله رحلتان بعد هذه الرحلة حجَّ في كل منها، والسبب في أولاهما أنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس سنة ٥٨٢ واستيلائه عليه من أيدي الصليبيين، فحدثته نفسه أن يزور تلك الأماكن وعلم الإسلام يرفرف عليها، وارتحل لذلك سنة ٥٨٥ وعاد سنة ٥٨٧ إلى غرناطة وسكنها ثم سكن مالقة ثم سبتة منقطعا إلى إسحاق الحديث النبوي وروايته. وكان قد تزوج من أم المجد عاتكة بنت أبي جعفر الوقيشي وزير ابن همشك أمير جيان قبل دخوله في طاعة الموحدين، وكان كلفا بها، وتوفيت فعظم وجدته عليها، ونظم فيها - بجانب ديوانين له أجدهما في الشكوى من إخوان الزمان - ديوانا سماه: نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح». ولكي يخفف عن نفسه حزنه عليها رحلته الأخيرة لأداء الحج سنة ٦١٤ وجاور بمكة فترة، ثم ارتحل إلى الإسكندرية وأدركته فيها منيته في نفس السنة، ويغلب أن يكون مسجد سيدي جابر بها مسجده وأن تكون العامة حرّفت اسمه مع الزمن.

والرحلة مكتوبة بأسلوب مرسل تشيع فيه السهولة والسلاسة والعدوية، مما جعلها نسيجة وحدها - كما يقول ابن الخطيب - كما جعلها تطير كل مطار، ونشعر في أحيان كثيرة كأنما بيده ريشة يبدع بها لوحات رائعة كما في تصويره للإسكندرية حين نزلها ومبانيها وأسواقها وشوارعها ومنازلها العجيب وما بها من مساجد ومدارس وبيوت لطلاب العلم. ويقول إنه بمجرد أن ينزل بها طالب علم من الأقطار النائية يجد مسكنا والعالم الذي يدرس عليه والراتب الذي يرتفق به. وينزل القاهرة ويصف القلعة والأهرام وأبا الهول، ويرسم مشهد الحسين حفيد الرسول عليه السلام في لوحة باهرة. ويطنل في وصفه للمارستان بالقاهرة وما به من خزائن الأدوية والأسرة كاملة الكسوة للرجال وما اتخذ فيه من قسم خاص بالنساء وقسم على مقاصيره شبابيك من حديد للمجانين. وينزل مدينة قوص ويصف الحياة فيها كما يصف مدينة عيذاب على البحر الأحمر ويقول في بحرها جزائر بها مغاص للؤلؤ نفيس. ويركب البحر إلى جدة وينزل مكة، ويرسم المسجد الحرام في لوحة باهرة، تجمع كل تفاصيله بأركانه وأبوابه وكل ما يغشى جوانب فيه من ذهب وفضة وستور حريرية وما به من مقام إبراهيم المغطى بالفضة ومن حوائط رائقة الترسيع والتجزيع وقبابٍ بديعة وسوارٍ وأعمدة بديعة التركيب. وتشغل هذه اللوحة صفحات متصلة من الرحلة لا تترك شيئا في المسجد ولا في ظاهره وسطحه إلا تقيده. ويرسم لوحة باهرة لمسجد الرسول عليه السلام كاللوحة التي رسمها للمسجد الحرام،

ومن قوله فيها عن الروضة المقدسة: (قبر الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر) والمنبر الشريف:

«الروضة المقدسة مع آخر الجهة القبليّة مما يلي الشرق.. وشكلها شكل عجيب لا يكاد يتأتّى تصويره ولا تمثيله. وجميع سَعَتِهَا من جميع جهاتها مائتا شبر واثنان وسبعون شبراً، وهى مؤزّرة بالرخام البديع النّحت، الرائع النّعت، وينتهى إزار منها إلى نحو الثلث أو أقلّ يسيراً، وعليه من الجدار المكرّم ثلث آخر قد علاه تَضْمِيخُ المسك والطيب، والذي يعلوه من الجدار شبائيك عودٍ متصلة بالسّمك الأعلى، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بسّمك المسجد. وإلى حين إزار الرخام تنتهى الأستار، وهى لازوردية اللون.. وفى الصفحة القبليّة أمام وجه النّبي ﷺ مسمارٌ فضة، هو أمام الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام، وإلى قدميه ﷺ رأسُ أبي بكر الصديق رضى الله عنه، ورأس عمر الفاروق مما يلي كتفى أبي بكر الصديق رضى الله عنها، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم، ثم ينصرف يمينا إلى وجه أبي بكر، ثم إلى وجه عمر. وأمام هذه الصفحة المكرّمة نحو عشرين قنديلا معلّقة من الفضة، وفيها اثنان من الذهب. وعن يمين الروضة المكرّمة المنبر الكريم، ومنه إليها اثنان وأربعون خطوة، وهو مرخّم كله، وارتفاعه نحو القامة أو أزيد، وسعته خمسة أشبار، وطوله خمس خطوات، وأدراجه ثمانية، وله باب على هيئة الشّبّاك مقفل، يُفتح يوم الجمعة، وطوله أربعة أشبار ونصف، والمنبر مغشىّ بعود الآبنوس، ومقعد الرسول ﷺ من أعلاه ظاهر، قد طبّق عليه بلوح من الآبنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه، فيُدخل الناس أيديهم إليه ويتمسّحون به تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم».

ويسترسل ابن جبير في وصف المسجد وقلته وما على جدارها من الفسيفساء بهذا التصوير البارع الدقيق. ويذكر أن المؤذن الراتب فيه من أحفاد بلال مؤذن الرسول رضى الله عنه، ويصف مشاهد المدينة. ويبارحها إلى الكوفة، ويصل إلى بغداد، ويصور بعض المجالس العظيمة لعلمائها ووعاظها وخاصة ابن الجوزى إمام عصره في الحديث والوعظ، وفي وصف إحدى مواعظه يقول:

«أتى فيها برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوبُ اشتياقا، وذابت بها الأنفس احتراقا، إلى أن علّا الضجيج، وتردد بشهقاته النّشيج، وأعلن التائبون بالصباح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح فشهدنا هولا يلا

النفوس إنابةً وندامة، ويذكرها هولَ يوم القيامة، فلو لم نركب ثَبَجَ البحر، ونعتسف مفازات القفر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفة الرابعة، والوجهة المفلحة الناجحة».

ويصف بغداد ومساجدها ومبانيها وأسواقها ومحالها، ويغادرها إلى الموصل فحلب، وتروعه مبانيها وقلعتها وجامعها والمدرسة الملحقة به وكأنها في الحسن روضة تجاور أخرى. ويصل دمشق جنة المشرق وعروس المدن، وتروعه بساتينها المحدقة بها إحداق الهالة بالقمر وما يمتد بشرقيها من غوطتها الخضراء بحلله السندسية البديعة، وينوه بحسنها، ويقول صدق القائلون عنها: «إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها (تقابلها) وتحاذيها». ويطيل الوصف لمسجدها الأموي العظيم وما به من عمد وقباب وأبواب وما عليها من نقوش وما يمتد على حيطانه وسقوفه من الفسيفساء البديعة وما به من مقاصير وغرائب التصاوير. ويفيض في الحديث عن مشاهد دمشق وأسواقها ومدارسها ومارستانها وما بها من خانقاهات للمتصوفة. وأشاد بأعمال صلاح الدين الأيوبي في الشام، كما أشاد بها في الإسكندرية والقاهرة، ونوه بانتصاراته على الصليبيين، وتغلغله في ديارهم، ولاحظ أن تجارهم وتجار المسلمين يغدون ويروحون في الدارين: دار الإسلام ودار حملة الصليب دون أي اعتراض، والحرب مع ذلك قائمة بين الفئتين والتجار في عافية. ويبحر من ميناء عكا مع التجار النصارى في إحدى سفنهم المعدة لسفر الخريف، وكانت متجهة إلى مسينة في صقلية، فنزل بها وتجوّل في بلدانها، وكان المسلمون قد فتحوا تلك الجزيرة في مطلع القرن الثالث الهجري وعربوها لمدة قرنين ونصف إذ فتحها النورمان، وكان ملوكهم الأولون يحتضنون الثقافة العربية ويرعون علماءها، ويجلسون منهم مجلس التلاميذ، مما أتاح لصقلية حينئذ أن تصبح مجازاً لعبور الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا وخاصة في عهد روجر الثاني وابنه غليوم اللذين طبعا حياة الدولة في أيامها بالطوابع العربية الإسلامية، ويصور ذلك ابن جبير في حديثه - برحلته - عن غليوم الذي زار الجزيرة في عهده، فيقول عنه:

«هو كثير الثقة بالمسلمين، وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله، حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين.. ومن عجيب شأنه المتحدّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته (في أول رسائله) - على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به - «الحمد لله حقّ حمده»، وكانت علامة أبيه «الحمد لله شكراً لأنعمه». وأما جواريه وحظاياها في قصره

فمسلمات كلهن، يقول: ومن أعجب ما حدثنا به خديمه: يحيى بن فتيان الطراز أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره، فتعود مُسلمة، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة، وهُنَّ على تكتم في ذلك كله، وهُنَّ في فعل الخير أمور عجيبة.. وأما فتياته الذين هم عُيون دولته وأهل عيالته في ملكه فهم مُسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجراً (طلباً للأجر) ويتصدق تقرباً إلى الله وتزلفاً، وهم في فعل الجميل أخباره مأثورة». وهى وثيقة تاريخية مهمة فيما كان من تعاون بين النورمان النصارى والمسلمين في أيام ملوكهم الأولى بصقلية. وينقل ابن جبير في الجزيرة، ومما يذكره عن تساء النصارى في «الرم» العاصمة أنهم كن يلبسن نفس زىّ المسلمات ويتحججن مثلهن منتقيات بالنقب الملونة كما يتزين على طريقتهن، ويقول إنهن فصيحات. ومع ذلك كله يقول ابن جبير إن راية الإسلام ستنكس هناك وسيصبح كل ما للمسلمين من مساجد وغير مساجد هناك أثراً بعد عين، وصدق حدسه. وقد أبحر من صقلية إلى قرطاجنة على الشاطيء الأندلسي ومنها إلى غرناطة. والرحلة - بحق - ممتعة لا بأسلوبها الأدبي المرسل البليغ فحسب، بل أيضاً بملاحظات ابن جبير الدقيقة المتنوعة.

خاتمة

تحدثنا - في الصحف الماضية - عن كثرة العناصر المكونة لسكان إيبيريا وأنها ظلت تستقبل عناصر متنوعة من القارات القديمة الثلاث: أوروبا وإفريقيا وآسيا، ومن قديم ظلت تستقبل حضارات الفينيقيين واليونان والقرطاجينيين والرومان دون أن تضيف شيئاً يميزها في تاريخ الحضارة الإنسانية، وغزاها القوط المتبربرون في القرن الخامس للميلاد وقضوا - أو كادوا يقضون - على كل ما وفد عليها من تلك الحضارات. ومرّ بنا فتح العرب لإيبيريا سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م والجهود التي بذلها موسى بن نصير وطارق بن زياد في فتحها حتى خليج بسكاي وجبال البرينيه التي تفصلها عن غالة (فرنسا). ولم تكد تَمْضِ أربع سنوات حتى أصبحت إيبيريا من جنوبيها إلى شاليها تدين بالولاء لدمشق كإقليم من أقاليم الدولة الأموية. ويُسْتَدْعَى الفاتحان العظيمان إلى دمشق بأخرة من سنة ٩٥ للهجرة ولا يعودان إليها. واستوطن الجيش الفاتح من العرب والبربر أواسط إيبيريا وجنوبيها، وسموا ديارهم - بل إيبيريا جميعها - باسم الأندلس أخذاً من كلمة «فندالس» سكانها في الجنوب. وتدخل الأندلس في عصر الولاة منذ سنة ٩٥ إلى سنة ١٣٨ وأبلى نفر من ولاتها - حتى سنة ١١٦ - بلاء حسناً في غزو غالة (فرنسا) ويفرضون على إقليم سبتانية بجنوبيها ولاءه للعرب، وتتقدم جيوشهم مرارا على نهر الرون وفي اتجاه بواتيه إلى الشمال وليون إلى الجنوب، وتدب العصبيات - بل تضطرم - بين قبائل العزب القحطانية والمضرية، وبين العرب والبربر، فيتوقف هذا المد العظيم، ولولا ذلك لفتح العرب شطراً كبيراً من أوروبا الغربية.

ويقيض لانتشال الأندلس من العصبيات المحتدمة فيها عبور عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٣٨ للهجرة بحر الزقاق إليها وإعلانه فيها ميلاد دولة أموية غربية تحلف دولة آبائه في دمشق التي قضى عليها العباسيون قضاء مبرما سنة ١٣٢ للهجرة. ويأخذ هو وأبناؤه وأحفاده الذين امتد حكمهم للأندلس نحو ثلاثة قرون في تأسيس حضارة أندلسية عربية باهرة، وقد أخذت تلك الحضارة في التكامل لعهد عبد الرحمن الأوسط الذي أنشأ للدولة أسطولا يحمي موانئها على المحيط الأطلسي

والبحر المتوسط، ووضع لحكم البلاد نظاما إداريا حضاريا، إذ اتخذ لها مجلس وزراء على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء في الأمم المتحضرة، وأضاف إليه هيئات - باسم خطط - للإشراف على مصالح الرعية. وبلغت الأندلس الذروة في المكانة السياسية والحضارية لعهد عبد الرحمن الناصر الذي فرض سلطانه على المسيحيين في الشمال. وما يليق عهد الدولة الأموية أن ينتهي بفتنة كبرى ظلت نحو عشرين عاما. وينشأ عصر أمراء الطوائف، وفيه تنقسم الأندلس إلى أندلسات، وبعبارة أخرى إلى إمارات كثيرة، ويتنافس الأمراء في الإكثار مما يحيط بهم من شعراء وعلماء وكتّاب، وتتفق سوق الأدب والعلم، وتهبط كفة الحكم والسياسة إلى أدنى مستوى، إذ يعيش الأمراء للترف واللهو وكل فنونه، ويتناحرون فيما بينهم، على حين يركعون - خائعين - للمسيحيين الشماليين، مما جعل ألفونس السادس ملك قشتالة ينقض على طليطلة واسطة عقد الأندلس سنة ٤٧٨ للهجرة ويستولى عليها، حتى إذا لم يبق منزع في قوس الصبر لا للفقهاء ولا للرعية ولا للأمراء اللاهين استصرخوا جميعا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب، فعبث إلى الأندلس سنة ٤٧٩ وسحق جموع ألفونس السادس في الزلاقة سحقا ذريعا، وتطورت الأمور سريعا، وأظل لواء المرابطين الأندلس جميعا. وتضعف دولتهم بعد نحو نصف قرن ونيف، وتعود الأندلس في بعض أجزائها إلى التفكك، وتتداركها دولة الموحدين، وتظل تجميها إلى أوائل العقد الثالث في القرن السابع الهجري، ومن مفاخرهم تدمير أميرهم يعقوب الموحدى لجيش ألفونس الثامن في موقعة الأرك سنة ٥٩١. وتعود الأندلس منذ سنة ٦٢٣ إلى التفكك، وتقع كثرة من مدنها العريقة في حجور المسيحيين الشماليين، ويستطيع ابن الأحمر سليل سعد بن عبادة الصحابي الجليل أن يستنقذ إمارة غرناطة له ولأسرته لأكثر من قرنين ونصف إلى أن سلم أبو عبد الله الصغير مفاتيح المدينة لفرناند وزوجته إيزابيلا سنة ٨٩٧ للهجرة.

وذكرنا ما تم في المجتمع الأندلسي من مزج سريع بين المسلمين من العرب والبربر وبين المسيحيين ومن دخلوا في الإسلام منهم وأبنائهم، وكانت حياة المسيحيين حياة متبديدة بها غير قليل من الشظف، بينما أخذ المسلمون الأندلسيون يتحولون إلى حياة حضارية، وخاصة منذ عهد عبد الرحمن الأوسط لشغفه بحضارة العرب المادية في المشرق مما جعل التجار يحملون إليه كثيرا من أدواتها، وساعد على اكتمال الحضارة الأندلسية في عهده وفود زرياب تلميذ إسحق الموصلي - أكبر الموسيقيين في عهد الرشيد - على قرطبة، ومكّن له عبد الرحمن - إلى أقصى حد - من إحداث نهضة موسيقية في الأندلس بإنشائه

له معهدا موسيقيا تخرج فيه كثيرون، قادوا بالأندلس الحركة الغنائية والموسيقية قيادة بديعة. ولا يقف أثر زرياب عند هذا الجانب، بل يتسع ليشمل الجوانب الحضارية المادية في المأكل وملبس الجنسين وتزينها في الهبئة والمظهر، وأيضا في اتخاذ الرياش الفاخر. وأخذ عبد الرحمن الأوسط وأبناؤه يعنون ببناء القصور والتأنيق في أثائها وزينتها، ولا يبنى حفيده الناصر قصرا فحسب بل يبنى مدينة عظيمة هي مدينة الزهراء. ومن يتابع ابن بسام في وصفه لبعض قصور أمراء الطوائف مثل قصر المكرم لبني ذي النون يظن كأنها من قصور ألف ليلة وليلة الخيالية، وما يزال قصر الحمراء بغرناطة إلى اليوم يشهد بما بلغته الحضارة المادية في المعمار إلى أوج لم تعرفه الأندلس قبل العرب وبعدهم إلى اليوم.

وكان للمرأة في هذا المجتمع الأندلسي الحضاري مكانة عظيمة جعلتها تحظى من الحرية بما لم تحظ به أختها في المشرق حتى كان بينهن كاتبات مشهورات للخلفاء الأمويين، وكان بينهن عالمات مقرئات ومحدثات وطبيبات، وكان بينهن سيدات مجتمع راقيات كصاحب الصالونات بفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وكان لهن - مثلهن - غير قليل من التأثير في الحياة الأدبية.

ولم تعرف الأندلس التشيع إلا قليلا وعند أفراد محدودين، وظلت النزعة الأموية تغلب عليها بعد سقوط الدولة الأموية، وعرفت الأندلس الزهد وتألقت فيها أسماء زهاد كثيرين، كما عرفت التصوف منذ القرن الرابع الهجري وأنجبت فيه مشاهير مثل ابن عربي وابن سبعين والششتري.

ولم يكن لإيبيريا دور علمي في العصور القديمة، والعرب هم الذين بدأوا فيها الحركة العلمية بعلومهم اللغوية والدينية، وعمل عبد الرحمن الأوسط على السعة بهذه الحركة، إذ أدخل عليها بقوة العناية بعلوم الأوائل من رياضة وطب وصيدلة، وجلب كتب تلك العلوم من بغداد. وبلغ الناصر وابنه الحكم المستنصر بالحركة العلمية الغاية المأمولة باستدعاء العلماء من المشرق وإجزال العطاء لهم وجلب المخطوطات النفيسة في مختلف العلوم والآداب، مما أتاح لدراسة علوم الأوائل الازدهار منذ القرن الرابع الهجري، مع ما أضاف إليها علماء الأندلس من إضافات باهرة على مر العصور، وتلمع في الرياضة أسماء مسلمة المجريطي والزرقالي والبَطْرُوجِي والرَّقُوطِي، وتلمع في الطب أسماء الزهراوى وبنو زهر وابن رشد، وفي الصيدلة أسماء الغافقي وابن العوام وابن البيطار

وفي الفلسفة أساء ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وفي الجغرافية أساء الرازي وأبي عبيد البكري وابن غالب وابن سعيد.

وينشط علماء النحو واللغة مبكرين، ويؤلف الزبيدي كتابا في طبقاتهم حتى زمنه في القرن الرابع الهجري، ويبلغون عنده نحو مائة عالم نحوي ولغوي، ومن أشهرهم الرباحي راوي كتاب سيبويه عن أبي جعفر النحاس المصري ومنذر بن سعيد راوي معجم العين للخليل بن أحمد عن ابن ولاد المصري، والزبيدي نفسه صاحب الكتاب السالف، وأبو بكر بن القوطية وابن الإفليلي وابن سيده والشنتمري وابن الطراوة وعيسى الجزولي وابن عصفور وابن مالك وابن حيان. وتنشط مباحث البلاغة على يد أمثال ابن الكتافي المتطبب وحبيب الكلاعي والمواعيني وابن رشد وأبي البقاء الرندي، وبالمثل تنشط الكتابات النقدية عند ابن شهيد وابن خفاجة وابن بسام وحازم القرطاجني.

وينقل القراء مبكرين عن ورش المصري قراءته وتشيع في الأندلس، ومن أشهر علماء القراءات هناك القضاعي والظلمنكي ومكي بن أبي طالب وأبو عمرو الداني والشاطبي وابن حيان. وتعنى الأندلس بتفسير القرآن مبكرة، وتلمع فيه أساء بقي بن مخلد وابن أبي زمنين وابن عطية والقرطبي وابن حيان. ويتكاثر المحدثون من أمثال ابن وضاح وقاسم بن أصبغ والحميدي وابن قرقول وابن الخراط وابن القطان. ويتكاثر الفقهاء كثرة مفرطة وخاصة على مذهب مالك، وتدور فتوى فقهاءهم وقضاةهم عليه وعلى حَمَلَة مذهبه المصريين وخاصة عبد الرحمن بن القاسم، ومن أشهرهم شَبْطُون وعيسى بن دينار ويحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب وابن عتبة وابن عبد البر وأبو الوليد الباجي وابن رشد الجد. ويلقانا غير فقيه للشافعية من مثل ابن الخراز والأصيلي. وينشط المذهب الظاهري هناك، ومن كبار أتباعه منذر بن سعيد وابن حزم وابن حوط الله. وعرفت الأندلس الاعتزال عند أمثال عبد الأعلى بن وهب وابن مسرة ومنذر بن سعيد وإساعيل الرعيبي، كما عرفت المذهب الأشعري عند محمد بن خلف.

وكان للمؤرخين نشاط واسع في الأندلس منذ القرن الثالث الهجري، ومنهم من كتب في التاريخ العام مثل عبد الملك بن حبيب وعريب وابن الخطيب، ومنهم من كتب في تاريخ الأندلس مثل أحمد الرازي وابنه عيسى وابن القوطية وابن حيان ويحيى بن الصيرفي وابن صاحب الصلاة وأبي الحجاج البياسي وابن الخطيب. ومنهم من كتب في

السيرة النبوية مثل ابن حزم وابن عبد البر والكلاعي وابن سيد الناس. ومنهم من كتب في تراجم الأدباء والعلماء من كل صنف. ومنهم من كتب في الأنساب مثل ابن حزم وفي تراجم الصحابة مثل ابن عبد البر. ومنهم من كتب في التراجم الأندلسية العامة مثل ابن الفرضى وصاعد والحميدى وابن بشكوال والضبي وابن الأبار والملاحى وابن الزبير وابن الخطيب. ومنهم من كتب في تراجم الفقهاء والقضاة مثل ابن عبد البر أحمد بن محمد والحشنى والتباهى، ويشتهر في الترجمة للأطباء ابن جلجل وللغويين والنحاة الزبيدى وللأدباء من شعراء وكتاب ابن دحية والفتح بن خاقان وابن بسام وابن الأبار وابن سعيد وابن الخطيب وابن الأحمر.

وأخذتُ أبحث بحثاً تحليلياً تاريخياً في نشاط الشعر والشعراء موضحاً كيف أن أهل الأندلس تمثلوا العربية تمثلاً قوياً، وشركهم المسيحيون في هذا التمثيل، حتى إن جمهورهم هجر لغته اللاتينية الدارجة، وأصبحت العربية لسانه ومهوى فؤاده وأداة تعبيره عن مشاعره وأفكاره، حتى ليعلن ذلك أحد قساوستهم متحسراً ومتعجباً أشد العجب من هجران الشباب المسيحي للغته وطنه الرومانثية وتمثله للعربية معجباً بها وبأدبها أشد الإعجاب، محاولاً بكل ما استطاع أن يُتقنها. ويقول القس إن كثيرين من الشباب أتقنوها وكتبوا بها أشعاراً ورسائل بديعة. ويشهد لكلامه أننا نجد فعلاً بين المسيحيين الإسبان من بلغوا من إتقان العربية والقدرة على التعبير الدقيق بها أن عُيِّنوا كتاباً في دواوين الدولة، وبذلك وبأدلة أخرى مؤيدة أضفناها. ما ينقض نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون في حياتهم اليومية لهجة رومانثية من اللاتينية الدارجة، وما كانت الأندلس بدعا من الأقاليم العربية، فقد ظهرت فيها جميعاً عاميات دخلتها في جميع البلدان العربية ألفاظ من لغاتها الأصلية التي كانت متداولة فيها، وبالمثل كانت تشيع في الأندلس عامية عربية تسربت إليها ألفاظ من اللاتينية الدارجة على نحو ما حدث في عامية الشام ومصر وغيرها من البلدان العربية.

وعاشت الفصحى بجانب هذه العامية الأندلسية العربية معيشة مزدهرة شأنها في ذلك نفس شأنها وازدهارها في جميع الأقطار العربية، وتدلل على ذلك دلالة بيّنة كثرة الشعراء في كل بلد بالأندلس حتى في الريف وبين أهل القرى، وهي كثرة تأخذ في الاتضاح منذ القرن الثالث الهجرى، وتتسع سعة شديدة في عصر أمراء الطوائف، إذ تعدد الأمراء الذين يغدقون عطاياهم على الشعراء. ويظنون يتكاثرون في اطراد طوال العصور التالية.

واستطاعت الأندلس في أثناء هذا النشاط الشعري الواسع أن تنفذ إلى ابتكار فن شعري جديد هو فن الموشحات، وحاول بعض المستشرقين الإسبان مثل غرسية غوميس أن يقولوا إنها نشأت من المزج بين الشعر العربي وبين بعض الأغاني الرومانسية في اللاتينية الإسبانية الشعبية، وليس في أيديهم أغنية رومانسية واحدة يستطيعون أن يثبتوا عن طريقها هذا المزج. والصحيح - كما أثبتنا بأدلة متعددة - أن الموشحات إنما هي صورة أندلسية تطورت عن أصول مشرقية هي المسمطات، وكان أول من أحدثها عربي هو مقدم بن معاني، وأعطاهها صورتها النهائية بعده عريبان هما الرمادى الكندى وعبادة ابن ماء السماء الأنصارى. وعرضنا أو أشرنا إلى طرائف من الموشحات على مر الأزمنة مع الترجمة لثلاثة من المشاهير البارعين هم ابن عبادة القرزاز ويحيى بن بقى وابن زهر، والمنا بالأزجال وذهبنا مع ابن خلدون إلى أنها نشأت بعد الموشحات مع الاستشهاد ببعض روائعها ومع الترجمة للزجال الفذ ابن قزمان. ثم أخذنا في دراسة أغراض الشعر دراسة تاريخية نقدية تحليلية تعقبنا فيها كل غرض وأهم شعرائه على مر التاريخ، وبدأنا بشعراء المديح مع نماذج من مدائحهم ومع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وصنعنا نفس الصنيع بشعراء الفخر مع الترجمة لثلاثة من أفذاذهم، وبالمثل لشعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائين، ولأصحاب الشعر التعليمي مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعلى نحو ما عُرض من روائع الأغراض الشعرية السالفة عُرضت روائع الغزل على مر العصور مجسدة الشأو البعيد الذى بلغته الأندلس في تلك الروائع، إذ تمثل شعراؤها إلى أقصى حد ما في الحب العذرى العربى القديم من حين ملتان وحب ظامى لا ينطقى أواره، مع ما يلاحظ من أن ناظميه يعكسون مشاعرهم على عناصر الطبيعة من حولهم. وتباد لهم المرأة الأندلسية - مع ما يحفها من عفة ووقار - حبا بحب. ويشترك معهم في الغزل الفقهاء والفلاسفة هناك، مما أتاح للغزل في الأندلس سموا بعيدا على نحو ما يتضح عند من ترجمنا لهم وخاصة ابن زيدون وولادة. وملتقى بشعراء الطبيعة والخمر، وتبلغ الأندلس في شعر الطبيعة ذروة لعل إقليميا عربيا لم يبلغها على مر العصور، وتوضح ذلك غاية التوضيح النصوص والتراجم المختارة وخاصة تراجم ابن مقانا وابن خفاجة وابن سفر. وبلغنا شعراء الرثاء للأفراد وفي مقدمتهم ابن وهبون وتأملاته البديعة في حقائق الحياة والموت، وشعراء الرثاء للدول الغاربة في الأندلس وفي مقدمتهم ابن اللبانة وابن عبدون. ونقرأ خواطر بديعة لشعراء الزهد والتصوف، وتتيح الأندلس للتصوف الفلسفى ازدهارا عظيما على نحو ما هو معروف عن متصوفها ابن عربى. وتزدهر فيها

المدائح النبوية ازدهارا رائعا على نحو ما يلقانا عند ابن جابر الوادى آشى. ومنذ سقطت طليطلة في القرن الخامس يستصرخ الشعراء العرب ومواطنيهم لاستنقاذ مدنهم من أيدي حملة الصليب، ويتعالى الصراخ في القرن السابع الهجرى وبعده، على نحو ما يلقانا عند ابن الأبار وأبي البقاء الرندى.

وازدهر النثر في الأندلس ازدهارا لا يقل عن ازدهار الشعر فيها، ويتضح ذلك في كثرة كتاب الرسائل الديوانية على مر العصور، وفي مقدمتهم البيهقي وأبو محمد بن عبد البرّ وابن القصيرة وابن أبي الخصال وابن الخطيب، كما يتضح في كثرة كتاب الرسائل الشخصية وفي مقدمتهم حبيب وابن الدباغ وابن طاهر وابن الجدي. ونفذ الكتاب المبدعون هناك إلى رسائل أدبية بارعة، منها رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المستوحاة من إحدى مقامات بديع الزمان، مع بث روح وفكر جديدين فيها، ومنها رسائل ابن برد الأدبية، وإحداها وهي في تفضيل أهب (جلود) الشياه على البسط مستوحاة من رسالة سهل ابن هرون في فاتحة كتاب البيخلاء للجاحظ التي يحتج فيها للبخل ضد الكرم، ومنها الرسالة الهزلية لابن زيدون وأختها الجدية، وأولاهما مستوحاة من رسالة التريبع والتدوير للجاحظ مع اختلاف الموضوع، ومنها رسالة ابن غرسية الذميمة في الشعوبية والردود عليها، ومنها الرسائل النبوية البديعة على نحو ما يلقانا عند ابن الجنان، ومنها مواظ مؤثرة مثل مواظ منذر بن سعيد وأبي بكر الطرطوشى. وملتقى بأعمال نثرية متنوعة وفي مقدمتها كتاب طوق الحمامة لابن حزم الفقيه المبدع، وهو يكتظ بتجاربه وتجارب معاصريه في الحب العذرى مع الشهادة الناطقة بازدهار هذا الحب العفيف الطاهر في الأندلس. وملتقى بالمفتبس لابن حيان وهو طراز في الكتابة التاريخية لا نظير له في كتابة التاريخ عند العرب، ومثله الذخيرة لابن بسام في كتابة التراجم الأدبية وعرض ما لأصحابها من روائع شعرية ونثرية. وتلقانا مذكرات أمير غرناطى هو عبد الله بن بلقين، كما تلقانا قصة حى بن يقظان لابن طفيل، وهي قصة طفل ألقى به بعد مولده في جزيرة مهجورة، فتبنته ظبية فقدت رضيعها وأرضعته، ونما وأخذ عقله ينمو معه ويرصد كل ما حوله حتى إذا بلغ الثلاثين أخذ يدرك حقائق الأشياء شأن الفلاسفة، وشعر أن للكون خالقا وأخذ يشعر برغبة شديدة للاتصال به، وبعد محاولات شتى استطاع الاتحاد بربه. وبذلك يثبت ابن طفيل أن التأمل العقلى الخالص المفضى إلى الفلسفة مثله مثل الإيمان عن طريق الأنبياء في أن كلا منهما يؤدي إلى نفس الغاية وهي الاتحاد الصوفى بخالق الكون ومنشئه. وقد ثبت ثبوتاً يبيّن أن عناصر القصة عناصر

عربية إسلامية خالصة، وقد أثرت في الأدب الإسباني إذ استوحيت منها قصة موريسكية هي قصة الصنم والملك وابنته وقصة (الكريتيكون) للكاتب الإسباني اليسوعي جراثيان المنشورة في منتصف القرن السابع عشر، وأثرت القصة آثاراً مختلفة في الآداب العالمية على نحو ما هو معروف عن قصة روبنسن كروزو لكاتبها الإنجليزي دانييل ديفو.

ويعرض الفصل بعد ذلك فن المقامات في الأندلس وسلوك بعض أصحابه مسلك الحريري في مقاماته القائمة على الكدبة والشحاذة والتفاح بالسجع والتعبيرات الأنيقة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقسطي وبيان التزامه فيها ما لا يلزم من تعدد الحرف في قوافي السجع محاكاة لأبي العلاء في لزومياته، وتغلغله يبطل مقاماته في أعماق المحيطات بالإضافة إلى ما تنقل بينه من البلدان العربية. وذكُر - في إجمال - ما أثر به فن المقامات في الأدب الأندلسي إذ نشأت على غراره في القرن السادس عشر للميلاد وخلال القرن السابع عشر قصص سميت بالقصص البيكارسية، وبطلها «البيكارو» يتجرّع - كبطل المقامات - آلام اليأس والفقر، ويعيش على التسول والشحاذة متوسلاً إلى ما يكتسبه عن طريقها بحيل وخذعٍ شتى يستحوذ بها على إعجاب الناس فيوسعون حفاوة وعطاء.

وتحدث الفصل عن رحلات الأندلسيين وبواعثها الكثيرة لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، وللإلمام بمراكز الثقافة في المشرق والأخذ عن الشيوخ: أخذ المؤلفات والإجازات، وللسفارة إلى ممالك النصارى في الشمال وأصحاب الإمارات المختلفة في الأندلس ومرافقه حكام غرناطة وسلاطين المغرب في رحلاتهم، وللفرجة على ما وراء البلاد العربية في آسيا وشرقي أوروبا واكتشاف المجهول في تلك الديار النائية من الأمم وظواهر الكون. ومن أطرف تلك الرحلات رحلة أبي حامد الغرناطي إلى بلاد البلغار والصقالبة وروسيا، ورحلة ابن جبير في البلدان العربية، وتتميز بدقة الوصف وجمال السرد والأسلوب المرسل العذب.